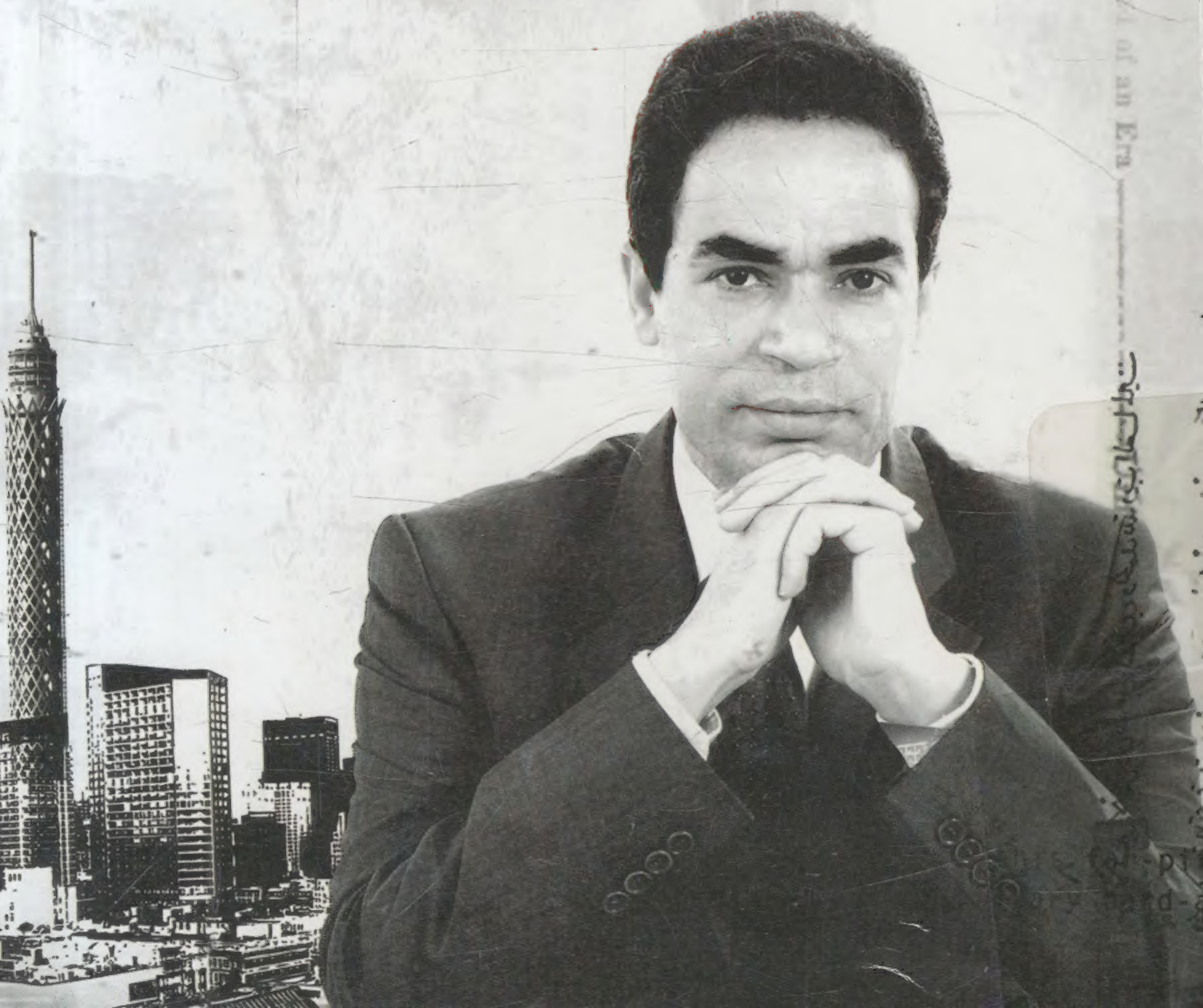


مصر الكبرى

أحمد المسلماني



أحمد المسلماني
مصر الكبرى

كيان كورب للنشر والتوزيع والطباعة
دار ليلي

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو تقليد
أو إعادة طبع - دون موافقة كتابية - يعرض
صاحبه للمساءلة القانونية.

الكتاب:

مصر الكبرى

المؤلف:

احمد المسلماني

رقم الإيداع:

2012/2891

التقديم الدولي:

978-977 5238 19 1

الغلاف:

كريم آدم

التنفيذ الفني:

حسام سليمان

مدير التوزيع:

عبد الله شلبي

الإشراف العام:

محمد سامي

المهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11

هاتف: 33370042 (02) (002) - 3885295 (012) (002)

البريد الإلكتروني: mall@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

کیان کورب
للنشر والتوزيع والطباعة
دار لیلی

أحمد المسلماني
مصر الكبرى

إهداء

إلى أمي السيدة سعاد الصاوي
التي علمتني أن المنزل وطن صغير
وأن الوطن منزل كبير
وأن انهيار الأحلام الصغرى لا يعني شيئاً
ما دام حلم واحد كبير.. لا يزال بالإمكان

أحمد المسلماني

مصر الكبرى من النيل إلى الفرات..

مقدمة

بدايات

قضيتُ طفولة محظوظة للغاية.. كنتُ تلميذاً مشهوراً في قريتنا.. وكانت قريتنا- كفر الدوار مركز بسيون، محافظة الغربية- هي الأصغر في المنطقة كلها، كل قريتي تعادل مساحة قصر واحد من قصور الأثرياء على أطراف القاهرة.

لكنني كنت أشعر بأن قريتي هي العالم.. إذا ذهبنا إلى «جُرن» بئس للعب الكرة.. نركض في إخلاص ونتشاجر في صدق كان العالم يحبس أنفاسه انتظاراً لنتائج مباراتنا.

وكنا إذا ذهبنا للصلاة.. نتشاجر من جديد على من يكون الإمام ومن يكون المأموم.. وعلى من أحفظنا للقرآن وأعلمنا بالحديث كان مصير هذا الدين رهن بصراع أطفال في الصفوف الخلفية للمصلين.

وكتا إذا بدأ طابور الصباح ارتفعت دقات قلوبنا.. ستبدأ الإذاعة المدرسية بعد قليل.. ثمة كلمة الصباح، وحكمة اليوم، وكلمة السيد ناظر المدرسة.. كان ميكروفون الإذاعة من الحديد الضخم.. ربما كان وزنه ثلاثة كيلوجرامات.. وكان سلك الميكروفون ممتداً بلا نهاية كأنه قادم من المجهول.. وكانت مكبرات الصوت تتجه إلى قبلى وبحرى.. فيسمع كلمة الصباح الفلاحون في الحقول، والقاعدون في المنازل، والعابرون في الشوارع.

تقطن شقيقتي الكبرى «هانم» إلى جوار المدرسة.. ولأنها تزوجت قبل دخولى المدرسة.. فقد كانت تعتبرني ابناً لها، كانت هانم تصعد إلى سطح منزلها لتسمع كلمة أخيها عبر الميكروفون.. ثم تأتي في الفسحة فتأخذني خارج الحوش ثم تبدأ الإشادة بروعة الأداء، وعظمة الأفكار.. وتمنحني مع فيض الثناء بعض السندويتشات والقبلات.

أشعرتنى هانم، كأن العالم كله ينتظر كلماتى، وأن الأسطح تمتلئ بمعجبين ومعجبات لا شاغل لهم إلا انتظارى من الصباح إلى الصباح.

هكذا سارت المقدمة العامة لحياتى.. إحساس هائل بالامتياز.. ضمن صحبة وأصدقاء كان لديهم الإحساس ذاته.. صراع على الإمامة كأننا على معاوية، وصراع فى ملاعب بدائية كأننا كأس العالم.. وصراع على الميكروفون كأننا نقود العقل البشرى إلى حيث نريد.

كانت القرية هى العالم.. وكنا القوى العظمى والقوى البازغة التى تتصارع بين جنباتها.

لقد مضيت على هذا النحو من الاستعلاء الطفولى والغرور البدائى وسط أصدقاء، لا ندرك جميعاً فضيلة التواضع، ثم كانت الصدمة الأولى.. أولى معارك المعرفة بعيداً عن كلمة اليوم، كان ذلك فى السادس من أكتوبر عام 1981.

رصاص

كان يوم الخامس من أكتوبر عام 1981 يوماً مهماً.. كنت فى السنة السادسة الابتدائية، وكنا نعد لحفل مدرسى فى اليوم التالى، سيكون السادس من أكتوبر.. لم تكن سيئاً قد عادت كاملة لنا.. لكن نصر أكتوبر كان قد أعاد إلينا أنفسنا وعلينا إذن أن نجهز كلمات وأشعاراً وخطباً حماسية وما يتناسب من القرآن والحديث مع مقام الاحتفالات بالنصر المجيد.

جاءت ظهيرة السادس من أكتوبر فى ذلك الخريف الصادم مختلفة تماماً، كان صوت الرصاص أمام منصة الرئيس السادات خليطاً من حقائق السياسة وخيال المسلسلات التى كنا ننتظرها فى القرية كل مساء.

هل هذا رصاص حقيقى.. أم أنهم يمثلون؟ هل اتجهت الرشاشات إلى صدر الرئيس أم أن هذا جزء ساحر من عرض عسكري بارع الإعداد والإخراج؟

سالنا أنفسنا- وسط مخاوف الطفولة- ما الذى جرى؟ وما الذى سيجرى؟ كانت أول إشاعة فى القرية أطلقتها سيدة لا تعرف الكثير عن السياسة ولا غيرها؛ لقد قتلوا السادات، قام كبار القوم بنفى تلك الإشاعة على الفور.. وقال المتابعون منهم.. الرئيس أصيب فقط وهو فى

الطريق لمستشفى العادى» والرئيس سيكون بخير هذا المساء.

ساعات قليلة.. كان الذين استمعوا إلى هيئة الإذاعة البريطانية وغيرها قد أكدوا وفاة الرئيس المؤمن برصاص أفراد من الجيش الذى قاده للانتصار، كانت هذه بداية النهاية لما عشته مع أصدقائى من غرور وخيلاء.. علينا أن نعتزف الآن بأننا لا نعرف شيئاً ولا نفهم شيئاً.. وأن كل ما قلناه في الإذاعة المدرسية مجرد صوت مرتفع وكلام مرصوص.

جاءت صدمة اغتيال الرئيس السادات قوية وعميقة.. لماذا قتل ضباط من الجيش الرئيس الذى عبر خط بارليف وهزم إسرائيل؟ ولماذا اختاروا يوم العرض العسكرى العظيم الذى يرمز لكسر إسرائيل ومجد بلادنا.. ليكون يوم النهاية القاسية لقائد الجيش والنصر، ثم كانت صدمة السياسة بعد صدمة الدماء..

لماذا لم يحزن الناس على أنور السادات؟.. لماذا كانت الشماتة على نطاق واسع.. ولدى الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ لماذا وزع بعض الناس الشربات كأنه فرح، وأطلق بعضهم الرصاص إعلاناً للبهجة والسرور. لقد سألت بعض الشامتين في اغتيال السادات مساء ذلك اليوم الدامى، من هؤلاء الذين قتلوه؟ وهل سيكون منهم الرئيس الجديد؟ وهل سندخل الحرب من جديد؟ كانت إجابة الشامتين واحدة: لا يهم أى شىء- اللهم مات السادات!

سفارة

كانت تحية العلم.. تحيا جمهورية مصر العربية (ثلاث مرات).. يعيش الرئيس محمد أنور السادات (ثلاث مرات).

فى السابعة من صباح أول يوم دراسى بعد الاغتيال.. كان على أن ألقى كلمة الصباح في الإذاعة المدرسية.. ثم أقوم بتحية العلم.. قلت لمشرف طابور الصباح، ماذا سنقول في تحية العلم هذا الصباح؟ قال لى: كما كنت تحيى بالأمس.. فقط ستغير اسم الرئيس.. ستقول: تحيا جمهورية مصر العربية.. يعيش الرئيس محمد حسنى مبارك.

قلت للمشرف: لكن الأستاذ فلان قال.. إن رئيس مجلس الشعب الدكتور صوفى أبو طالب سيكون الرئيس بحكم الدستور.. وهو ومجلس الشعب بعد ذلك سوف يقررون من هو الرئيس. قال لى: لا صوفى أبو طالب ولا مجلس الشعب لهم رأى ولا دور في هذا، الكلام

الكبير... سيأتى إليهم الأمر؛ فلان رئيساً.. وأنتم وافقتكم بالإجماع، ولن ينطق أحد.. اذهب إلى الطابور.. تحية العلم.. كما قلت لك.. تحيا جمهورية مصر العربية.. يعيش الرئيس محمد حسنى مبارك.

كان ذلك هو المشهد السياسى الأول من حياتى.. اغتيال رئيس.. وشماتة جمهور.. وتحية علم جديدة.. مات الرئيس.. عاش الرئيس.

مضت سنوات دراستى الثلاث فى مدرسة جناح الإعدادية على نحو هادئ تماماً.. لكن السنوات الأكثر حيوية وصخباً كانت فى مدرسة ناصر الثانوية فى بسيون، تحمل مدرستنا اسم الشهرة للرئيس جمال عبدالناصر.. لكن معظم النشاط فيها أقرب للمشروع الدينى وضد المشروع الناصرى. كانت تلك هى المرة الأولى التى التقى فيها أعضاء فى جماعة الإخوان المسلمين.

كان أبرز ما سمعته فى تلك الفترة وأصابنى بالصدمة ولاحقنى بالفرع، تلك الخرافة المزعومة حول إسرائيل الكبرى.. من النيل إلى الفرات. كان كل من سمعتهم يتحدثون عن حتمية قيام إسرائيل الكبرى عام 1997. لقد وجدت هذا اليقين بقيام إسرائيل الكبرى عند جميع من عرفت، وكانت أبرز عبارة فى تلك الخرافة التى آمن بها الجميع، «إن علم إسرائيل يحتوى على خطين أزرقين وبينهما نجمة داوود، والخطان الأزرقان هما النيل والفرات.. وتفسير ذلك أن حدود إسرائيل الحالية هى حدود مؤقتة لكن حدودها الحقيقية- كما يعبر عنها علم الدولة- هى مصر والعراق وما بينهما».

ويمتد هذا التحليل إلى خرافة فرعية ناتجة عن الخرافة الكبرى، هل تعرف لماذا توجد سفارة إسرائيل فى الجزيرة وليس القاهرة؟، لماذا لم يتم اختيار موقع السفارة فى النيل أو المعادى أو جاردن سيتى؟.. والإجابة، لأن المعادى وجاردن سيتى تقعان ضمن إسرائيل الكبرى.. وليس من المنطقى أن تعتمد الدولة سفارة لها لدى نفسها!

بروتوكولات

التحقت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، المرموقة، وأنا نصف يائس. فلقد كانت تتكرر على مسامعى من بعض الطلبة تلك الخرافة حول نشأة إسرائيل الكبرى. أعرف أننى

سأتخرج في موعدي الطبيعي عام 1992.. يا لسوء الحظ التاريخي.. لماذا جاءت ولادتي وحياتي في هذا الزمن؟ إنني لن أنعم بعد التخرج إلا بضع سنوات لأجد بلادي محتلة.. ستعبر إسرائيل نهر النيل إلى الجيزة وستعبر نهر الفرات إلى الشاطئ الآخر.. ستبدأ إسرائيل الكبرى وستبدأ معها مصر الصغرى!

ماذا عساني لو التحقت بالسلك الدبلوماسي مثلما ينوي زملائي إذا كان عمر الاستقلال وعمر السفارات أمامه خمس سنوات من تخرجنا؟ وماذا عساني لو التحقت بمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية.. إنهم يبحثون هناك في دوائر ثلاث، الدائرة المصرية والدائرة العربية والنظام العالي.. لكنني قد لا أتمكن من التعيين في الأهرام قبل أن تنتهي الدائرتان المصرية والعربية أمام دائرة إقليمية جديدة.. هي إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات!

الحمد لله الذي منحني الهدوء بعد فزع.. والأمن بعد خوف.. فقد بدأت أقرأ مؤلفات حامد ربيع وعبد الوهاب المسيري وتقارير مركز الأهرام.. لأقف على حقيقة أننا إزاء دولة عادية.. بل دولة مأزومة.. يمكن لأطفال إرباكها رمياً بالحجارة. لقد ظلت أحمل حقداً في داخلي على تلك السنوات التي عشتها مرتعداً من تلك الخرافة القائلة، إسرائيل الكبرى.

ولقد واصل ذلك الحقد معي حتى نهاية عام 1997، وكتبت في الأهرام مطلع شهر يناير عام 1998 مقالاً شاملاً بعنوان «خرافة إسرائيل الكبرى عام 1997».

كانت تساند تلك الخرافة مجموعة خرافات أخرى تضمنها كتاب شهير بعنوان «بروتوكولات حكماء صهيون».. ولقد قرأت مقدمة لهذا الكتاب تحكى قصصاً مثيرة حول الممارسات الصهيونية للمطابع والمكتبات والمترجمين وربما القراء.

حظي ذلك الكتاب التافه «بروتوكولات حكماء صهيون» باهتمام كبير.

أتذكر جيداً تلك الليلة السيئة التي قضيتها في قراءة الفصول الأولى من هذا الكتاب.. كنت في المدينة الجامعية لجامعة القاهرة في «بين السرايات» واستلقيت فوق سرير غرفتي.. يد تحمل الكتاب ويد تمسك بكوب شاي ثقيل!

لم أتخيل ما قرأت.. إنه كتاب ردىء يدعو إلى اليأس.. حيث لا أمل في أى شيء..

هناك شلة «آلهة» يحكمون هذا العالم.. إنهم يسيرون كل شيء.. قادرون على كل شيء.. يخططون لكل شيء.. لا يأخذهم خطأ ولا خوف.. أما نحن المصريين والعرب والمسلمين فلا شيء.. كأننا خراف في حظيرة.

إننى حتى اللحظة لا أفهم لماذا احتفى العقل العربى بهذا الهراء.. كيف لهذا العبث أن ينطلى على بعض مثقفينا فيجدوا فيه عملاً مسؤولاً وسياسة جادة؟.. ما هذه الهالة التى احاطت بهذا الكتاب؟ لو أن طفلاً رضيعاً قرأ كتاب البروتوكولات لتبول عليه ثم مضى فى طريقه.. واثقاً من نفسه ودينه ووطنه.. فكيف أخطأت أنا وبعض جيلى فأخذنا هذه البروتوكولات على محمل الجد.. كيف انهزمنا حين أمنا بحتمية الهزيمة؟

كم هو مؤلم أن تشهد هزيمة بعد حرب.. لكن.. كم هى جريمة حين تحيا هزيمة بلا حرب!

* * *

أصبح العالم بعيداً عنا بمثل ما لم يكن من قبل.. لم يحدث قط فى كل تاريخنا أن كنا بعيدين عن سقف العالم كما نحن الآن.. إننا ننظر إلى العالم من أراضٍ واطنة لم تكن أبداً طيلة آلاف السنين.. خفيضة كما هى اليوم.

(1)

أصبح أى حلم فى بلادنا مستحيلًا.. لا وجود لنا فى كاس العالم.. وحلم الحصول على كاس العالم مستحيل.. لا وجود لنا فى السينما العالمية.. وحلم حصولنا على جوائز العالم الكبرى مستحيل.. لا وجود لعاصمتنا بين المدن الأجمل.. واحتمالات تميزها على فيينا وباريس مستحيلة.. لا وجود لجامعاتنا ضمن المئة الأولى.. ووجودنا ضمن العشرة الأوائل مستحيل.

إن جغرافيا المستحيل تمتد طويلاً طويلاً.. وإنها لتغطى نفوس الغالبية العظمى من مواطنينا.. إنهم يشعرون أننا أصبحنا خارج حركة العالم.. وكل طموحاتنا أن نبقى على قيد الحياة.

(2)

لا سبيل إلى المستقبل بتلك النخبة القاحلة.. ولا تلك النفوس المهترئة. ثمة هزة حضارية لا بديل عنها... وظنى أن أولى خطوات الإصلاح الحضارى فى بلادنا هى: خلق «الأناء»

عند المصريين. لقد تواضع المصريون أكثر مما ينبغي وتواضعت أحلامهم أكثر مما
يحتمل. كان المصريون ينظرون إلى الآخر، من أعلى.. وكانوا يحسنون معاملة ضيوف
بلادهم.. كرمًا وخلقًا، لكن المقامات قد تبدلت.

أصبح المصريون ينظرون إلى كل العالم من أسفل.. وأصبحوا يحسنون معاملة
ضيوف بلادهم.. خوفًا وطمعًا.

(3)

اختفى المصريون القابضون على حضارتهم، وتصدر الرعاع الذين صاروا كالبغايا
أمام كل أجنبي يملك ويدير. تصدر الرعاع الذين جعلوا من كل ما هو مصرى.. أدنى،
وكل ما هو غير مصرى.. أعلى.

الذين جعلوا من جواز سفر بلادهم خادماً لكل جوازات السفر!

(4)

حان الوقت لكي نقول لكل هؤلاء الرعاع: حتى هنا كفى.

حان الوقت لكي نحرر بلادنا من حملة الحقائب.. من أولئك الذين يبيعون مكانتنا
أمام كل قادم باسم الفقر والاحتياج.

لننظر قليلاً حولنا.. كيف يرى الإيرانيون أنفسهم.. وكيف يرى الأتراك أنفسهم..
لننظر إلى أوسع.. كيف يرى اليابانيون أنفسهم.. وكيف يرى الألمان أنفسهم.

(5)

لا خطوة لنا إلى الأمام دون الترميم النفسى لمصر.. أن يصاب المصريون بالغرور
والاستعلاء.. أن يشعروا أنهم أعلى وأسمى من الآخرين.

إننا نحتاج إلى تأسيس نظرية نصف عنصرية.. تقوم على رقى الدم المصرى وعظمة
السلالة المصرية ومجد الدولة المصرية.

إن مصر الآن مثل ألمانيا ما بعد الحرب العالمية الأولى.. أكبر ما تحتاج إليه : الأنا..

(6)

لقد انتهت ألمانيا تقريباً بعد الحرب العالمية الأولى، ثم انتهت تماماً بعد الحرب العالمية

الثانية.. بالأنا الحضارية تجاوزت ألمانيا هزائم يستحيل تجاوزها.

ولقد انتهت اليابان بمثل ما انتهت ألمانيا.. بل كان من نصيب اليابان تجربة من الفزع لا سابق لها منذ خلق آدم وحتى الآن.. حين تجسدت أهوال يوم القيامة في هيروشيما ونجازاكي جراء إلقاء قنبلتين ذريتين.. ثم تجاوزت اليابان ومضت من جديد إلى مكان مميز في سقف العالم.

ولقد وقعت فرنسا بكاملها تحت الاحتلال، وتعاون عدد كبير من الفرنسيين مع الاحتلال الألماني لبلادهم.. وحكمت باريس حكومة عميلة انصاع لها الفرنسيون.. ثم تجاوزت فرنسا لتواصل الطريق.. دولة رئيسية في عالم اليوم.

إن دولة أوروبية مثل بولندا جرى احتلالها بكامل أراضيها في عشر ساعات، ثم خاضت تجربة حكم شيوعي ونفوذ سوفيتي.. ثم إذا هي الآن تمثل تجربة نجاح باهرة.

ولقد كانت إسبانيا حتى وقت قريب تمثل حالة من التخلّف، وكان الإسبان يقطعون مضيق جبل طارق إلى مدينة طنجة المغربية مبهورين بازدهارها وتحضرها.. ثم مضت سنوات قليلة انتقلت فيها إسبانيا من حال إلى حال. وبات الشباب المغربي يتساقط غرقاً في المضيق في محاولات للهجرة إلى ساحل إسبانيا الذي كان مهجوراً.

ولقد عانت الصين كل أشكال التخلّف.. وعانت هزائم عسكرية واحتلالاً يابانياً للقطاع الجنوبي من أراضيها.. ثم واجهت نوبات من الثورة والفوضى.. ثم إذا هي دولة قديرة تمضي بمليار وثلث المليار نحو الأفضل. إن روسيا يلتسين كانت نموذجاً كاملاً لفشل الدولة.. لا أمن ولا طعام.. لا علم ولا تعليم.. لا قوة ولا كرامة.

عمل علماء الذرة فيها في معامل العالم بقوت يومهم.. وتحولت مليون سيدة روسية إلى موجة جديدة من الجوارى. وأصبحت الحركة في شوارع موسكو مخاطرة ومغامرة.. ثم إذا هي روسيا تستعيد قوتها الكاملة.. وتسترجع معالم التاريخ الإمبراطوري. إن دولة مثل ماليزيا وأخرى مثل كوريا وثالثة مثل تايوان ورابعة مثل أيرلندا، وخامسة مثل تركيا وسادسة مثل البرازيل وسابعة مثل الهند.. كلها نماذج للإنجاز.. توجب الإجلال والإكبار.

(7)

ماذا بقي إذن من العالم؟.. وحدنا مع قليلين جداً نمثل أرض الظلمات.. وحدنا - في مصر - نمضي ضد الجغرافيا ونمضي ضد التاريخ!

يقول السفهاء من الناس إن مصر تحتاج إلى معجزة، ولأن عصر المعجزات قد انتهى، فلا أمل إذن.. وما على مصر إلا أن تمضى أيامها الأخيرة في صبر حتى يوم القيامة!

يقولون إن العطب في مصر لم يعد في الدولة ولا أجهزتها بل صار في الإنسان، ولأن الإنسان المصرى بات خاملاً جاهلاً كاذباً خادعاً.. فإن أى إنجاز في سقف الدولة يعنى لا شيء.. لأن المصريين هم الأزمة.

ويذهب بعض هؤلاء إلى أن المصريين كانوا دوماً أناساً عاجزين.. وأن تاريخ المصريين يؤكد صفات الجبن والخضوع والنفاق والجهل والفشل.. وكل ما كان جيداً في تاريخهم لم يكن بأيديهم.. وكل ما كان بأيديهم كان سيئاً.

ذهب أعداء «المصرية» من نقد السلطة إلى نقد الشعب، ومن إدانة الحكم إلى إهانة المحكومين، ومن نقد أشخاص مصريين إلى نقد الشخصية المصرية.

(8)

مثلما يروج اليهود لقولة «معاداة السامية» ربما أذهب بدورى لطرح مقولة «معاداة المصرية».. ثمة من يكرهون «المصرية» في ذاتها حضارة وتاريخاً.. بشراً وحجراً.. رسماً واسماً.

لقد بات العادون للمصرية يفخرون بكل دماء جرت في عروقهم إلا الدماء المصرية. ثمة من يفخرون بدماء تركية! وثمة من يفخرون بدماء شامية، وثمة من يفخرون بدماء صحراوية، وثمة من يفخرون بدماء أوروبية أو حتى مملوكية.. كل الدماء صارت أعظم وأقدس.. إلا دماء المصريين.. كل الأعراق باتت أعلى وأرقى إلا أجداد المصريين.

والحق أن أغلب الهوان العرقى في بلادنا انصب على القبائل العربية والتركية.. على بلاد الإمبراطورية العربية.

الإمبراطورية العربية التى فتحت وبلاد الإمبراطورية العثمانية التى واصلت.

(9)

على الرغم من أن دراسات عديدة تذهب إلى أن بعض القبائل العربية هم في الأصل مصريون، قدموا من صعيد مصر في قرون سابقة، واستوطنوا في الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر، وترى هذه الدراسات أن جانباً مما ظهر في بلاد العرب من قبائل وعوائل إنما يعود إلى صعيد مصر، وأن دخول العرب إلى مصر كان يمثل عودة لذوى الأصول المصرية إلى

بلادهم. على الرغم من أن دراسات كهذه تمثل تلطيها عرقياً يصل الحضارتين الفرعونية والعربية في سياق مصرى واحد.

وعلى الرغم أيضاً من أن الإسلام قد أنهى الصراع العرقى، وجعل كل المسلمين سواسية، لا فرق بين قرشى وحبشى.. ولو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع الرسول الكريم يدها.. على الرغم من أن قيماً كهذه تمثل حلاً نهائياً يصهر الحضارتين الفرعونية والعربية في سياق مصرى واحد.

على الرغم من هذا وذاك.. فإن قطاعاً من «اعداء المصرية» مازال يرى أن الأصل القبلى العربى يعلو على الأصل الإمبراطورى الحضارى المصرى!

(10)

إن جانباً آخر من الهوان العرقى كان إزاء تركيا.. ولا تكاد تخلو عائلة مصرية ذات شأن أو أسرة مصرية تبنى العراقة دون القول بأصول تركية.. على أرضية عنصرية شائعة.. إن الدماء التركية أرقى من الدماء المصرية.

لقد امتزجت بعض العائلات المصرية بعائلات تركية، وجاء النسب بين المصريين والأتراك بعائلات عديدة في مصر تحوى دماء تركية، وعائلات عديدة في تركيا تحوى دماء مصرية.. ويتمتع الأتراك بصفات رائعة توجب الحب والاعتزاز.. وأنا واحد ممن يشعرون بعاطفة دافئة وتقدير عميق للأشقاء الأتراك.

بشكل عام، وفى دول عديدة، يشعر بعض الناس بالرضا إذا ما كانت دماؤهم مختلطة دلالة تنوع وثراء.. لكن المحنة في مصر ذلك الشعور بالاستعلاء الاجتماعى والطبقية العرقية لمجرد وجود دماء تركية!

أود أن أقول بوضوح: إن أى تقييم عرقى بين المصريين والأتراك هو بالضرورة ودون نقاش لصالح المصريين.. وإذا كان من أعلى وأدنى بين الدماء المصرية والدماء التركية.. قولاً واحداً.. دماؤنا أعلى وأرقى.

(11)

إن بداية الطريق القصير إلى تأسيس «مصر الكبرى» هو إعادة بناء الأنا.

الأنا عند المصريين.. وإن الهدف ليس تحقير الآخرين، ولا الحط من شأن محيطنا

العربي الإسلامي لصالح الوطنية المصرية.. بل الهدف هو تعظيم الأنا المصرية كنقطة استئناف لقيادة الحضارة العربية الإسلامية.

إن ضعاف الثقة لا يقودون حتى أنفسهم.. ضعاف الثقة يرفعون الرايات البيضاء في قلوبهم قبل أن يرفعوها على بلادهم.. إنهم يعيشون دوماً حالة واحدة، هزيمة بلا حرب!

(12)

إن أهم ما يميز شعبنا وبلادنا أننا نستطيع الانتقال من حال إلى حال في لمح البصر. إننا أكثر الشعوب لياقة على مر التاريخ. لا نحتاج إلى فترة «تسخين» طويلة قبل المباراة.. فقط نحتاج إلى صفارة البداية.

فعلها محمد علي في لمح البصر، وفعلها إسماعيل في لمح البصر، وفعلها مصطفى كامل في لمح البصر، وفعلها سعد زغلول في لمح البصر، وفعلها جمال عبدالناصر في لمح البصر.. في أقل من مائتي عام انطلقت مصر من الصفر عدة مرات.. الآن نستطيع.

إن الرسالة الكبرى التي تحتاجها مصر الآن هي رسالة الأمل.. أن يعلم مواطنونا أن مصر لا تزال قادرة.. وأن الحضارة لا تزال ممكنة.

(13)

السطور القادمة عن «مصر الصغرى» عن مواجهتنا وآلامنا.. وهي سطور متفرقة نشرتها كمقالات في صحيفة «المصرى اليوم».. ولكنها تزيد على ذلك إلى سلسلة مقالات عن حركة المؤرخين الجدد التي دعوت إلى تأسيسها.. ثم إنها تزيد أكثر إلى مقالات رأى ناشرو هذا الكتاب ضرورة ضمها.

ولقد كان في تخطيطي أن أضع كتاباً عن حركة «المؤرخين الجدد»، وآخر عن «مصر الصغرى» وثالثاً عن «مصر الكبرى»، غير أن تجربتي المرئية في برنامج «الطبعة الأولى» على قناة «دريم» المصرية قد أخذت من جهد الباحث إلى عبء المتحدث.. ومن اكتمال الرؤية إلى نشرات الرأى.. ومن أفق الاستراتيجية إلى ضيق اليومية.

ولولا إلحاح الأستاذة أميرة سيد مكاوى، والأستاذ محمد فتحى.. ومعهما فريق عمل أسر، لكنت انتظرت إلى حين ربما أخذتنا الحياة دون أن يجيء.

(14)

رجائي من القراء أن يفتبروا مقدمة هذا الكتاب.. والتي تبشر بمشروع إمبراطوري جديد، تقود فيه القاهرة محيطها الإقليمي من النيل إلى الفرات، أشبه بمنشور ثوري.. يهدم ويبنى.. ولقد كان تقديري ولايزال.. أننا في هذه اللحظة، اليأس خيانة، والأمل وطن.

أحمد المسلماني - القاهرة 2010

مصر الكبرى من النيل إلى الفرات.. الآن نستطيع

كتبت المقدمة السابقة قبل ثورة 25 يناير، كان ذلك في عام 2010 ، وقد نشرتها صحيفة " المصري اليوم " على حلفتين في شهر يونيو 2010. كانت الحلقة الأولى في 16 يونيو 2010 وتلتها الحلقة الثانية في 17 يونيو 2010. وقد اخترت نشر هذه المقدمة في شهر يونيو من أجل تنكيس ذكرى النكسة وكسر ذاكرة الانكسار.. وإطلاق آمالنا وأحلامنا بلارواسب أو قيود.

كنت محبطاً من السلطة القائمة والسلطة المحتملة ، ومن النخبة السائدة والنخبة البديلة.. كنت أبحث عن حلم امبراطوري لدولة كانت كل صحافتها تتحدث عن مستقبل محصور ما بين حسنى مبارك وجمال مبارك.

جاءت ثورة الشعب التونسي لتجعل الأحلام الكبرى بالإمكان.. تملكتنى مشاعر الفخر والغبطة معاً.. " عقبال عندنا " .. واختتمت مقالى الذى نشرته " المصري اليوم " في عدد 17 يناير 2011 بالقول " تحية للشعب التونسي العظيم.. الذى رفع رؤوس العرب أجمعين.. الف مبروك " .

مضت (13) يوماً فقط على مقالنا " ثورة 14 يناير المجيدة " لتبدأ في 25 يناير ثورة شعبنا العظيم.

إنها الثورة التى جعلت أحلام " مصر الكبرى " فى مرمى النظر.

أود أن أشكر الأستاذة إكرام مطاوع التى تفضلت وساعدت كثيراً فى إعداد هذا الكتاب.

كما أشكر الأستاذ هاني عاطف خلاف الذي تحمل مع إكرام مطاوع الكثير من عناء الجمع والترتيب.

كما أجدد الشكر للصديق الكاتب الأستاذ محمد فتحي الداعم الأول لهذا المشروع، ولأسرة " دار ليلي " للنشر التي واصلت ما بداته الأستاذة أميرة مكاوي في " دار مكاتيب " .. ذلك أنه يجمعنا سوياً ذلك الأمل الكبير..

عودة بلادنا من العصور الوسطى الباركية إلى عصر النهضة من جديد.. حفظ الله مصر.

أحمد المسلماني — القاهرة 2012

الفصل الأول

من هنا لا تبدأ..

مقالات قبل الثورة

• صلاة الشيخ الشعراوي!

أخطأ الشيخ الشعراوي وأخطأ جمال حمدان ثم أخطأ إبراهيم عيسى. أخطأ الشعراوي حين سجد لله شكرا بعد هزيمة يونيو 1967 باعتبارها هزيمة لعبد الناصر وسياساته، وأخطأ جمال حمدان حين بالغ كثيرا في نقد الشخصية المصرية، حتي اعتقد الناس بأن التخلّف الراهن هو من فعل الشخصية لا الحالة، والتاريخ لا السياسة، ثم أخطأ إبراهيم عيسى حين كتب، مؤخرا مستحضرا موقف الشيخ الشعراوي متفهّما ومقدّرا، ثم اختار من جمال حمدان ما يخلق باب الأمل ويدفع الضمير إلي راحة اليأس!

* البداية:

كتب إبراهيم عيسى في العدد الأخير من «الدستور» تحت عنوان «صلاة الشيخ الشعراوي» يقول: «حاول أن تفهم شعور ابن الشيخ الشعراوي حين وجد والده يسمع ويتأكد من هزيمة مصر في يونيو 1967، فإذا به في بيته يفرش سجادة الصلاة ويصلي ركعتي شكر لهزيمة مصر، الشيخ الشعراوي كان يحس مرارة في حلقه وغضبا في قلبه من حكم وحاكم وحكومة، ووجد نفسه من أجل التخلص منهم معا لا يري بأسا من هزيمة البلد، والعجيب أن أحدا من محبّي الرجل ومريدیه لم يعتب عليه ولم ينتقص من حب الملايين له، سؤال الساعة، هل هناك أمل وهل نجد الحل؟ أم ننتظر يوما نصلي فيه كما صلي الشعراوي.

ثم ذهب الكاتب إلي جمال حمدان مستشهدا بقوله: العضلة العويصة هنا، إلي أن تتحقق الديمقراطية لن تتغير الشخصية المصرية، ولكن إلي أن تتغير الشخصية المصرية لن

* نشر هذا المقال في 20 يونيو عام 2006 م

تتحقق الديمقراطية.

❖ القضية:

ابتداء، لا جدال في رفعة المكانة التي يحظى بها الشيخ الشعراوي في تاريخ علوم الدين، كان الرجل مفسرا ومحدثا وفقهيا، وكان يملك من طلاوة السرد وجاذبية الحكى وسحر الحديث ما جعله إمام عصره وفقه زمانه.

وابتداء أيضا لاجدال في رفعة المكانة التي يحظى بها جمال حمدان في تاريخ علوم الدنيا، كان الرجل مفكرا وباحثا وأديبا، وكان يملك من بلاغة القول وسعة العلم وإخلاص السعي ما جعله وطنيا يمشي علي الأرض.

وقد أدهشني إبراهيم عيسى في هذا المقام، أن ترك في كلا الرجلين كل ذلك مكتفيا من الشيخ الجليل بموقف مشين، ومن العالم الكبير بعبارة كالصفحة أو الطلقة علي رؤوس المصريين.

ليس في صلاة الشيخ الشعراوي ما يوجب التقدير، وليس في شكره لله علي هزيمة وطنه ما يدعو للتعاطف والقبول، كان الرجل مخطئا تماما، أخطأ حين داس علي رؤوس الشهداء وقلوب الثكالي ووجوه اليتامي حين قام للصلاة، أخطأ حين أهان الجيش الذي عاد مقهورا والجندي الذي مات حزينا أو راح أسيرا أو عاد ذليلا، أخطأ حين نسي سيئات التي ضاعت، والقناة التي أغلقت، والكرامة التي غادرت، أخطأ حين لم يدرك أنها هزيمة مصر لا عبدالناصر، ومحنة شعب لا مازق سلطة، وفجيعة وطن أطاحت بالفلاحين والعمال والفقراء - أحياء وشهداء - قبل أن تطيح بجنرال فاشل أو مسؤول تافه.

أخطأ الشيخ الجليل لأنه رأي في القيادة السياسية ما يجعلها بعيدة عن الله، قريبة من أعدائه، وكان الطرف الآخر في إسرائيل كان يمسك بمسبحة داعيا إلي الله أثناء الليل وأطراف النهار.

أخطأ الشيخ لأنه لم يدرك أن تلك الهزيمة التي رآها توجب صلاة الشكر كانت بداية صعود إسرائيل وخريف العرب، بداية كيان أصبح دولة، ودولة أصبحت قوة، وقوة وجدت في العالم من يناصرها ظالمة ومظلومة، وبداية عالم عربي أصبح رخوا مبللا بالمياه، كفنران المستنقعات، لا يقدر علي شيء.

ليس في موقف الإمام ما يوجب التقدير، هي سقطة سببها انفعال غير مسؤول، ولولا أنها حدث عارض وموقف مجهول في حياة حافلة كحياة الإمام الجليل لانتقصت من حب محبيه والتفاف مريديه.

* النهاية:

إذا كان إمام الدعاة قد أخطأ، فإن صحيفة الدستور، قد زالت الخطأ حين استدعت من الإمام ذلك الموقف دون سواه، ثم امتد الخطأ ثالثاً حين جرت الاستعانة بمقولات قاسية للجغرافي الكبير جمال حمدان.

والصادق أن كتاب «شخصية مصر» لجمال حمدان يحتاج إلى قراءة فاحصة، فذلك السفر العظيم لا يكفي للحكم عليه ضخامة الجهد وعبقورية التكوين، ففي الكتاب الكثير مما يوجب الوقوف ثم القعود، فما قاله حمدان عن شخصية مصر يوجب الانبهار، ولكن ما قاله عن شخصية المصريين يوجب المراجعة وربما المجابهة.

وكل ما أخشاه اليوم أن يلتبس الناس من جمال حمدان ومن غيره ما يهيل التراب علي هذا الشعب، وما يفقد الأمل في المستقبل تحت دعوي الفشل الجامع للماضي.

لقد شاعت في السنوات الأخيرة كتابات عدة كل مهمتها أن تقول إن شخصية المصري منسحقة مهزومة متكيفة متملقة إلى غير ذلك من جملة القمامة التي بات يلقيها من يعلم ومن لا يعلم علي هذا الشعب العظيم.

وتتخذ هذه الكتابات من نشرات كتبت هنا وهناك عن فقدان المصريين لثقافة الثورة والتمرد، واستسلام الشعب لحكامه منذ آلاف السنين دليلاً علي شخصية لا أمل فيها، وهي في مجملها كتابات محدودة القيمة، ذلك أنها تتحدث عن عالم لا نعرفه، وكان شعوب الأرض كانت لا تفيق من الثورات، وكان النظم الديمقراطية التي يقف فيها الشعب - أمراً وناهيًا - كانت هي عموم النظم في العالم، وكان رموز الثورة في عواصم العمورة قد ملأت كتب التاريخ إلا هذا الوطن.

علي أي حال، هذا مقام آخر ومقال آخر، وتبقي كلمات أخيرة إلي صديقي الصغير يحيي إبراهيم عيسي، لا تسمع كلام أبيك، واعلم أنك من بلد عظيم وفي شعب عظيم،

واعلم أن كراهية السلطة لا تعني رمي الوطن بالرصاص، وأن النقمة علي ما يجري لا تعني
ردم النيل أو هدم الأهرامات.

واعلم - أخيراً - أن في هذا الوطن ما يكفي للمستقبل، وفي المستقبل ما يزيد عن الحياة،
ولك ولا ختك متي السلام.

مصر - المصريين = صفر (1)

كنت مدعوأ لحضور حفل زفاف الشيخ عبدالله بن زايد آل نهيان، وزير الإعلام الإماراتي، ثم وزير الخارجية فيما بعد. وفي الحفل تعرفت على الصحفي الفلسطيني الأشهر ناصر الدين النشاشيبي.. كان النشاشيبي في زمن الرئيس جمال عبدالناصر ملء السمع والبصر. هو من القدس وصديق ومستشار لملوك الأردن، وهو زوج خالة الأمير الوليد بن طلال والأمير المغربي مولاي هشام، ذلك أن زوجته ابنة السياسي اللبناني رياض الصلح.

في كل دقيقة تقريباً كان النشاشيبي يستعرض قواه الاجتماعية والسياسية والصحفية.. فهو مؤلف لأكثر من عشرين كتاباً مثيراً، وقد كان رئيساً لتحرير صحيفة الجمهورية وقت وجود اسم عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين على ترويسة الصحيفة.

كان النشاشيبي يتحدث بغرور لا مثيل له.. فالأستاذ هيكمل كان يفار منه ومن موهبته التي لا حدود لها، وكبار الأدباء المصريين كانوا في أوضاع اجتماعية يرثى لها في مواجهة ما يمتلكه النشاشيبي من حسب ونسب وصلات، والفنانة سعاد حسنى كانت تلاحقه ما أثار عبدالحليم حافظ، الذي كان يكره النشاشيبي، لتعلق حليم بسعاد وتعلق سعاد بالنشاشيبي.. أما السيدة فاتن حمامة فهي فنانة مهمة ولكن الأهم أنها جارة الأستاذ النشاشيبي، حيث يسكنان في عمارة ليبون الشهيرة بالزمالك.. وأما عميد الأدب العربي طه حسين فهو زميل في رئاسة تحرير الجمهورية.

لقد نشرت لقائى معه من قبل، وأثار تعليقات وصخباً.. كان النشاشيبي حاقداً على مصر بدرجة لا تحتل، ومنذ لقائى به وأنا أؤمن تماماً بأن هناك من الساسة والمثقفين العرب من يكره مصر. وأنا بالطبع أعرف جيداً الفارق بين كراهية مصر وكراهية النظام

السياسى فى مصر، او كراهية حكومة او رئيس مصر.. ولذا فانا اكرر العبارة عن وعى
ويقين.. «ان من هؤلاء من يكره مصر.. كمصر..»

لكن هؤلاء الذين يكرهون مصر لا يمكن ان يقولوها فى وجوهنا هكذا، نحن نكره
مصر... ولكن يجرى تكليف ذلك بلهاء على انه كراهية للسياسة المصرية، ولجوانب من
الثقافة المصرية، ولعدد من السلوكيات المصرية.. اى ان الاعتراض ليس على مصر وإنما
الاعتراض على عدد من أوجه النقص فى مصر.

ثم يكون الجزء الثانى من مشروع كراهية مصر.. هو توسيع هذه الأوجه..
فيذهبون الى الأدباء لياتوا عليهم واحداً واحداً، فإذا سألتهم عما يرونه فى نجيب محفوظ قالوا:
«نحن لسنا ضد الأدب المصرى لكننا نرى العظمة ماثلة فقط فى يوسف إدريس»، ثم يأتى الدور
على يوسف إدريس فيقولون: «نحن عشاق الحكيم...» ثم يأتون على توفيق الحكيم فيقولون:
«بل نحن مريدو يحيى حقى...» وهكذا حتى تتراكم نواقص الأدباء.. فكراً وسرداً وشخصاً فلا
يبقى منهم احد... وبمثل ذلك يتجهون الى الشعراء والكتاب والصحفيين والفنانين فلا يبقى
من القوة الناعمة المصرية شىء.

مصر - المصريين = صقر (2)

■ هل كان الدكتور جمال حمدان يعرف جيداً شخصية مصر؟ وهل كان ذلك المفكر الجغرافى العملاق يعرف جيداً شخصية المصريين؟.. ساكون جريئاً للغاية.. بل سأتجاوز الأدب المعتاد إزاء قامة بهذا الوزن.. وأقول، كان الدكتور جمال حمدان عظيماً في تحليله لشخصية مصر، ولكنه لم يكن كذلك في تحليله لشخصية المصريين.

■ لقد أبدع جمال حمدان في كتابه الرائع «شخصية مصر» ثم اكتمل عطاؤه المذهل في موسوعته الشهيرة «شخصية مصر».. تجاوز د. جمال حمدان في هذا العمل الفريد كونه استاذاً جامعياً لعلوم الجغرافيا إلى كونه فيلسوفاً يمتد عطاؤه من جمال اللغة إلى جلال المضمون، لكننى ربما أتجاسر وأقول إن الفيلسوف قد أبدع في فهم الحجر أكثر مما أبدع في فهم البشر.. وتقديرى أن فهم جمال حمدان للشعب المصرى لم يكن دقيقاً ولا عادلاً.

■ رأى جمال حمدان في شخصية المصريين الازدواجية والنفاق والخوف والجبن وتملق الرؤساء والرضوخ للسلطة الحاكمة وعدم الثورة على النظام الظالم.. وربط جمال حمدان ذلك كله بكون المصريين شعباً من الفلاحين الذين أخذوا قيمهم من النهر والزراعة.

■ لقد توارت روائع جمال حمدان وبقي في الكتابات الصحفية والمقولات السياسية ذلك الكلام الفارغ حول نفاق المصريين وانبطاح المصريين. وبات هناك تيار كامل لا يرى في شخصية المصرى إلا الفهلوى والنصاب والجبان.. أو أن المصريين هم ذلك الشعب الذى تجمعهم زمارة وتفرقهم عصا، وأصبحت شتيمة المصريين شيئاً أساسياً أثناء التعبير عن كراهية النظام أو الغضب من السلطة .

بل إن سفهاء الناس في الشوارع حين يغضبون من سائق سيارة غير مهذب أو مشاجرة عابرة في طريق أو سلوك خاطئ أو مشين.. يتركون صاحب الخطأ ويفضلون شتيمة

الشعب.. لقد أخذ السفهاء من الناس ذلك التجرؤ على الشعب من أولئك السفهاء من المثقفين الذين يعايرون الشعب، ليل نهار، بكونه جباناً راكعاً خائفاً.. يدير حياته بالخداع والنفاق.

■ إن أعداء الشعب لديهم تساؤلات ثابتة: ماذا ينتظر هذا الشعب؟ لماذا يسكت المصريون على كل هذا الظلم؟ لقد دمر الفاسدون كل شيء ولم يتحرك أحد، ثم إن أعداء الشعب لديهم إجابة واحدة: الشعب المصري جبان، ولم يتحرك على مر التاريخ، ولن يتحرك الآن ولا في المستقبل.. ثم ينتهي أعداء الشعب إلى توصية ختامية: انسوا الشعب المصري، فهو خارج الحساب تماماً.. ولا وزن له.. وكل ما يمكن أن يفعله هو أنه سيصفق لمن ينتصر.

مصر - المصريين = صفر (3)

كنت في الطريق من ميلانو إلى مونت كارلو.. وكان صديقي ناصر حامد القنصل التجاري المصري في ميلانو يقود السيارة في اتجاه الريفيرا الإيطالية ويروى قصصاً من قريته عرب الشنابلة في مركز أبنوب، محافظة أسيوط.. لم تكن مناسبة في المكان ولا الزمان، وفجأة توقف الطريق.. وتزاحمت السيارات وعلت الأصوات بكل اللغات.. وتوقفنا في مكاننا مثل عشرات السيارات التي ارتبكت حركة مرورها، وبعد دقائق بدأ لنا أنه من المستحيل أن نمضي في الجدول الزمني الذي خططنا له ..

فقد توقف الطريق تماماً.. وتحول المكان إلى ميدان العتبة وتعالص صيحات وشتائم وحركات غير مهذبة من أوروبيين من بلدان مختلفة.. هكذا في لحظات تحول طريق ميلانو إلى الريفيرا إلى طريق أحمد حلمي- عبود.. وبدأ كل سائق يفكر بطريقته وكل سيارة تحاول الخلاص الفردي والخروج الآمن.. كان السبب في ذلك السلوك العام الهمجي ..

هو أن ثمة أعمال حفر وتحويلات في الطريق لم يتم التنبيه لها، كما أن بعضاً من اللوحات الإرشادية كان يعطى اتجاهات خاطئة.. ولم يكن هناك من رجال المرور والمحليات من يدير الأزمة في ذلك الصباح من إجازة الأحد، لقد تصرف الإيطاليون والفرنسيون والسويسريون بمثل ما يتصرف به سائقو الميكروباس في الهرم وسائقو التوك توك في إمبابة.. الخلاص الفردي.. دعنى أَمْز.. دعنى أذهب.. ومن بعدى الطوفان!

* حدث في نيويورك أن انقطعت الكهرباء.. وانطفأت أضواء نيويورك ساعات قليلة.. وروى سكان نيويورك حكايات عديدة عن السرقات والنهب والاعتداء في ساعات الظلام.. تحولت نيويورك إلى بوروندى وتحول بعض قاطنيها وزائريها إلى لصوص غسيل وقاتلى عجائز!

وحين ضرب إعصار كاترينا السواحل الأمريكية، واخذ الإعصار يطيح بالبشر والحجر.. وانبطحت معالم البيوت والمزارع أمام طغيان الطبيعة.. وبدلاً من قصص المروءة والوفاء وحكايات التضحيات وبطولات الإنقاذ.. كان معظم ما جاء من موقع الإعصار حكايات مشينة عن لصوص الموتى.. وعن الجبن والخذلان الذى اتسم به الناس هناك.. ونشرت صور لأناس يفتشون ملابس الضحايا وياخذون ساعاتهم وهواتفهم المحمولة وما يحملون من دولارات ثم يركلون الجثث في احتقار!

* يمكن أن نمضى في قصص وحكايات لا حصر لها عن همجية الذين يعتقد البعض أنهم كاملو التحضر عظيمو السلوك.. القضية باختصار.. أن الطبيعة الإنسانية مركبة وقاسية وربما فاسدة، وأن الله أرسل الأنبياء من أجل إصلاح تلك الطبيعة لدى البشر، وأن الإنسان اخترع الدولة ووضع الدستور وسن القوانين من أجل ضبط الذين لا يلتزمون الدين ولا يمتلكون القيم.

* لقد كان ابتكار السجن والغرامة والإعدام وغيرها من آليات العقاب.. بمثابة ابتكارات كبرى.. بعد أن أنجز الإنسان كشوفاته العظيمة في ضرورة بناء جهاز للشرطة والقضاء.

* إذا كانت هذه القضية فالعادلة إذن واضحة.. حيث يوجد القانون يوجد التحضر، وحيث يغيب القانون يوجد التخلف، لا يوجد إنسان ولدته أمه متحضراً ولا إنسان وضعت أمه متخلفاً.. بل ثمة إنسان في نظام متحضر وإنسان في نظام متخلف.

* إن الذين يرددون عن شخصية شعبنا العظيم كلاماً سفيهاً من نوع الجبن والنفاق والفهلوة وتملق الحاكم ونفاق أولى الأمر.. هم أناس لا يعرفون شيئاً لا عن بلادهم ولا عن العالم!

مصر - المصريين = صفر (4)

كنت في واشنطن في خريف عام 2005، وكان زمن الرئيس بوش الابن جاثماً على جنبات الولايات المتحدة.. دعاني أحد أصدقائي العرب إلى زيارة مبنى الإذاعة الأمريكية، صوت أمريكا.. أخذنا قهوة ساخنة من ماكينة في إحدى الطرقات.. ثم جلسنا في غرفة الأخبار نتجاذب أطراف الحديث عن بوش والعراق وأفغانستان وعن أشباح الحادي عشر من سبتمبر التي سكنت كل منزل في أمريكا.

كانت المفاجأة ساحقة.. طلب مني صديقي الذي يحمل الجنسية الأمريكية منذ سنوات أن أخفض صوتي بالحديث. وألا أهاجم عهد الرئيس بوش ولا سياساته بصوت مسموع، ثم قال لي القولة العربية الشهيرة، من الأفضل ألا نتكلم في السياسة هنا. كانت تلك صدمة كبرى لي.. فنحن في الولايات المتحدة، ونحن في صوت أمريكا، ويعمل هنا إعلاميون وصحفيون لا عمل لهم إلا الكلام في السياسة.

خشى صديقي العربي الأمريكي أن أفسر حالة الجبن التي هو عليها بكونه من أصل عربي.. فبادرني بالقول: إياك أن تظن أنني جبان، أو أنني جبان لأنني من أصل عربي، أو أنني جبان وحدي.. أنت تعرف أنني أمريكي.. بل وأمريكي ناجح، وأتمتع بوضع لائق ووظيفة ودخلاً وسكناً.. لكنك لا تعرف ما الذي تفعله هذه العصابة الحاكمة في أمريكا.. إنهم يراقبوننا جميعاً.. هم يتجسسون على منازلنا ومكاتبنا.. هناك ميكروفونات في أماكن متعددة.. إنهم يفصلون ويحتقلون.. لقد تعاملوا مع كبار خصومهم بأبشع المكايد.. ثم إنهم أقرروا قوانين تدمر الحريات وتسمح بالاعتقال دون إبداء السبب.

إن الشعب الأمريكي مغلوب على أمره.. وكل ما ينتظره العقلاء هنا هو خروج هذه العصابة في الانتخابات.. ومن حسن الحظ.. أنه ليس بمقدورهم إلغاء الانتخابات.. ولو كان باستطاعتهم لفعلوا.

■ هذا مشهد من أجواء عامة سادت الولايات المتحدة في زمن بوش.. أصبح الشعب الذى عاش أكثر من مانتى عام من الحرية كأنه لم يعيش يوماً واحداً فيها.. وأصبح ملايين الأمريكيين من الجبناء والنافقين والخائفين والمذعورين.. وفى قولة واحدة.. أصبح الأمريكيون شعباً نامياً في بلد من العالم الثالث!

■ زرت باريس في زمن شيراك وفى زمن ساركوزى.. وفوجئت بما ترويه النخبة الفرنسية عن زمن ساركوزى.. عن الحالة شبه الديكتاتورية التى كان عليها، عن سحقه لكل خصومه بلا رحمة، عن المشى بالأقدام فوق الحضارة الفرنسية، عن إذلاله لكل وسيلة إعلام هاجمته وكل سياسى أو صحفى نال منه.. وعن تعيينه لابنه مخالفاً لكل الراى العام.. وإعداده له بما يتجاوز المنصب الرموق إلى المنصب الكبير. قال لى مثقفون فرنسيون، إننا إزاء نابليون جديد.. يفعل كل الأشياء وحده، ثم يخطر الشعب فيما بعد!

■ ترى ما التضحيات التى بذلها الأمريكيون ضد الرئيس بوش، وما النضال الذى خاضه الفرنسيون ضد الرئيس ساركوزى.. لا شيء!

لا يوجد شعب ولدته أمه جريئاً، ولا شعب ولدته أمه جباناً. تتحول شعوب الغرب إلى جبناء ومنافقين إذا ظهر ربع ديكتاتور أو ظهر قانون يقيد الحريات.. طوبى للشعب المصرى العظيم الذى يتهمة السفهاء بما لا يعلمون.

ماذا كنت تفعل أثناء الحرب يا أبي؟

بدون مقدمات.. هذا هو أحسن كتاب صدر في مصر هذا العام، المؤلف هو الكاتب الكبير محمود عوض، أحد أجمل وأروع الأقلام في تاريخ الصحافة العربية، والعنوان هو «بالعربي الجريح»، والموضوعات هي فضاء واسع يتمدد ما بين العواطف والعواصف. وأما مناسبة هذا الحديث فتحتاج إلى مقدمات.

* عام الضباب

إنه السؤال الأصعب بامتياز.. ما الذي يجري في مصر؟ وأذكر أنني حين فكرت في إعداد الطبعة الثانية من كتابي، الحداثة والسياسة.. ما الذي يجري في مصر؟، كنت أتصور أن الأمر سهل. ولكنني حين شرعت سرعان ما أحجمت، فلم أجد أعرف يقيناً ولا ظناً ما الذي يجري في مصر؟

حملت سؤالي ونهضت صوب عدد لا حصر له من الذين توقعتم أن تكون لديهم إجابات شافية أو شروح وافية. وأعترف أنني لم أجد شيئاً مما ابتغيت، فقد تساوي في الإجابة جموع الذين يعلمون والذين لا يعلمون. سألت وزراء فأجابوا بمثل ما أجاب عابرو السبيل، وسألت مثقفين ونافذين، فلم يزد مستوي القول علي ما يحتويه بريد القراء في الصحف الشعبية.

ومن الدهش هنا أن كثيراً من المثقفين باتوا يتحدثون كمسؤولين، وأن كثيراً من المسؤولين باتوا يعملون كمراقبين ومحللين.

ومن محنة الشعوب أن يتحول المسؤول إلى منظر، وبدلاً من تخطيط وإنجاز يجري

تدشين خطوط إنتاج للرعي والصراخ.

ومن محنتها أيضا أن تغيب مهمة المثقف في زمن ملتبس فينهض حيث يجب أن يهدأ، ويهدأ حيث يتوجب النهوض، أو أن يكون النهوض خطأ في الفعل وخطأ في الاتجاه.. وظني أن ذلك حادث في مصر الآن.

هي حالة من الغموض الوطني، أو هو عام من الضباب.

بالعربي الجريح

ما الذي يمكن أن يفعله المرء في عام الضباب أو أعوام الضباب؟ ماذا يفرض الخلق القويم علي الأسوياء.. وماذا تفرض الوطنية الحققة علي الأوفياء؟ في طريق قد يطول بحثنا عن إجابة، وقعت علي هذا الكتاب الرائع، بالعربي الجريح، للأستاذ محمود عوض، وهو كتاب ساحر في الأسلوب والمضمون، أو هو الكتاب الكتاب، أي نموذج ما ينبغي أن يكون عليه الكتاب، في وقت أهان الرعاع فن الكتابة فأمطرونا بوابل من الجهل والخرافة والتجميع والترقيع تحت عناوين عريضة. وما يعنيننا في هذا المقام هو ما يخص سؤالنا عن العمل في زمن الارتباك.

يذكر الأستاذ محمود عوض في كتابه..، في الحرب العالمية الأولى كانت بريطانيا طرفاً محارباً أساسياً إلي جانب فرنسا.. مقابل تحالف مضاد من ألمانيا وروسيا.. ولأن الحرب طالت وجبهات القتال اتسعت، فقد أرادت الحكومة البريطانية أن تشجذ همم أبناء شعبها للتطوع والمساهمة في المجهود الحربي. وبدأت حملة إعلانية كبرى لصالح الحرب. في تلك الحملة كان الإعلان الأكثر رواجاً وانتشاراً وشعبية وإحراجاً، هو ذلك الذي تحول إلي ملصق ضخم في الميادين العامة والشوارع الرئيسية بكل المدن الكبرى. والإعلان مختصر وبسيط، فهو عبارة عن لوحة لطفل صغير يستفهم من والده في براءة، ماذا كنت تفعل أثناء الحرب يا بابا؟..

إنه بالضبط السؤال الذي سيوجهه كل طفل لأبيه في وقت قريب.. ماذا كنت تفعل في أعوام الضباب يا أبي؟.. ومن حسن حظ الأب البريطاني أنه كان يمكنه حسم الموقف والإجابة بشرف.. كنت أحارب يا بني، ومن سوء حظ الأب المصري أنه لا يملك إجابة كهذه. فمصر في حالة سلام، ولا حروب مع أحد، والشهد بمكوناته ومعضلاته هو من صنع الداخل وفي حدوده. وإجابة سؤال كهذا لا يمكنها أن تكون قبل إجابة السؤال الأول.. ما الذي يجري

في مصر؟ فالعزفة تسبق الموقف، والرؤية تسبق الرأي، وكمال الوعي يسبق مكارم الأخلاق.

يا له من سؤال قاهر، ويا لبؤس الواقع السياسي الذي يمتلئ عن آخره بالفراغ، يا لبؤس الموقف أن تكون في السلطة أو في المعارضة، أن تكون مع الذين لا يعلمون أو مع الذين لا يعملون.. أن تكون أسير بلد أصبحت المباراة النهائية فيه بين فريقين كليهما لا يستحق، أن تكون كل الأهداف في مرمى الشعب، وأن يفوز الفريقان معاً ويخسر الجمهور! هل إذا سألك ابنك يوماً ما عن زمن الالتباس وعن مباريات الوطن العام.. إذا سألك عن موقعك في الفريق وإسهامك في المباراة.. هل تصلح إجابة كهذه، كنت خارج الملعب يا بني..

يا له من سؤال وجواب ركيك!

الفصل الثاني

مصر الصفري..

مقالات قبل الثورة

خريف الضمير

إن الرء لتأخذ الدهشة من هذه المفارقة المذهلة.. لماذا يزداد التدين وتنحط الأخلاق؟
لماذا يتزاحم الدعاة في الفضائيات والميكروबाصات، وفي المنابر والمنازل.. وفي شواطئ مارينا ومetro
الأنفاق، دون اثر لذلك في سلوك البشر أو في حياة الناس؟

لماذا تزداد اللحي والجلاليب البيضاء وعلامات الصلاة، ومعها خريطة واسعة تمتد من
شبه الحجاب إلى النقاب.. بينما تبدو جميع السلوكيات في جميع الميادين، وكأننا بلد بلا
دين.. أو دين بلا متدينين.. أو لا دين ولا متدينين؟!

إن جميع المصريين يذهبون إلى صلاة الجمعة.. أكثر من تسعين بالمائة من المسلمين
المصريين، يذهبون إلى المساجد مرة واحدة على الأقل أسبوعياً، وتمتلئ دور العبادة بحشود
هائلة من السيدات، اللاتي يستمعن إلى محاضرات ودروس في علوم الدين.

وتحظى «قناة الناس» ومجمل القنوات الدينية بمعدلات مشاهدة كبرى، كما يحظى
كبار الخطباء وصغار الدعاة بما يحظى به نجوم الفن والرياضة من اهتمام يختلط فيه
الانبهار بالانكسار.

*يذرف ملايين المصريين الدموع في مناسك العمرة الممتدة على مدار العام، وفي صلوات
الشهر الفضيل من الغروب إلى الشروق.. تهجداً وقياماً، ويغتاض ملايين المصريين من كل قول
أو فعل يسيء إلى الدين الحنيف، ويدعون ربهم سراً وجهراً، أن ينتقم من أعداء الإسلام
والمسلمين .

ولا يقول «المصري» شيء إنني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله، ويقدم المصريون جميعاً
«المشيئة» على ما هم فاعلون.. صادقين وكاذبين.

وقد اكتسبت التكنولوجيا الحديثة معالم الإيمان، كما يراها المصريون، ففي

المساعد ثمة من يكتبون ويقولون ،أدعية السفر.. وفي رحلات مصر للطيران تبدأ الطائرات
إقلاعها بالدعاء، وفي أجهزة الحاسب تضيء الشاشات جنباتها بالبسملة، وما تيسر من القرآن،
وفي المكالمات الهاتفية بات الناس يبدأون حديثهم بالسلام وينهونه بالشهادتين.. يبدأ أحدهما
بلا إله إلا الله، ليكمل الآخر بمحمد رسول الله، لتضع السماعة أوزارها.

ولا تخلو مدرسة ولا مستشفى ولا قسم للشرطة أو مصلحة حكومية. صغرت أم
كبرت، من مسجد يذكر فيه اسم الله، وثمة ملايين يذكرونه.

وبمثل الإسلام تكون المسيحية في بلادنا، كنائس تمتلئ بالصلين واناجيل توزع
بالملايين، وخطب وعظات وقصص ومعجزات، يظهر معها المسيحيون المصريون وكأنهم
تلاميذ مباشرين ليسوع المسيح.

**دين في كل مكان، متدينون بلا حدود، لكن حقائق الحياة وحالة الأخلاق شيء
آخر.

إن مشكلة الأسعار وحدها، وتعامل ملايين المؤمنين في بلاد السبعة الاف عام، تبعث
علي الغثيان.. احتكار واحتقار.. فساد في كل مكان، ومفسدون بلا حدود.. انتصر الحرام علي
الحلال، وغلب الرياء مظاهر الدين، وأطاح الجشع بما قاله الله وما قاله الرسول.

... يا ويل بلادنا من ربيع الدين وخريف الضمير.

فاسدون ضد الفساد !

فاسدون ضد الفساد، واغبياء ضد الجهل، ومنحرفون ضد الرذيلة.. تلك معالم مشهد بات يتكرر بانتظام.

فى كل يوم التقى عدداً وفيراً من الذين يبدوون حزنهم على الأوضاع العامة في مصر، وجدول الأعمال الجاهز في هذه المناسبات يشبه بناء الشعر الجاهلى، فالبدائية هى البكاء على الأطلال، ثم توجيه النقد إلى الحبيب، ثم غمر كل شيء بالتراب، انتهاء إلى حكمة لا مفر منها تشى بأنه لا أمل ولا معنى ولا جدوى وما اديم الأرض إلا من هذه الأجساد

وإذا كان طبيعياً أن يقوم الشرفاء بنقد الأوضاع غير الشريفة، أو أن يقوم ذوو الأيادى البيضاء بمحاولات لوقف ذوى الأيادى السوداء، أو أن يقوم ذوو الفكر والرأى بنقد حالة البلد العام في البلاد، أو محاولة تصحيح أوضاع أو أوزان الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إذا كان ذلك كله طبيعياً وواجباً فإن بعضاً مما يجرى في مصر الآن يخرج على هذا السياق إلى سواه.

ولا أبالغ إذا قلت إن المازق الأكبر في مصر لا يمثله فساد الكبار، الذين يمكن هزيمتهم جميعاً في معركة إصلاحية واحدة، ولكن المازق حقاً هو في صغار الفاسدين، والفاسدون الصغار باتوا يمثلون جانباً كبيراً من النسيج الاجتماعى في مصر، فهم في كل مكان من الحدود إلى الحدود. حتى تدرك حجم وطن الفاسدين إلى حجم الوطن الأم، ما عليك إلا أن تجمع ما تكتبه الصحف في صفحات التحقيقات والاقتصاد والحوادث، وما يبثه التليفزيون من شكاوى ومعاناة وغضب للمواطنين، ف وراء كل شكوى يوجد فاسد، و وراء كل إهمال في مدرسة أو مستشفى ثمة فاسد وراءه فاسد، و وراء كل هبوط في الاقتصاد أو تراجع في الأداء يتربع فاسد من فوقه فاسد ومن تحته فاسد.

وإذا كانت هذه ملامح أزمة يعمل مخلصون عديدون على حصارها، فإن ما يصفع

الانتباه هنا هو حجم الفاسدين الذين يهاجمون الفساد وحجم الجهلاء الذين ينتقدون السطحية والإفلاس، وعدد السفهاء الذين يرون في السلطة ومن فيها فشلاً ذريعاً، ذلك أنها لا تحفل بما يرون ولا تضعهم في مواقع الإدارة والنفوذ.

وما أكثر الفاسدين الذين يتحدثون اليوم عن فساد الآخرين، وما أكثر الذين يقبضون لأجل مهاجمة اللصوص!

وفى الثقافة والصحافة تخطو المساة إلى مدى أبعد، ذلك أن المنافقين الجدد باتوا ساخطين على المنافقين القدامى، وأن من يحملون راية التغيير هم أولى الناس بالعصف والتبديل.

إن الجيل الجديد من تحالف عديمي الوهبة يقول الكلام نفسه الذى يقوله كبار الإصلاحيين والمفكرين إنهم يهاجمون الجهل والركاكة والفساد والمحسوبية وعدم الكفاءة والنفاق وتدنى مستوى المهنة.. إنهم يسرقون كلام الشرفاء في وضوح النهار!

لم يترك الفاسدون الجدد مجالاً لنقد الفساد إلا طرّفوه، ولا جملة مفيدة في إدارة الصراع على الفساد إلا تعلّقوا بها ولا طريقاً للإطاحة بقدامى الفاسدين إلا بذلوا لأجله النفس والنفيس.

يا لها من مفارقة مذهلة.. لصوص يهاجمون السرقة وحمقى يطاردون الجهل وعصاة يدعون إلى مملكة الجنة.

لماذا يتسّم الفاسدون بخفة الظل؟

لماذا يتسّم الشرفاء بثقل الظل ورتابة الحديث وبؤس التسلية؟ ولماذا يتسّم الفاسدون بخفة الظل ومتعة الحوار ولطف اللؤاسة؟.. كنت في عشاء فاخر ذات مساء قريب حين قطع علينا الجلسة أحد كبار الفاسدين، جلس إلينا الرجل وسط ترحيب مفتعل.. لا رغبة لدينا في مصافحته ولا طاقة لنا علي مناقشته.. لم يكثرث القادم بما نحن عليه من رغبة أو قدرة.

وجلس يتجاذب معنا أوساط الحديث.. فإذا بالضيف الفاسد هو من أضفي البهجة علي المكان، قصة وراءها قصة، ونكتة وراءها نكتة.. حكايات لا تنقطع ومواقف لا تنتهي وتعليقات خصبة ساخرة.. إبهار حقيقي في متعة الحكى وروعة الأداء. كان الرجل قادراً علي توزيع القفشات بدقة مذهلة، يعرف أي قصة يستحضر، وأي موقف يستشهد، وأي نكتة يختم بها قبل الفاصل.

مضت أيام آخر.. ثم كان عشاء فاخر ذات مساء أقرب، حين قطع علينا الجلسة أحد كبار المصلحين، رجل جاد وقور.. مثقف بارع فاضل، يملك من حسن الخلق ما يوازي ممتلكاته من سعة العلم وإخلاص السعي.

بات الحوار هذه المرة مملاً ثقيلاً، وأصبحنا في هذا العشاء كأننا تلاميذ فصل ابتدائي ألغيت لهم حصّة الألعاب لتحل حصّة الحساب.. حفنة من الهمهمات، وأخري من التثاؤبات، وثالثة من إعادة قراءة الرسائل القصيرة.

ثري لماذا؟.. فكّرت في أن أسأل الصديق الكبير الدكتور أحمد عكاشة رئيس الاتحاد العالمي للطب النفسي، ثم ترددت.. فلربما اتهمني الدكتور عكاشة بشيء من اضطراب الذهن أو خلل الإدراك حتي يزيج عن كاهله عبء الشرح والإيضاح.. فاكثفت بأن أسأل نفسي.. ثري لماذا؟

اليقين أن الاستقامة عُسر وأن الانحراف يُسر، وأن المخلصين ذو أعباء.. يحملون علي
اكتافهم مسؤولية أنفسهم والآخرين، يمتد عندهم الحزن باتساع الوطن.. فهم قلقون علي
وضع البلاد والعباد.. علي الصادرات والواردات، علي البطالة والاستثمار، علي الخبز والسلاح،
علي الداخل والخارج.. من المحافظات إلي القارات.

وأما غير المخلصين فلا عبء ولا هم ولا حزن، فالوطن هو الذات، والشعب هو الأبناء،
والعالم هو المنزل، لا يحزن الفاسدون علي ما يصيب غيرهم، ولا تذرف لهم دمعة إذا ما كانت
الآزمات خارج منازلهم، والمعاناة خارج أولادهم. من الطبيعي إذن أن تخلو ضمائرهم من عذاب
الآخرين، وتخلو أفئدتهم من وجع المحيطين، وتخلو عقولهم من صخب الفلاسفة والمصلحين!

لا يحتاج الإخلاص إلي مهارات كبيرة، هي فقط فضائل وأخلاقيات، ولكن الفساد علم
وفن وصناعة، الفساد إرادة وخطط وتدير. ويحتاج الفاسدون إلي اختيار المكان المناسب
والوقت المناسب والهدف المناسب، يحتاجون أحياناً إلي مسبحة وسجادة صلاة، يشتررون بآيات
الله ثمناً قليلاً، ويحتاجون أحياناً إلي بدلة أنيقة وقبعة فاخرة كأنهم قد فرغوا للتو من إدارة
نصف العالم وليس لديهم الكثير لإدارة هذا الجزء من البسيطة، وقد يحتاجون ثالثاً إلي حلاوة
في اللسان وطلاوة في البيان، وقد يحتاجون رابعاً إلي استرحام واستعطاف.. فيشرعون في
طقوس النذل والخضوع، ثم يبتهلون إلي من يملكون بناصيتهم إطرأاً ومديحاً.

في كل ذلك يتحصل الفاسدون من خبرة الحياة، من قصصها وحكاياتها ونكتها
وتفاصيلها، ما لا يتحصله المصلحون الجادون، إن المخلصين يقرأون بالليل ويكافحون في النهار،
أما الفاسدون فأهل مزاج وفراغ، نهارهم تحصيل، ليلهم إنفاق، لديهم من وقائع الحياة ما
يسمح بالكثير من الرواية.. فنادق وقري، مراكب وطائرات، عواصم ومطارات، أنهار
ومحيطات، أضواء ونساء.. ألف قصة وقصة، عالم كامل ممتلئ بالأحداث والأشخاص، ثراء
حقيقي في خبرة الحياة وخبرة تقديم الحياة.

وقد بات يتردد في علم الإدارة الحديثة كلام من نوع، ضرورة المجاملة، المبالغة في
الابتسامة، حسن الحديث، تلطيف مناخ التفاوض، استخدام أسماء الأشخاص وذويهم كثيراً في
الحوار.. إلي غير ذلك من كتب رديئة في مجال العلاقات العامة.. باتت تقدم النفاق والرياء
والخداع باعتبارها مواصفات الرجل الاجتماعي الناجح.. هي كتب لا تقدم أي شيء غير
النصيحة بأنه لكي لا تنجح فقط، تكلم، واحسن الكلام.. ثم تحصل بنفسك عوائد الكلام.

صار الكلام، لدى الفاسدين سلاحاً، صار وردة حين يتطلب الأمر رقة ونعومة، وصار قنبلة حين يتطلب الحال إفساح الساحة وإخلاء الميكان.

صارَت النكتة ركيزة للقوة، والقفشة طريقاً للثروة، صارت الحكايات والروايات صناعة لها قواعد وأصول، أضحي الخلفون يتعثرون في أرقامهم وأوجاعهم، وأضحى الفاسدون مشرقين متوهجين.. قتل الوجع الوهج.. وبات الفاسدون يتمتعون بخفة الظل!

الجاهل إذا تولى منصباً فهو فاسد

ماذا لو تولى أمورنا جاهل عفيف.. أو أحمق لا يعرف الحرام؟ ماذا لو جاء إلي السلطة جاهل شريف..؟ أو تافه ذو عقل أبيض وذمة بيضاء؟ يمكنني أن أتجاسر وأفتي: الجاهل إذا تولى منصبا وهو يعلم أنه جاهل فهو فاسد.

في عالم اليوم.. لا يكفي حسن النوايا ولا شهادات حسن السير والسلوك لا يكفي للمرء أن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ولا يكفي أن يمنع نفسه من أكل السحت ويده من أن تمتد إلي ما حرم الله!

ليس في الحلال فضيلة تستحق التكريم ولا إنجاز يوجب المنح والعطاء والحلال فريضة لا فضيلة أو هو فضيلة لا تفضل صاحبها، وفي القرآن الكريم يخاطب الله المؤمنين... قل لا تمتوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان... الحجرات 17، ليس في الإيمان من وليس في عدم السرقة فضل ولا في عدم النهب شرف عظيم.

أصل الأشياء ألا يسرق المرء وألا تمتد يده إلي ما لا حق له فيه. أصل الأشياء ألا يقتل الإنسان أخاه الإنسان وألا يأكل أموال الناس بالباطل ولكن أصل الأشياء قد غاب في بلادنا.

بات المال الحلال من شيم الخاصة من الناس، وبات عدم الفساد ميزة كبرى يشار إليها كما يشار إلي الإنجازات الكبرى في الحياة وما أسهل أن تسمع من يقولون عن قناعة لماذا لا يكونون كذلك؟ لماذا لا يصبحون وزراء وكباراً، إنهم سرقوا بما يكفي ولا يحتاجون إلي مزيد من السرقة!

بل إن التقييم الاجتماعي لدي البعض صار يذهب إلي عبارات من نوع، لماذا لا يكون فلان هو المرشح لهذا الموقع، إنه سيقوم بالسرقة والنهب إنه جائع وسيظل يسرق سنين حتي يشبع أما فلان فقد سرق وشبع ولن يحتاج إلي أن يسرق من جديد!

وصلنا إلى الأسوأ.. أصبح بإمكاننا أن نقبل أوضاعا من الفساد في سبيل رفض أنواع أخرى من الفساد ، صار لكبار الفاسدين علي صغار الفاسدين درجة.. صار الذين شبعوا أفضل وأتقي من الذين يبدأون رحلة الفساد.. صار قدامي اللصوص أرفع قامة ومقاما من اللصوص الجدد!

اقتصاديات الجهل

أقول آمناً مطمئناً، الجاهل كالفاسد ، والفاسد السابق كالفاسد الناشئ.. كلهم يدفعون وطننا إلى الخلف وإذا كان شأن الفاسد واضحاً جلياً، فشأن الجاهل أيضاً لا يحتاج إلى جلاء.

فالعالم المعاصر ينهض علي العرفة فالطائرات معرفة والسيارات معرفة والطعام معرفة وزرع الأرض وزيارة الفضاء معرفة ، والسلاح معرفة والسلام مقدرة بعد العرفة ، مكانة الأمم وأوضاع الشعوب وكرامة الأفراد.. كلها معرفة.

ما يفعل الجاهل إزاء ذلك كله ، ماذا سيعطينا المسؤول الجاهل إذا ما اتسم بحسن الخلق وصفاء النفس ؟ من يبني ويشيد؟ من يلاحق العالم الذي نسي مواقعنا إلا علي خرائط القتل والفوضى؟ من يدرك أن العالم مضي بعيداً وأننا نمضي إلي الخلف أبعد وأبعد؟ من يعلم أن حياة بلادنا لا يمكنها أن تمضي كذلك وأن التدهور قد يعقبه انهيار وأن السيئ قد يعقبه الأسوأ؟ من يدرك أن الحرب تحتاج إلي اقتصاد وأن الاقتصاد يحتاج إلي معرفة وأن السلطة الجاهلة محنة في السلم وكارثة في الحرب؟

إن الجاهل إذا تولى منصبا يكون أثر وجوده أسوأ كثيراً من أثر الفساد فالفساد سرقة ما هو موجود والجهل إهدار ما هو موجود ومنع ما يحتمل وجوده، الفساد مصادرة الحاضر والجهل مصادرة الحاضر والمستقبل معاً

مصريون ضد الجهل

تصيبنا خريطة الجهل في مصر بفزع شديد ، فمن يتابع تصريحات ورؤي المسؤولين الرسميين لا يجد الكثير مما يحظي بالتقدير لا المعلومات صحيحة ولا البيانات دقيقة ، ولا الخطط واقعية ولا التصورات ممكنة ولا أي شيء كأي شيء، وأما مجلس الشعب فمحنة جامعة، لا فصاحة ولا بلاغة ولا نحو ولا قواعد ، لا صوت ولا لياقة ولا حضور ولا جاذبية، لا

معرفة ولا علم ولا معلومات ولا وجهات نظر لا رأي ولا رؤية ولا رؤية.. لا فهم لطبيعة الحكومة ولا دور البرلمان ولا مكانة الوطن، لا إدراك للأولويات ولا آفاق لما يتجاوز ستين دقيقة!

مجلس الشعب يراقب الحكومة.. ضعف يراقب الضعف، وهن يراجع الوهن! لا أدري كيف يدخل هؤلاء إلى مجلس الشعب ولا كيف دخل هؤلاء إلى الحكومة؟ كيف جاء الذين لا يعلمون ليراقبوا الذين لا يعلمون؟ كيف جاء نيام ليراقبوا نياماً، ضعف الطالب والمطلوب!

كيف يمكن البناء إذن، كيف يمكن للحياة أن تدب في وطن ماتت فيه السياسة؟ كيف يمكن للنائب أن يكون نائباً والوزير أن يكون وزيراً والكاتب أن يكون كاتباً، كيف يمكن تصحيح الأوضاع التي باتت أسيرة جاهل أو فاسد؟ كيف يمكن كسر تحالف عديمي الوهبة وتقديم الذين يعملون ويعلمون؟ كيف نسترد أنفسنا من أنفسنا؟ البداية.. الجاهل إذا تولى منصباً فهو فاسد.

عن السياسيين حديثي الولادة!

لا احد قد فاته أن يغني لبلاده، أن يندن لنفسه، أن يشكو لذاته، أن يزهو بتربة البداية مهما آلت النهاية، أن يشعر بالخسران إذا ما طرقت الأقدار خارجها، أو اختار راضيا قرار التنحي.

لا احد في مقدوره أن يخطو في غير مكان، أو يحيا من غير زمان، أو يقطع لنفسه مكانا وزمانا، وأشخاصا وأشياء، ليمضي بهم وحيدا، ظلًا بحكمة التصرف وكفاءة الاختيار، لتبدو الأمور من بعد ذلك، مزيجا من صخب الصلي ووهج السراب.

هنا تضيق الجغرافيا بما وسعت، وتمور الأرض بما رحبت، فلا الشارع يكفي عن البيت، ولا الدنيا تكفي عن الوطن.

فإذا ما كان البيت ليس كشانه بيتا، وإذا ما كان الوطن ليس كمثله وطنًا، إذا ما كانت مصر هي هذا وذلك، فماذا يكون الأمر؟

لقد باتت مصر تقضي أيامها واضحة الإرهاق ظاهرة الإجهاد، وبدلا من أن تكسوها السنون الطوال قوة فوق قوة، وعافية فوق عافية، فإن ملامح الشيخوخة باتت تغالبها، بعد أن تموجت جبهتها وخفتت عزيمتها.

في مديح عبده مشتاق

لماذا صارت الخريطة السياسية عند هذا الحد من الفقر والإفلاس؟ لماذا ضمّر السياسيون وصغرت السياسة في مصر؟

سامح الله كاتبنا الكبير أحمد رجب، فقد أفاض كثيرا في نقد شخصية المنافق، الذي يطمح إلي السلطة، ويبذل كل الجهد في سبيلها، وقد أطلق رجب عليه اسم «عبده مشتاق».

وصار هذا العبد مشتاق سبابا قويا يصم به الصحفيون كل من يسعى إلى السلطة.

نصف ما رآه الأستاذ أحمد رجب كان صحيحا، ونصفه الآخر لم يكن كذلك، ذلك أن الاشتياق إلى السلطة ليس عيبا ولا جريمة، والسعي إليها هو من طبيعة الحياة وطبائع السياسة، وأما العيب فهو في حق الجهلاء الذين يسعون لها، وأما الذين يستحقون فلا جناح عليهم إذا ما سعوا، فما السياسي إلا مشتاق دائما.

بل إن الكارثة هي عدم الاشتياق، فالاشتياق سعي وجهد ودأب، وهو تكوين وتطوير وتنظيم، وهو عمل متواصل في الحزب والمجتمع وما بينهما من أجل وضع قيم أو زرع فسيلة.

وأما الكارثة، فهي أن يصل إلى السلطة من لم يحدث نفسه بها ذات يوم، أن يصل إليها من لم يدرس السياسة في الجامعات أو الطرقات، من لم يفكر في بناء مدرسة أو ترميم مستشفى أو تشييد دار للمحتاجين، من لم يعرف الفلاحين وما يزرعون ويحصدون، والعمال وما ينتجون ويحصلون.

الكارثة أن يعمل في السياسة الزاهدون عن جهل، أو الجاهلون عن زهد، من يرون أن قراهم هي العالم، وأن الدنيا لا تساوي عندهم جناح بعوضة، وأن أمريكا وهم وأوروبا وهم والعالم وهم، والدنيا مسرح كبير.

لقد وصل إلى السلطة والمعارضة آلاف من غير المشتاقين، وغاب عنها عشرات المشتاقين الصالحين، غاب أساتذة ودبلوماسيون وصحفيون ونشطاء من المشتاقين الأكفاء، وطغى آخرون من المشتاقين السفهاء.

ماتت مدرسة السياسة في مصر، وازدحمت الساحة بمسؤولين صغار ومعارضين صغار، برأسماليين حديثي الشعب، وسياسيين حديثي الولادة!

في مديح حزب أعداء النجاح

القصة الشهيرة التي يعرفها الكثيرون عن عميل المخابرات السوفيتية الذي جرى القبض عليه، ولما قيل له، إننا لم نتمكن من معرفة جرائمك ولم نمسك عليك شيئاً محدداً، فماذا كنت تفعل كي ترضي مخابرات العدو، قال العميل قولته الشهيرة: لم أكن أفعل شيئاً كبيراً، فقط إذا طرح أمامي قرار لتعيين أحد الأشخاص في أي موقع كنت دائماً اختار الأسوأ!

القصة الشهيرة باتت تلح علي الكثير من الذين أعياهم، ما الذي يجري في مصر؟.. إن ما يجري في شأن التصعيد والتكبير لحفنة من الأقزام التافهين لم يعد يجد تفسيراً غير قصة المخابرات هذه، إنك لن تجد صعوبة في أن تعرف مقدماً نتائج السباق في أي منصب، إنه الأسوأ دون تفكير، إذا كان السباق بين الفاسد والأكثر فساداً فالغلبة للأفسد، وإذا كان السباق بين الجاهل والأكثر جهلاً فالغلبة للأجهل.. وحين يجيء الفاسد أو الجاهل فإنه يأتي بمن يكون إلى جوارهم أكثر خلقاً وعلماً.. فتتراكم الظلمات بعضها فوق بعض!

حزب أعداء النجاح

الدهش حقاً هو ما صرنا نسمعه في برامج عديدة ومقالات مديدة حول حزب أعداء النجاح، لقد استمعت مؤخراً إلى فاسد يحدثنا عن حزب أعداء النجاح، و كيف أن هذا الحزب بات كبيراً في مصر، وأن حزب أعداء النجاح لا يرحم أحداً ولا يترك ناجحاً إلا ونال منه، يا إلهي.. أهكذا تكون الأمور، صار هذا النموذج هو النجاح، وصار كل ناقد له هو معاد للنجاح، صار اللصوص علامة الإنجاز، وصار مناهضو اللصوص هم أعداء النجاح!

إن أعداء النجاح في هذه الحالة هم شرفاء مخلصون، وواجبهم ألا ينجح هؤلاء، مهمتهم إلحاق الفشل بهم أينما ثقفوا، وظيفتهم ألا يفرح الناجح بنجاحه، وألا يكمل هؤلاء الناجحون

إن تافهين لا قيمة لهم باتوا يكتبون في الصحف ويتصدرون ساحة الرأي والقرار، وتافهون آخرون باتوا يتصدرون العمل السياسي ناصحين ومرشدين ليل نهار.

وإذا جاء الشرفاء إلي موقع - بطريق الخطأ أو الصواب - ثم أرادوا وقف هؤلاء المنافقين فإنهم سرعان ما يصرخون، أو قفوا حزب أعداء النجاح!

إن الفساد والجهل في بلادنا بات إقطاعاً لا رأسمالاً، ليس وضعاً متحركاً يمكن القضاء عليه أو تقليل نفوذه بمعركة مجدودة، بل هو إقطاع للأرض وما عليها، هو فساد عقارات لا منقولات.. ثابت راسخ آمن مطمئن!

والعركة معه طويلة عسيرة، فالفساد يراكم ويبني ويتسع ويرتب أوضاعاً وحقائق لعينة، هب مثلاً أنك توليت رئاسة مؤسسة قد ضرب فيها الفساد طويلاً، ستجد حشداً من النواب والمساعدين وكبار المسؤولين وصغار النافذين ممن يصعب التعامل معهم. إن الإصلاح في هذه الحالة سيعني بالضرورة عدم الاستقرار، فالإصلاح معناه تغيير كل شيء.. وهو ما يعني تدمير كل شيء، يا للمفارقة.. الفساد يساوي الاستقرار والإصلاح يساوي عدم الاستقرار! بل الكارثة التي ربما تلي المفارقة، ماذا لو تمكن الفاسدون من أن يهدموا كل البناء أثناء محاولات الترميم؟ ماذا لو قضوا علي المنزل بكامله إذا ما جري البدء بإصلاح دورة المياه؟

هنا العضلة، وبالنسبة لي شخصياً فقد تحدثت مع مسؤولين كبار في مؤسسات عدة.. وقلت ينبغي أن يكون التغيير والإصلاح أكثر وضوحاً وأمضي سرعة، وإلا فإن الفساد ينمو بمتوالية هندسية والإصلاح ينمو بمتوالية حسابية.. وهو ما يعني أن الفساد يمكنه أن يبتلع الإصلاح وهو نائم، وكان الرد دوماً ينبغي أن نكون حذرين، فمثل هذه الطريقة ستؤدي إلي تقويض كل شيء، إن طبقة البيروقراطية والفساد أقوى مما تتخيل والتعامل معها تدريجياً وبلين هو الحل!

وتقديري أن هذا كلام فارغ، واقتنع تماماً بأن الواجب الوطني لا ينبغي أن يضع في اعتباره لا المفارقة ولا الكارثة، تقديري أنها مذبة إصلاح شامل وقاس وصارم.

لا ينبغي أن نلاحق الفساد والجهل موقعاً وراء الآخر وشخصاً وراء الآخر في سنوات وعقود.. ذلك أن القضاء علي الفساد العاصر سيتطلب وقتاً يكون فيه جيل جديد من

الفاستدين قء ظهر وجيل آخر من الفاستدين يستعد!

هي ضربة رجل واحد في وقت واحد وفي كل مكان، هي ثورة إصلاح عنيفة لا تهدن ولا تدلل ولا تربت علي الأكتاف.

أن تكون مستشاراً لجاهل

إن أكبر الجرائم التي تقع في بلادنا هي اختيار شخص جاهل لمنصب كبير، ثم القول بأنه لن يكون وحده فسوف نحيطه بعدد وثير من المستشارين والخبراء، لن نتركه يعمل وحده بل سيكون إلى جواره من يعمل ويساعد ويدعم، وأعود إلى تجربتي من جديد، ولقد اقتربت في حياتي من قيادات جاهلة، وكم بذلت جهداً خارقاً كمستشار وناصح، واليوم اعترف تماماً بأن هذا التفكير كان خطأ، فالقيادة الجاهلة إنما تستثمر ما نقول في أن تكرر من واقعها وتحصن من ثكناتها.. وأما نحن المستشارين فإننا نبداً مخلصين قاصدين الإصلاح ما استطعنا وننتهي محبطين بعد أن بنينا للجهل صرحاً والبسنا الفاسدين ثوباً وافيّاً.

اعترف الآن بأن أعظم المستشارين لا يمكنه أن يساعد مسؤولاً جاهلاً، وأشرف الناصحين لا يمكنه أن يقوم مسؤولاً فاسداً.. كل عام والفساد بآلف شراً

مصر إذا حاربت

ماذا لو قررت مصر دخول حرب، أو كُتب عليها القتال؟.. ماذا لو كان علينا أن نعيش في حرب، بعد أن قضينا عقوداً في ظل السلام؟

هناك من يتحدث في إسرائيل عن حرب قادمة مع مصر، وهناك من قال إن فصل الشتاء هو الأفضل لبدء الحرب، وهناك من اختار السادس من أكتوبر يوماً لبداية جديدة. وظني أن هذه كلها احتمالات بعيدة.

وكما أن التفكير الاستراتيجي السليم يقتضي أخذ ذلك كله مأخذ الجد، وكما أن إدارات الدول تضع خططها للحرب، مثلما تضع خططها في السلام، فإن علي مصر أن تفكر فيما يمكن أن يحدث، إذا ما تحركت الجيوش وبدأت معارك السلاح.

**** كنت مسؤولاً عن قسم الأبحاث في قناة أبو ظبي، وقت حرب الخليج الثالثة، وكنت مع زملاء لي في غرفة الأخبار، حين بدأت الولايات المتحدة حربها علي العراق.. كانت الصواريخ تهبط بلا رحمة، وكانت أضواؤها أقرب إلي بانوراما للألعاب النارية.. وقتها كانت العاصمة تهوي تحت النيران، علي الرغم من اتساعها وعرضها، وعلي الرغم من عدم وجود عمارات شاهقة أو تكديس سكني ضخم.**

أول ما جال في خاطري في تلك اللحظات الكئيبة.. ماذا لو كانت القاهرة؟.. ماذا لو دخلنا حرباً وبدأت الألعاب النارية المتبادلة في الانطلاق؟

لقد عاد ذلك الخاطر اللعين إلي نفسي في العاشر من رمضان الماضي، ولا يزال، كانت القاهرة كسيحة من غير حرب، جريحة من غير قتال، بانسة.. مزدحمة.. مرتبكة من غير خنادق ولا صفارات إنذار!

**** لا تزال القاهرة، كذلك في كل يوم، مدينة ميثوس منها، قضيت في شارع قصر**

العيني قبل أيام ساعتين في ألف متر، ويقضي سكان القاهرة يومياً في الشوارع. مثلما يقضون في منازلهم.. لا نظام ولا قانوناً.. لا شوارع ولا مرافق.. لا إشارات ولا جراجات!

****يا إلهي.. كيف فشل وطن كامل بالف حكومة وألف ألف وزير في إدارة مدينة واحدة، كيف تحولت عاصمة التاريخ إلى قطعة من جغرافيا العذاب؟.. خمس وعشرون محافظة تعمل خادمة لمحافظة وحيدة هي العاصمة.. لنجد مشهداً بانساً في النهاية.. فشل الخادم والمخدوم؟**

إذا كانت تلك الهزيمة الحضارية اليومية، ومصر تعيش عصر استقرار وسلام، فماذا لو أراد الأعداء إطفاء العاصمة وإغلاق الأبواب؟ ماذا لو بدأت أصوات الصواريخ والطائرات؟ هب أن مصر دخلت حرباً الآن، وهب أن صواريخ وقعت فوق القاهرة، فأصابت الأزقة والشوارع، وأوقفت الكباري والأنفاق.. فكيف يمكن نقل الجرحى؟ كيف يمكن إدارة تموين ومعيشة عشرين مليوناً توقفت بهم حركة الحياة؟ كيف يمكن لشوارع القاهرة.. العاجزة في ظل السلام.. أن تعمل بنجاح في زمن القتال؟!

إنه سيناريو مفرع للغاية.. وإنني لا تذكر الآن ما نسب إلى مناحم بيجن من قبل، حين سئل عن احتمالات التقدم والانتصار في مصر.. فأجاب، لا قلق من مصر، ما بقيت هكذا قواعد المرور!

****ماذا تفعل حكومتنا إذن؟ إنها مسؤولة عن ثلاثة شوارع لثلاثين دقيقة.. إنها حكومة تسيير الواكب وشل الوطن.**

إن مصر لم تخض حرباً منذ كان عدد سكانها ثلاثين مليون نسمة، كيف يمكن لها أن تخوض حرباً، وفي عاصمتها مليوناً مشرد ونصف المليون «توك توك»!

اقتصاد المرض

لم اكن اتخيل ابداً أن المرض صار قابضاً على المصريين إلى هذا الحد، أعرف بالطبع معاناة كثيرين من أمراض متعددة، وأراقب الموت البطيء لبعض المرضى، غير مصدق أن النهاية هي هي دون تغيير أو تعديل!

لم أعد أجد مفاجآت في الشفاء قدر ما أجد التوقعات المعتادة بالتدهور والانهيار.

فى كثير من دول العالم لا يعنى المرض سوى فاصل من العذاب أو محنة محدودة أو وجع له بداية ونهاية، ولكن في بلادنا.. أصبح العذاب مفتوحاً والمحنة دائمة والوجع بلا نهاية!

لقد صدمت حين حضرت فعاليات القافلة الطبية، افحص كبداك والتي نظمتها الجمعية البحثية لأمراض الكبد برئاسة الدكتور رضا الوكيل بالتعاون مع مؤسسة الشيخ محمد المسلمانى الخيرية. انعقدت القافلة التي ترأسها الدكتور عبد الرحمن الزياى وضمت صفوة من أساتذة الكبد المصريين في مقدمتهم الدكتور جمال شيحة والدكتور محمد العتيق.. في مستشفى بسيون المركزى، وحضرها قرابة الثلاثة آلاف مريض.

كانت صدمتى بلا حدود.. أعداد كبيرة من المرضى، جميعهم يقولون إننا نواجه الموت دون سند من أحد.. إنهم يعانون ويالات وزارة الصحة مضافة إلى ويالات المرض. لا علاج على الإطلاق.. ولا قدرة على العلاج خارج الدولة، فالمريض الواحد يحتاج عشرات الآلاف من الجنيهاات وهو لا يملك عشرات الجنيهاات من غير الآلاف.

قال لى أحدهم، لقد قلت لنا حاولوا أن تاتوا صائمين من أجل الكشف.. ولو لم تقل لنا ذلك.. كنا سناتى صائمين لأننا نعطى ما نملك من إفطار لأبنائنا الذاهبين إلى المدرسة.. نحن نصوم من أجلهم.. وقال آخر، لقد اقترضنا حتى نأتى إلى بسيون.. وهؤلاء جميعاً عليهم أن يدفعوا عشرات الآلاف من أجل علاجهم.

قلت لهم: وماذا عن العلاج على نفقة الدولة؟.. تمنيت لو أن الحكومة سمعت ردود الناس على هذا السؤال، لأعلاج على الإطلاق.. وعليك أن تذهب إلى العيادات الخاصة وتدفع الرشاوى في المستشفيات لكي يمكنك عمل تحليل وتدفع أكثر لكي تجد قرار علاج على نفقة الدولة لن تستطيع أبداً تجديده..

الناس في مصر يموتون.. هناك كارثة الإنهاء البيولوجي للمصريين.. مياذ قذرة وصرف صحى غائب وطعام ملوث.. ومرض قاتل.. وحكومة غائبة قال لى أحدهم.. إن ابنى مريض وابن أخى مصاب وأخاه مصاب.. من الذى سيحارب بعد عشر سنوات أو عشرين عاماً.. هل يستطيع مرضى الكبد مواجهة إسرائيل؟!

الدولة العزبة.. أوهام "التايم"

تري مجلة «التايم» الأمريكية أن الحل في الشرق الأوسط هو أن يتحول إلى عشرات الدول، لكل طائفة دولة من أجل وضع نهاية للعذاب والألم في صراعات الشرق الأوسط.

إن «التايم» وهي تصف تلك الخرافات الاستعمارية بالأفكار الجديدة، تدرك تماماً.. أنها ليست بالأفكار ولا هي بالجديدة، وإنما هي عودة للفكر الاستعماري القديم. إنها أفكار ضد نظرية الدولة، وضد ما استقر في السياسة الدولية منذ صلح وستفاليا ونشأة الدولة القومية الحديثة. إنها أفكار تخريبية تدعو لأكثر من عراق، وأكثر من سودان، وأكثر من اليمن، وأكثر من لبنان.. هي تدعو لأكثر من جزائر وأكثر من مغرب وأكثر من سعودية وأكثر من أردن وأكثر من سوريا.

هي في نهاية المطاف دعوة لاستقلال الشيعة والعلويين والأكراد والتركمان والوارنة والبربر وأهالي دارفور وجنوب السودان، وشرق السودان، وشرق السعودية، وجنوب ووسط وشرق وشمال وغرب اليمن.. إنها دعوة لإقامة نموذج «الدولة - العزبة» في العالم العربي، ثم إنها عملية لا نهاية لها.

فإذا ما استقل شمال العراق على أنه دولة كردية، طلب تركمان شمال العراق الاستقلال عن أكراد الشمال.. فتصبح لدينا دولة كردستان ودولة تركمانستان في الشمال العراقي، وإذا ما حدث ذلك جاء الانقسام الديني.. ثمة كردستان السنية وثمة كردستان الشيعية، ليגיע الدور من بعد ذلك على دولة الصابئة، ودولة الآشوريين، ودولة اليزيديين!

وفي لبنان ربما وجدنا سبع عشرة دولة تمثل كل دولة فيها طائفة أو شبه طائفة.. فإذا ما قسمنا مساحة لبنان على سبع عشرة دولة أصبحت كل دولة تحوى سكانا أقل من العاملين والمتريدين على مبنى الإذاعة والتليفزيون في ماسبيرو.

والأمر ذاته في السودان.. سينتهى الأمر لدولة القبيلة، وربما أصبحت الصومال الممزقة أكثر تماسكاً من دول كالسودان والعراق ولبنان والجزائر.. إذا ما جرى تطبيق الفكر الجديد للمجلة المرموقة!

إنها دعوة لنهاية الدولة.. بعد التبشير بنهاية التاريخ، لكن نهاية الدولة وتحقيق الارتياح البدني والنفسي لكل عائلات الشرق الأوسط ليسا مطروحين في الغرب نفسه.

إن في إسبانيا صراعاً عنيفاً بين مدريد وبرشلونة، وإن منظمة «إيتا» الانفصالية أرهقت المملكة الإسبانية في حروب وأعمال تخريب لا نهاية لها، وفي بريطانيا شهد الزمن المعاصر ذلك الصراع الدامي مع الجيش الجمهوري الأيرلندي، كما شهد رغبة أسكتلندا الجارفة في الاستقلال.

وتشهد إيطاليا تلك المنافسة العدائية بين ميلانو وروما.. ورغبة قوى سياسية في الجنوب الإيطالي في الانفصال، وفي فرنسا لا يزال الوضع النفسي لسكان إقليم الألزاس غير مستقر تماماً لصالح الوطنية الفرنسية، ولا يزال سكان كورسيكا الفرنسية الذين رموا الرئيس شيراك بالطماطم وأهانوا النشيد الوطني الفرنسي يعملون من أجل الاستقلال.

لكن كل ذلك لا يعنى شيئاً لدى المجلة الأمريكية الشهيرة ولا خرائطها الجديدة.

ذلك أن القيم الإنسانية الرفيعة للراسمالية الغربية إنما تعنى فقط بالظلمين في الشرق الأوسط.. أما معاناة المضطهدين والانفصاليين في الغرب.. فلا وجود لها!

السادات يمول حملة نيكسون

■ يروي الأستاذ محمد حسنين هيكل، في كتابه «المقاتلات اليابانية»، قصة تفكير الرئيس السادات في تمويل الحملة الانتخابية للرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون، يقول الأستاذ هيكل، «استدعانى الرئيس السادات يوماً يسألنى عن رأى فى عرض قُدم إليه بالاشتراك فى تمويل حملة نيكسون الثانية عام 1972. قال السادات إن هناك (12) مليون دولار مطلوبة الآن لتمويل حملة نيكسون، خمسة ملايين دولار سوف تتحملها السعودية، وخمسة ملايين أخرى تتحملها الكويت، والوسطاء يطلبون من مصر (2) مليون دولار، مراعاة لظروفها المالية».

■ يقول الأستاذ هيكل، كان رأى أن تبتعد مصر عن هذه اللعبة الخطرة.

■ يلفت الانتباه أن تاريخ تلك الرواية كان حساساً وخطيراً للغاية، حيث جرى التفكير فى ذلك قبل عام واحد من حرب أكتوبر وبعد عامين فقط من حرب الاستنزاف وخمسة أعوام من النكسة.

■ وظنى أن الرئيس السادات الذى كان يعرف جيداً ماذا يريد وماذا يستطيع، كان يفكر فى هذه الأثناء على نحو ما كان بعد ذلك، كان يفكر فى حرب مُزلزلة لإسرائيل.. ثم فى تسوية سلمية تُجوّز بالسياسة حدود السلاح، كان يُقدّر السادات أنه يحارب إسرائيل وما وراء إسرائيل، وأن الدعم السوفيتى لبلادنا ليس بما يكفى للحسم العسكرى.. ومن ثم فإن ركيزة القوة الأولى فى حربنا المقبلة مع إسرائيل هى الجندى المصرى.. تخطيطاً وإعداداً وقتالاً، وأن عبقرية الجيش ستغضى عجز السلاح، غير أن ذلك كله لن يكون بإمكانه حسم الصراع مرةً واحدة وفى حربٍ واحدة، لذا لابد من السياسة لتكمل الطريق.. وكان تقدير السادات أقرب للمقولة الاستراتيجية الأشهر: «الحرب هى امتداد للدبلوماسية»، ولكن بصورة

أخرى، والدبلوماسية امتداد للحرب، ولكن بصورة أخرى، فاعتمد السادات الحرب والسياسة معا في معركة شاملة.

وأذكر أنني سألت الفريق الشاذلي عن الخيار الاستراتيجي إذا لم يكن خيار السادات الذي يشمل الحرب والسلام معا.. وكان تقدير الفريق الشاذلي الذي سمعته منه أنها الحرب مرة ثانية وثالثة ورابعة.

رؤية الفريق الشاذلي تنتصر لفكرة الحرب المفتوحة حتى لو امتدت قرناً من الزمان.. وهي رؤية وطنية جسورة.

رؤية الرئيس السادات.. أن الحرب المفتوحة لن تكون في صالحنا.. وأن الوقت في صالح إسرائيل.. لأن كل عام يتأخر في استرجاع سيناء.. ستكون المستوطنات والمهاجرون اليهود والسلاح الأمريكي قد صعبوا كثيراً من الحرب التالية، في قولة واضحة.. كان السادات يفضل أن تكون الحرب السادسة بين مصر وإسرائيل (حرب ما بعد 1973)، تبدأ من نقطة أفضل.. سيناء معنا وجيشنا هناك وسكاننا يقطنون أراضيها.. لا مستوطنين ولا مستوطنات، وربما أراد السادات من التفكير في تمويل حملة نيكسون أن يسهل الجزء الثاني من المعارك الدبلوماسية بعد معارك السلاح.

يرى الأستاذ هيكل أن مشاركتنا في تمويل حملة نيكسون لعبة خطيرة، وهذا صحيح تماماً، ولكن متى كانت إدارة السياسة في الأزمات الكبرى بعيدة عن الخطر. إن الكل يلعب في أمريكا ويعبث في أمريكا بل ويعبث بأمريكا، لماذا لا نكون ضمن اللاعبين هناك؟ لماذا لا نشارك في شراء ما نستطيع شراءه واستقطاب من نستطيع استقطابه هناك؟ كتب الأستاذ محمد المنشاوي قبل فترة، لماذا لا نتدخل في الشؤون الداخلية للولايات المتحدة.. وأكرر السؤال بدوري، لماذا لا نتدخل؟

لماذا تأخرنا كل هذا الوقت في تأسيس لوبي مصري في الولايات المتحدة الأمريكية؟

الأهرام تشتري النيوزويك

التقيت الأستاذ محمود شَمَام على غداء في دبي، وكانت في صحبتنا الإعلامية الجزائرية خديجة بن قنة، والسعودية نادين البدير.. ثم انضمت إلينا الأستاذة وسيلة عولى. محمود شَمَام، إعلامي ليبي، يقيم في واشنطن، كان رئيس تحرير الطبعة العربية من مجلة نيوزويك الأمريكية.

قلت للأستاذ شَمَام، لقد قرأت عن الأزمة المالية التي تواجه مجلة نيوزويك.. وعن عرضها الآن للبيع.. وقد اقترحت في برنامج «الطبعة الأولى» على قناة «دريم» أن تقوم «الأهرام المصرية بشراء «نيوزويك» الأمريكية.. فماذا ترى؟ قال لي: هذه فكرة جيدة.. الأهرام لها اسم وتاريخ، وإذا استطاعت ذلك ستكون بالنسبة للإعلام العربي ضربة القرن.

قلت له، هل لديك تقديرات لحجم هذه الصفقة؟ قال ربما 700 أو 800 مليون دولار.

قلت له، وهل تعتقد أن الأجهزة الأمريكية والنظمات الصهيونية هناك يمكن أن تسمح بصفقة كهذه؟ إنها النيوزويك الأمريكية، والأهرام تنتمي لبلد عربي إسلامي في الشرق الأوسط.. ثم إن لنا دوراً مركزياً في الصراع مع إسرائيل. قال، لا اعتقد أن صفقة كهذه يمكن أن تمضي هكذا بسهولة أو هكذا بوضوح وشفافية، يجب أن يكون هناك طاقم قوى من المحامين الأمريكيين، ويجب أن يتوه المالك الأصلي عبر سلسلة طويلة من الوسطاء.. وهذا ممكن، بل إن هذا معتاد في عدد من المؤسسات الإعلامية.. يمكن أن تشارك الأهرام مؤسسات أوروبية أو أمريكية، أو أن تنشئ شركة والشركة تنشئ شركة والشركة تنشئ شركة.. والشركة الأخيرة تشكل مع شركات نشر وصحافة أخرى شركة دولية.. ثم تتقدم هذه الشركة الدولية التي تعود ملكيتها للأهرام بإبرام الصفقة.

■ كنت قد اقترحت قبل اسابيع أن تقوم مؤسسة الأهرام- بدلاً من إنشاء تليفزيون الأهرام الذى لو أصبح إخبارياً محترماً سيتكلف نصف مليار جنيه سنوياً- بشراء مجلة نيوزويك الأمريكية.. لن يكون الهدف من ذلك أن تستعيد الأهرام مكانتها العالمية، من خلال صفقة عملاقة تشتري بها مجلة عالمية، ليس هذا فحسب، بل أن تمتد القوة الناعمة المصرية من القاهرة إلى واشنطن ومن مطابع قلوب إلى التأثير على العقل الأمريكى.

إن امتلاك مجلة نيوزويك سيعطينا قدرة لا سابق لها في الدفاع عن مصالحنا وقضايانا، وفي مجابهة اللوبى الإسرائيلى الذى يعيث بنا وبمكانتنا داخل أروقة الإمبراطورية الأمريكية دون رادع ولا منافس.

إن امتلاك مجلة النيوزويك يمكن أن يحافظ على مصالحنا الضيقة كالمعونات إلى مصالحننا الكبرى في مواجهة إسرائيل، وفي إدارة مياه النيل، وفي صياغة رؤيتنا للشرق الأوسط الحالى والشرق الأوسط القادم.

إنها ليست مجرد مجلة، ولا شراؤها مجرد صفقة، ولا سيطرتنا عليها عملاً مظهرياً محدوداً ك شراء قصر اسطورى أو يخت فخيم.. بل إنها إحدى أدوات تنفيذ السياسة الخارجية المصرية.

لذا على الخارجية، أن تساعد في التمويل، وعلى الدولة في مستوياتها المختلفة أن تساعد الأهرام في تلك الصفقة الاستراتيجية.

■ إذا كان روبرت مردوخ قد أتى إلى بلادنا وبدأ شراء عقولنا وتراثنا فهيا نواجهه هنا.. ونواجهه هناك.. أثق تماماً أننا نستطيع.

لماذا لا تشتري مصر قنبلة نووية؟ (1)

أصابني حزن شديد لما جاء على لسان السفير ماجد عبدالفتاح، مندوب مصر الدائم في الأمم المتحدة، من أن مصر رفضت عرضاً بشراء قنبلة نووية.. كان السفير يتحدث مع دبلوماسية أمريكية.. كما جاء في وثائق ويكيليكس.. وكان الحديث عن التسليح النووي في العالم.. وفاجأ سفيرنا المسؤولة الأمريكية بقوله: لقد جاءتنا عروض بعد انهيار الاتحاد السوفيتي بشراء قنابل نووية، ولكن السلطات المصرية رفضت العرض.. وقد فوجئت المسؤولة بما سمعت، وسألته عن تفاصيل ذلك.. لكن سفيرنا كان أكثر تحديداً.. وقال: جاءنا ذلك من دول الاتحاد السوفيتي.. وأنا كنت في موسكو وأعرف ذلك.. لكن ما يهم هنا أنؤكد أننا لو أردنا امتلاك سلاح نووي بهذه الطريقة لفعلنا.. ولكننا مخلصون فعلاً لمبادئ السلام العالمي.

■ مرة أخرى.. أصابني حزن شديد لما قرأت.. وتساءلت: لماذا رفضت مصر أن تشتري قنبلة نووية؟ وما المنطق الذي حكم الدولة المصرية في هذا؟.. كيف فوّت علينا السلطة هذه الفرصة العظيمة؟

■ إنني أدرك تماماً خطورة ما أقول.. وأعرف الصعاب الكبرى التي تواجه مثل هذه الصفقة.. ستكون رحلة القنبلة معرضة لعيون كل أجهزة المخابرات في العالم.. وسيكون سهلاً لمن يبيع لنا ويقبض أن يبيعنا بعد ذلك ويقبض مرة أخرى.. كما أن الأمر يتجاوز صفقة شراء شحنة من القمح أو حتى سرب من الطائرات.. إن صفقة كشراء قنبلة نووية تحتاج إلى استعداد علمي وتكنولوجي في مصر، من النقل إلى داخل البلاد، ثم إلى النقل إلى الموقع النهائي، ثم إلى حفظ وصيانة وإدارة وحماية واستخدام موقع مصري يستضيف قنبلة نووية.. ثم إن عيون العالم وعيون الوكالة لن يكون من السهل إغماضها طوال الوقت.. بل إن الأخطر يتمثل في ضرورة الإعلان للعالم أننا أصبحنا نمتلك قنبلة نووية.. ذلك أن ما هو أهم من امتلاكها.. هو استخدام استراتيجية الردع بالإعلان عنها.

❏ اقول.. إننى أدرك كل ذلك وغيره.. ولكننى أدرك أيضاً أن بعض السياسة تحتاج إلى مغامرة وأن الوضع القائم بيننا وبين إسرائيل لن يدوم إلى الأبد.. سياتى في بلادنا رؤساء وقادة آخرون، وسياتى في إسرائيل ساسة وجنرالات آخرون، وما يحكم اللعبة الآن لن يظل حاكماً لها إلى الأبد.

إن العضلة الأساسية التى تواجه العقيدة العسكرية المصرية في صراعنا مع إسرائيل، هى السلاح النووى الإسرائيلى.. وأذكر أننى سألت الفريق الشاذلى.. ماذا لو كانت إسرائيل قد استخدمت السلاح النووى في حرب 1973 وكانت إجابته قصيرة وحاسمة.. كان علينا ألا نضع هذا الاحتمال في حساباتنا.. إهمال بعض الاحتمالات أفضل من التفكير فيها.

وقد طور الاستراتيجى الكبير المشير محمد عبدالحليم أبو غزالة أفكاراً مهمة حول كيفية إدارة حرب مع إسرائيل تستخدم فيها إسرائيل السلاح النووى، ورغم ذلك يمكن هزيمتها...

لماذا لا تشتري مصر قنبلة نووية (2)

■ اعرف جيداً حجم المخاطر والحاذير التي تنتاب خطوة عملاقة بهذا الاتساع.. لكننى أدرك أيضاً أن البلاد السياسية والكسل الاستراتيجى يقودان إلى مخاطر أعظم وأفدح.

1- إن حالة السلام بيننا وبين إسرائيل لن تدوم إلى الأبد.. فلم يعرف التاريخ سلاماً نهائياً.. ولا صلحاً يمضى حتى نهاية العالم.

2- إن أى حرب قادمة بيننا وبين إسرائيل لابد أن السلاح النووى سيكون حاضراً فيها.. إما حاضراً في مخازنه يمارس الردع قبل أى انطلاق، أو حاضراً في السياسة يجرى التلويح به من أجل تحقيق نصر بلا حرب، أو حاضراً في الاستخدام فينال من البشر والحجر.

3- لن يصل العالم أبداً إلى المستوى الأخلاقى، الذى ينزع فيه السلاح النووى من المخازن والقواعد.. ويحيله إلى زمن غابر وتاريخ باند.. ولن تصل إسرائيل، التى تأسست على العنصرية والعداء، إلى مستوى أخلاقى يفوق أخلاقيات العالم.. فتنتهى طواعية ما لديها من رؤوس نووية.. إن نزع سلاح إسرائيل النووى حلم مستحيل.

4- لا حل أمامنا إلا امتلاك سلاح نووى.. أو امتلاك القدرة على إنتاج سلاح نووى.. ويكون ذلك وفق عقيدة عسكرية تحرم تماماً استخدامه وتمنع بكل السبل الانفعال في تحقيق وظيفته.. أو التوسع فيها.

5- إن إنجاز ذلك، الإنتاج العسكرى للقوة النووية، مثل إسرائيل أو، القدرة على الإنتاج العسكرى للقوة النووية، مثل اليابان والمانيا.. لن يكون سهلاً إذا ما جرى بالطرق التقليدية..

*نشر هذا المقال في 3 يناير عام 2011

ذلك أننا مقبلون بالتوقيع والتصديق على معاهدة منع الانتشار النووي.. كما ان أعين الوكالة والجواسيس وعشرات الأقمار الصناعية تلاحقنا على مدار الساعة.. يضاف إلى ذلك توحش إسرائيل في نفوذها الدولي وتراجع النفوذ المصري إقليمي ودولياً.. ثم يضاف أيضاً إلى ذلك الذعر العالى من امتلاك عرب ومسلمين سلاحاً نووياً.

6- ربما يكون الخيار الأفضل هنا هو امتلاك مصر قنبلة نووية بطريقة الشراء، وقد كان سقوط الاتحاد السوفيتى فرصة ذهبية لتحقيق ذلك الهدف، وربما يكون علينا الانتظار حتى تسقط دولة نووية أخرى.

7- أخطأت الحكومة المصرية، لأنها رفضت تلك الفرصة الذهبية لأمننا القومى إبان سقوط الاتحاد السوفيتى.. وربما كان ذلك الوقت تحديداً من أفضل الأوقات لاتخاذ ذلك القرار. ذلك أن أمريكا كانت تحتاج مصر لمواجهة صدام حسين، وكان جورج بوش الأب في السلطة وهو صديق لمصر وكان يملك تقديراً معقولاً لبلادنا.

كما أن بيل كلينتون كان أكثر دفئاً مع القضايا العربية.. أو لنقل بعبارة أدق.. كان جورج بوش الأب وبيل كلينتون أقل عداء وتربصاً من الإدارة البغيضة لبوش الابن والأغبياء المحيطين به.

8- لا يعنى ذلك أن إدارة بوش الأب أو كلينتون كانت ستصمت إزاء محاولتنا شراء القنبلة السوفيتية.. لكن ما أعنيه أنه كان يمكن وقتها إدارة الأزمة سلمياً في حال الفشل أو الانكشاف. ذلك أن تسليم قنبلة نووية.. أو القيام بتدميرها.. أو إعطاء الملفات الخاصة بشرائها.. إنما هو عمل كبير.. لابد أن يكون له مقابل كبير.

■ في قولة واحدة، في حال الفشل ستكون لدينا مزايا وثمان.. وفي حال النجاح ستكون لدينا قنبلة.

إلغاء دورة حوض النيل

■ إننى أقدر تماماً تلك النوايا الطيبة والأهداف النبيلة التى حكمت تفكير المسؤولين الرياضيين فى بلادنا.. بشأن إقامة دورة حوض النيل لكرة القدم.

■ ولكن النوايا الطيبة لا تكفى وحدها لصنع السياسة الخارجية.. ذلك أن دول حوض النيل تمثل الآن أهم مجال استراتيجى لنا، ويحتاج التعامل معها إلى درجة من الدهاء والعمق تتجاوز نوايا الطيبين.

■ إن كرة القدم لا تمثل تلك الأداة الجيدة لتعميق علاقاتنا بدول حوض النيل.. ولا هى الوسيلة المناسبة لتوطيد أواصر الصداقة بين شعوب النيل.. ذلك أن كرة القدم باتت أداة للفرقة والجفاء.. بل هى أداة للخصومة والعداء.. وبعد كل مباراة لكرة القدم فى أى مكان تولد مساحة جديدة للغضب والحقد.

■ لقد فشلنا، على مدى سنين طويلة، فى ضبط العلاقة بين جمهور النادى الأهلى وجمهور نادى الزمالك.. وكذلك جمهور الأهلى وجمهور الإسماعيلى، وقد سمعت عشرات المتعصبين للنادى الأهلى يقولون إنهم يتمنون هزيمة الزمالك ولو كانت الهزيمة من فريق إسرائيلى.. وسمعت عشرات آخرين يفضلون هزيمة الأهلى ولو كانت على يد ناد من تل أبيب. الأغلب بالطبع أن ملايين المشجعين ليسوا بهذه الحماسة.. لكن هذه الملايين تكن كل الحب والوفاء لناديها وكل الكراهية والأمنيات بالفشل للفريق المنافس. ويتولى بعض المشجعين تحويل الكراهية إلى حجارة ونيران

■ الأمر يزداد سوءاً إذا ما كانت هناك انقسامات عرقية أو سياسية تتوازى مع الانقسامات الرياضية.. مثلما هو الحال بين جمهور نادى برشلونة وجمهور نادى مدريد.. أو بين جمهور نادى روما وجمهور نادى ميلانو. ويصل الأمر إلى مستوى مشين أحياناً بين

الجمهور الفلسطينى والجمهور الأردنى فى بعض المباريات.

■ ■ وعلى صعيد العلاقة بين الدول.. فقد كانت منتخبات كرة القدم عاملاً فى تدهور هذه العلاقات لا فى قوتها.. ولم تساهم كرة القدم فى توطيد العلاقات بين شعوب الأمة العربية قدر ما ساهمت فى إحداث شروخ نفسية بينها.

ولاتزال أمتنا تعاني ذلك الجفاء الذى وقع بين مصر والجزائر بعد مباراة لكرة القدم.. وهو ليس بالجفاء العابر.. بل هو واصل إلى حد العداء.. حيث دارت المعارك الإعلامية بين الحمقى فى البلدين.. مما أثر اقتصادياً وسياسياً بشكل جسيم، وهكذا فإن التحالف بين مصر والجزائر فى حروب أمتنا ضد فرنسا وإسرائيل.. قد انكسر عقب مباراة ركيكة لكرة القدم!

■ ■ ولقد أدت مباريات كرة القدم إلى حرب بين هندوراس والسلفادور فى القارة الأمريكية الجنوبية.. ولاتزال كرة القدم قادرة على إشعال حروب أخرى!

■ لا وجود لهذه المقولة الكاذبة «دبلوماسية كرة القدم».. إلا فى حدود ضيقة للغاية.. الواقع أننا إزاء دور غير سلمى لكرة القدم. وعلى ذلك لا يمكن اعتبار مباريات الدولة مع دول أخرى جزءاً من ممارسة القوة الناعمة.. إذ إنها قد تكون خصماً من القوة الناعمة لا رصيداً لها.

■ ■ وإذا كان الأمر كذلك.. وإذا كان العقلاء منا يتمنون لو تم إلغاء مبارياتنا مع الأشقاء العرب.. فهل من الحكمة أن نقوم الآن بتنظيم دورة حوض النيل؟ لا أعتقد.

كلية العلوم جامعة القاهرة

إذا صلحت كلية العلوم، صلحت مصر كلها، وإذا فسدت كلية العلوم، فسدت مصر كلها. إنني واحد ممن يؤمنون تمام الإيمان بأن السياسة لا قيمة لها من غير اقتصاد، وأن الاقتصاد لا قيمة له من غير العلم، وأؤمن أيضا بأن مصر باتت منطقة منزوعة السياسة والاقتصاد، وأننا إزاء حكومة تسيير أعمال أكثر مما نحن إزاء سلطة لها رؤية في التقدم وفلسفة في البناء.

في مقدمة كتاب «الذرة والقنبلة الذرية، يقول العالم الكبير د. مصطفى مشرفة، العميد الأشهر لكلية العلوم، أذكر أنني التقيت دولة النقراشي باشا في حفلة شاي، أقامها المغفور له أحمد ماهر باشا، في حديقة منزله عام 1939، وكان معنا دكتور فارس نمر باشا، ودار الحديث حول الأحداث الدولية التي سبقت قيام الحرب، فقلت عندئذ، إن العمل الذي قام به (هاهن واشتراسمان) من فلق ذرة اليورانيوم ربما كان أهم حدث في أخبار العالم.

تذكرت الدكتور مشرفة وأنا أتابع أهم حدث في أخبار كلية العلوم جامعة القاهرة عام 2008، إنه إحالة جميع المعيلين في قسم الكيمياء للتحقيق بعد أن شاركوا في إضراب الأساتذة، هكذا من جدول أعمال إلي جدول أحزان، من اهتمام النقراشي باشا بمتابعة حركة العلم في العالم، إلي انشغال الدكتور نظيف بطابور الخبز في بولاق، ومن انشغال الدكتور مشرفة بفلق ذرة اليورانيوم إلي انشغال عميد علوم القاهرة بإحالة شباب العلماء إلي لجان التحقيق.

كانت كلية العلوم تفكر لمصر، وتخطط لمصر، وتحلم لمصر، الآن صغر الحلم وهبط الفكر، وانحسر التخطيط للحصول علي راتب وحوافز دراهم معدودات، صغر حلم كلية العلوم ليصغر معه حلم وطن بأكمله.

ينقل د. محمد الجوادي في كتابه الرائع، مشرفة بين الذرة والذروة، عن الدكتور مشرفة قوله: «سألني سائل، لماذا تعني بأمر البحوث العلمية؟ وهل ينتظر أن نصل إلي أكثر مما وصل إليه غيرنا من الأمم التي سبقتنا في هذا المضمار.. ألا يكفي أن ننقل عنهم الآراء والبحوث والنظريات؟

فضرب مثلاً بصناعة اللاسلكي، وشرح قصة اختراع أجهزة اللاسلكي، بدءاً من 1860 حينما اكتشف، كلارك مكسويل، وجود أمواج كهرومغناطيسية، إلي أن وضع، ماركوني، أسس هذه الصناعة، ثم قال مشرفة، «الثروة الناشئة عن صناعة أجهزة اللاسلكي في أمريكا وحدها تقدر بنحو 750 مليون دولار، أي نحو 150 مليون جنيه»، فلو أننا استطعنا أن ننشئ صناعة كهذه في بلادنا لتغير مركزنا الاقتصادي تغيراً جدياً، كما أننا إذا استطعنا أن ندخل عليها التحسينات الفنية فإن ذلك يزيد من دخلنا منها أضعافاً مضاعفة، وعلي استخدام هذه الأجهزة تتوقف حياتنا إذا نشبت الحرب، وتتحول الفكرة العلمية إلي وسيلة من وسائل الدفاع القومي.

* هكذا في ثلاثينيات القرن الماضي كان عميد كلية العلوم يهني الجسر بين العلم والتكنولوجيا، بين الكيمياء والاقتصاد، وبين الفيزياء والدفاع، كان فكر عميد العلوم جزءاً من فكر العالم، وفي 2008 أصبح ما يأتينا من كلية العلوم، عميداً وعلماء، لا صلة له بالعلم ولا بالعالم بعد سبعين عاماً كاملة، 1938 - 2008، من رؤية د. مشرفة في صناعة اللاسلكي تجيء رؤية كلية العلوم في إضراب العلماء من أجل مائة جنيه وفي حرمانهم من الزيادة، ثم إحالتهم للتحقيق..

مصر 2008 ليست بخير.

البرازيل

قضت مصر القرن الفائت مناصفة بين الاشتراكية والرأسمالية، وقد فشلت في التجربتين معاً، فشلت في الرأسمالية بمثل ما فشلت في الاشتراكية.

لماذا فشلت مصر قبل الانفتاح، ولماذا فشلت بعد الانفتاح؟.. ربما يكون هذا السؤال مبالغاً لعموم المثقفين السياسيين في مصر.

ذلك أن الناصريين يرون أن مصر كانت ناجحة تماماً قبل انفتاح السادات وخصخصة مبارك، بينما يرى الساداتيون والبارككيون أن مصر كانت فاشلة تماماً قبل الانفتاح، ولكن ازدهرت ما بين الانفتاح والخصخصة وما بينهما. وظني أن سوء الظن لدى الطرفين صحيح، فرأي الساداتيين في الزمن الاشتراكي سليم، ورأي الناصريين في الزمن الرأسمالي سليم، فالؤكد أن مصر فشلت في كل العقود الأخيرة.. وفي كل شيء.

كانت الاشتراكية خطباً وشعارات، بمثل ما أن الرأسمالية خطب وشعارات، كان في عصر عبدالناصر أناس يحدثوننا عن صناعة وإنتاج وتكنولوجيا، وعن تقدم وتسليح وبرنامج نووي، ولا يزال أناس يحدثوننا الآن عن الشيء نفسه، والؤكد أننا في العقود الثلاثة لم نفعل شيئاً مما قلنا ونقول.

الفارق أن خطباء الاشتراكية أكثر ثقافة ولباقة من خطباء الرأسمالية، وأن الحديث باسم الفقراء له رونق يفوق الحديث عن الفقراء.. وأن خطباء عصر عبدالناصر يملكون ألف مقولة جاذبة، وأن خطباء ما بعد عبدالناصر يملكون ألف مقولة طاردة.

الحادث بعد نصف قرن من خطب علي صبري وعاطف عبيد ومن علي شاكلتها.. أننا هنا والآخرين هناك، أنهم يصعدون في هدوء ونحن نهبط في ضجيج، ولا يزال الناصريون يحدثوننا عن خطط خمسية، وصناعة واقتصاديات، ولا يزال الساداتيون - البارككيون

يحدثوننا عن معدلات وأرقام وإنجازات، وكل حزب بما لديهم فرحون، ولكن الحقيقة هي قول النبي سليمان، «الكل باطل وقبض الريح». صعدت اليابان وألمانيا وفرنسا وبريطانيا بعد حرب عالمية في زمن الرئيس عبدالناصر، وصعدت إيطاليا وإسبانيا وكوريا وإندونيسيا في زمن الرئيس السادات، وصعدت ماليزيا والصين والهند وأيرلندا في زمن الرئيس مبارك.

في الوقت نفسه - خمس سنوات لا غير - كانت خطب المجموعة الاقتصادية تتوالي، وكانت البرازيل تعمل، جاء إلى السلطة فيها رجل اشتراكي، لكنه عمل بمنطق رأسمالي، ولكن كان عظيماً في الاشتراكية وعظيماً في الرأسمالية، عالماً ومخلصاً في الطريقتين معاً..

فقد صعدت البرازيل في لمح البصر، أكثر من 200 مليار دولار احتياطي النقد الأجنبي، سداد للديون قبل موعدها، فائض في الميزانية العامة، نقلة في الصناعات النووية، إنجازات كبرى في الإصلاح الاجتماعي وقيم العدالة، ولا تزال مصر.. تخطب، وتخطب، وتخطب..

الهند

حين زار يوسف بطرس غالي الهند لم يجد فيها ما يلفت النظر إلا «التوك توك». انبهر الوزير بتلك العربة الساحرة انبهاراً شديداً، وقرر جلب آلاف «التكاتك» إلى أرض الكنانة ضمن رؤية حضارية جديدة!

أطلقت الهند، قبل أيام، أول مركبة فضاء إلى القمر.. والمركبة والصاروخ والمهام العلمية المنوطة بالمركبة كلها هندية مائة بالمائة. لم تذهب الهند إلى قاعدة «جيانا الفرنسية»، كما ذهبت مصر لإطلاق قمرها الصناعي، الذي يحمل المزيد من الكليبات.. لم يكن القمر قمراً، ولا الصاروخ صاروخاً، ولا قاعدة الإطلاق قاعدة، ولا فريق العمل فريقاً.. كل ما أنجزنا هو قطع تذاكر السفر، ثم الجلوس كالأطفال في صالة المشاهدة لمتابعة ما يفعله الآخرون!

سوف تمكث مركبة الفضاء الهندية حولين كاملين، وسوف تجري تجارب علمية عديدة، وعمليات مراقبة حول القمر، وسوف تدرس طبقات سطح القمر، وستدرس أوضاع المياه.. أما الأخطر والأكثر إثارة.. فهو بحث طاقة بديلة للبترو، ومحاولة إحضار مادة «الهليوم-2» من كواكب أخرى إلى الهند.. إن «الهليوم-2» يصعب استخراجُه من كوكب الأرض، وتفكر الهند في استخراجِه وجلبه من الفضاء!

في السنوات الخمس المقبلة ستبقي مصر منشغلة بتسريب امتحانات الثانوية العامة، وأحكام النقض في قضية سوزان تميم.

في السنوات الخمس ذاتها، ستكون الهند قد أطلقت 60. رحلة فضائية، بمعدل 12، رحلة كل عام، وستكون الهند من كبريات الدول في تقديم خدمة إطلاق الأقمار الصناعية، بعد أن نجحت عام 2008 في إطلاق 10. أقمار صناعية بصاروخ واحد، منها قمران للهند، وثمانية أقمار لدول أخرى.

وفي الوقت الذي انشغل فيه وزير البحث العلمي بكل شيء إلا البحث العلمي، ولم يحضر الوزير حفل تكريم العالم المصري د. مصطفى السيد في جامعة القاهرة أو عين شمس، وفيما ينشغل رئيس الوزراء بملفات كبرى، من وزن السحابة السوداء وبالوعات العاصمة، وصناعة الخبز من خلط الذرة بالقمح، يقف رئيس وزراء الهند احتراماً في حفل مهيب ويقول: إنها لحظة تاريخية.. نحيا علماءنا الذين رفعوا رؤوسنا.. إننا فخورون بما وصل إليه العلم والعلماء في بلادنا.

كان الساسة الهنود الذين تسلموا بلداً فقيراً مزدحماً جاهلاً لا أمل فيه، قد زاروا عواصم الحضارة، وعادوا ليجعلوا بلادهم في مقدمة العالم.. وفي مصر زار الساسة بلاد الهند، فعادوا بأسطول من التوك توك!

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية

كنت في نيويورك في صحبة العالم الكبير الدكتور أحمد زويل، وكان الدكتور زويل الذي اختار أن نقطع عدداً من شوارع مانهاتن سيراً علي الأقدام يتحدث عن الجديد في العلم والعالم، وكان علي أن أبذل جهداً خارقاً في الفهم وجهداً مضاعفاً في الحوار.

ولما أراد الدكتور زويل أن يمتدح إنصاتي وحسن سؤالي - وكانت خطانا قد اوصلتنا إلي حيث يقع مبني صحيفة نيويورك تايمز - توقف الدكتور زويل ثم قال، حقاً.. إن خريجي كلية الاقتصاد والعلوم السياسية مستوي آخر، إنهم متميزون للغاية، ثم أفصح العالم الكبير عن تقدير كبير للكلية والخريجين.

تذكرت تلك الخاطرة في مناسبة اجتماع خريجي كلية الاقتصاد والعلوم السياسية مساء اليوم في فندق سميراميس من أجل التواصل والحوار.

واتذكر دوماً وبلا انقطاع أن تخرجي في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ليس جزءاً في سيرتي الذاتية، بل هو جوهر السيرة والمسيرة. هو أساس الشرعية، وهو السند المعنوي الدائم، هو احتياطي الذهب الذي لا يتآكل في زحام الأحداث والأشخاص.

* إن المرء لتأخذه الحيرة.. كيف لكلية بهذا الامتياز، وخريجين بهذا النبوغ، لا يتكون في مقدورهم انتشار وطن بهذا الركود؟.. كيف لبلد فيه مدارس عظيمة في العلوم السياسية والاقتصاد، وفي الإدارة والإحصاء.. تجتمع في بناء واحد.. ثم لا يكون الخارج كالداخل والفناء كالبناء؟.. كيف اتسع رحاب الكلية إلي تلك الآفاق ويضيق الوطن وتضمر الأطراف؟

* في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية مدرسة ليبرالية رفيعة، وفيها أيضاً مدرسة يسارية رصينة، وفيها ثالثاً مدرسة إسلامية رقيقة.. ولكن واقع السياسة في مصر بات يفتقد الرفعة والرقّة معاً!

من هؤلاء الذين اختطفوا واجهة الوطن بلا علم ولا تعليم؟ من هؤلاء الذين أحالوا الليبرالية إلى تبعية والعدالة إلى إعلان والدين إلى طلاقات رصاص؟

كيف مرت قامة في القانون الدولي بوزن الدكاترة عز الدين فودة ثم انتهى المشهد إلى ترزية القوانين؟.. كيف تنير حياتنا قامة في الاقتصاد السياسي بوزن الدكتور أحمد الغندور ثم يسود المشهد علم اقتصاد الخادومات؟!

كيف تحيا كلية الاقتصاد والعلوم السياسية مع الحكومات المصرية في وطن واحد؟!

* لقد حظيت الكلية في السابق باهتمام رئاسي كبير، وكانت الكلية هي عاصمة الاستشارات السياسية في البلاد، وكان معها مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، وهو مركز تخرج أعضاؤه البارزون جميعهم في كلية الاقتصاد. كانت الكلية ومركز الأهرام جناحي مدرسة السياسة المصرية.

وكانت مؤسسة الرئاسة ومؤسسات سيادية وغير سيادية تلجأ إليهما طلباً للرأي والمشورة. وقد مضت سنوات علي هذا التواصل. ويبدو لي أن الأمور بات أقرب إلى القطيعة. فقط عدد من الأفراد جري اجتذابهم إلى مواقع السلطة والنفوذ. أما مدرسة السياسة فقد أصابها الوهن.. وضاق مصيرها ما بين ذبول وأفول!

* نداء إلى كل من يملك قلباً يعلو علي راحة الياس وعقلاً يتجاوز موطئ القدمين، إلى كل من لديه الرغبة في خوض صراع مفتوح ضد تحالف عديمي الموهبة.. لنعمل جميعاً لترميم الضمير، علي أن تعود مصر إلى علم السياسة.. أن يعود الوطن إلى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.

تخصيب اليورانيوم في مصر (1)

تحتاج مصر إلى عناوين لائقة، ويحتاج شعبنا إلى سمعة أفضل.. لقد أصبحت معظم شؤوننا بعيدة عن اللياقة الحضارية.

علينا أن نعترف بأن الصورة الذهنية لمصر في عالم اليوم تحمل الكثير من الضعف العام.. من طوابير الخبز إلى طوابير البوتاجاز إلى دراما الاعتصامات والإضرابات من أجل حفنة جنيهات.. لقد هبطت السلطة بالوطن.

وعلىنا أن نعترف أيضاً بأن الصورة الذهنية لإيران تحمل الكثير من معالم العصر.. مفاعلات نووية وأقمار صناعية وتخصيب يورانيوم وأجهزة طرد مركزي.. وقنبلة قاذمة. وتحتاج مصر الآن إلى تغيير كبير في الصورة والمكانة.. وظنى أن هذا التغيير ينبغي أن يكون عاصفاً وكاسحاً.. وممتلئاً بالجلبة والضوضاء.

نحتاج إلى أن ينسى العالم صورة البلد الفقير، الذى يتعثر في إشباع مواطنيه.. إلى بلد أكثر جرأة وحضوراً. ويبدو لى أن فكرة تخصيب اليورانيوم ربما تكون العنوان الأفضل لمصر القادمة.

إن تخصيب اليورانيوم لا يكون إلا في إطار منظومة علمية وتكنولوجية متميزة. من أجل تخصيب اليورانيوم سنقوم بخطوات وإجراءات تشبه تهيئة البلاد لاستضافة كاس العالم.. وبمثل ما يجرى من إعداد اللاعبين والفنادق والواصلات ستجرى عملية واسعة من إصلاح كليات العلوم، إلى اجتذاب العلماء المصريين من الخارج، إلى وضع قوانين صارمة، إلى بناء مرافق علمية ذات مقاييس عالية.

إن تخصيب اليورانيوم في مصر عمل لا يخالف معاهدة الانتشار النووي ولا قوانين الوكالة، وحين سألت د. محمد البرادعى عن ذلك، وكنت في مكتبه في فيينا قبل أشهر، قال

لى: إن العالم بصدد تشريعات جديدة لوضع قيود على تخصيص اليورانيوم داخل الدول.. ولكن الوضع الحالى يسمح، بشرط إبلاغ الوكالة ورقابتها.

إذا ما نجحت مصر في تخصيص اليورانيوم سيكون ذلك إنجازاً تاريخياً كبيراً، وستوضع مصر في مصاف الدول الجادة في العالم.. سيكون ذلك كله في إطار الشرعية الدولية ..

ولكن مصر ستكون وقتها قريبة من إنتاج القنبلة النووية.. سيكون حديث العالم وقتها كالتالى: «مصر على وشك إنتاج قنبلة نووية...» «المصريون نجحوا في تخصيص اليورانيوم ويحتاجون ستة أشهر لإنتاج القنبلة...» هل تغامر مصر بخوض حرب نووية بعد أول تفجير نووى محتمل... «السلاح النووى المصرى وتغيير خريطة القوى في الشرق الأوسط...» سيقول البعض: «إننا ندفع بذلك بلادنا إلى صدام مع العالم.. ثم إننا لن نستطيع.. لا تخصيص اليورانيوم ولا هذا اللعب الخشن في العلاقات الدولية..» وأقول لهم:

يحتاج الوطن إلى حلم كبير، إلى عنوان كبير، إلى رمز كبير، إلى كلام كبير.. إن بعض القادة الأتراك أجابوا عن سؤال: لماذا أوروبا وأنتم لن تدخلوا الاتحاد؟ بقولهم: إن أوروبا هى العنوان الذى نجمع الشعب عليه ونقودهم إليه.. إننا لا نحتاج أوروبا قدر احتياجنا للحلم الأوروبى!

كان مهاتير محمد غير مقتنع بالحلم الأوروبى ولا الحلم الأمريكى، فكان اختراعه الفكرى والسياسى الكبير حول الحلم اليابانى.. وكان كل جهد مهاتير في بدايات النهضة، كيف يصحو الباليزيون من النوم فلا ينظرون إلى ثقافة القصدير والمطاط البدائية، بل ينظرون إلى مجمل الحلم اليابانى.. كيف لا تنظر قومية المالايو إلى القومية الصينية وإلى القومية الهندية، بل تنظر القوميات الثلاث التى تشكل ماليزيا إلى قبة حضارية واحدة هى اليابان!

تحتاج مصر إلى عنوان.. إلى حلم.. إلى طريق جديد ينهى عصر الأنابيب والطواير.. ينهى زمناً كاملاً سيطر فيه تحالف عديمى الوهبة.. تحتاج مصر إلى قنبلة نووية أو إلى البدء في تخصيص اليورانيوم.

تخصيب اليورانيوم في مصر (2)

لا يعنى مفاعل أنشاص الكثير، ولم يمثل البرنامج النووى المصرى في السابق القيمة الكافية.. وكل ما تم إنجازه نووياً في مصر لا يزيد على الوضع النووى المناسب لجامعة إقليمية.. ذلك أن كبريات الجامعات في العالم لديها مفاعلات أبحاث متقدمة، وكان يجدر بجامعة القاهرة أن يكون لديها مفاعل نووى.. وكان يجدر أيضاً أن يكون هناك مفاعلان آخران في جامعة الإسكندرية وفي جامعة أسيوط. ومن الكوادر العلمية والفنية والإدارية لهذه المفاعلات الثلاثة تتشكل الطبقة العلمية النووية في مصر.

والدهش أن مصر لها ميزة نسبية في ذلك الملف تحديداً دون ملفات أخرى أسهل وأبسط.. إن إمكانات الكوادر المصرية في المجال النووى أعلى منها في مجالات استصلاح الأراضي أو صناعة السيارات أو صناعة النسيج، والدهش أيضاً أن الدولة المصرية قد استسلمت بسهولة شديدة للتحديات الإسرائيلية في إنجاز البرنامج النووى المصرى.

لقد بدت مصر عاجزة عجزاً مهيناً عن حماية علمائها من الاغتيال، أو حماية العلماء الأجانب من الطرود المتفجرة التى كانت تأتيهم على عناوينهم.. إن حماية هؤلاء وهؤلاء عمل سهل، وقد أنجزت الأجهزة المصرية ما هو أخطر بكثير.. ولكنها الإرادة السياسية التى لم تأخذ الملف النووى على محمل الجد.

إن ما توفر لبعض الفنانين والمشاهير من أشكال الحماية كان أعلى كثيراً مما توفر لجمهور العلماء النوويين في مصر، بل إن السينما والدراما تنافستا في إظهار العلماء النوويين مثل الكهنة في مصر القديمة ممن يتسمون بالغموض والخلل والأهمية الساذجة.

لقد تم تصوير العلوم النووية، وكأنها علوم الآخرين، وأن الوصول إليها أمر مستحيل، بل تم الترويج لأفكار أسطورية من نحو عدد الذين يفهمون نظرية النسبية في العالم وعدد

الذين يعرفون أسرار الذرة وعدد الذين يعرفون عنصر اليورانيوم.

يتأكد لنا الآن أننا أخطأنا.. وإن إسرائيل والهند وباكستان وبعدها كوريا الشمالية وإيران.. فعلت وتفعل.

ثورة 14 يناير المجيدة

هذه أجمل ثورة عربية.. بل هي واحدة من أجمل الثورات في العالم.. هي أجمل من ثورة رومانيا وثورة أوكرانيا.. بكثير.

■ كان الرئيس التونسي زين العابدين بن علي مناضلاً عظيماً ضد الاستعمار.. هو واحد من شباب الحركة الوطنية التونسية ضد الاحتلال الفرنسي.. ودفع ثمن وطنيته مفصلاً من التعليم ومعذباً في السجون.

■ ثم قام زين العابدين عام 1987 بانقلاب رائع على الرئيس الحبيب بورقيبة.. كان بورقيبة قد فقد الكثير من قدراته الفكرية والسياسية.. وكان بورقيبة ضعيفاً في مواجهة الزمن، وكان الشعب التونسي ضعيفاً في مواجهة بورقيبة والزمن.. فجاء زين العابدين بالانقلاب الصائب في التوقيت الصائب.. ثم بدأ زين العابدين صلحاً مع المعارضة والنخبة المثقفة وفئات الشعب.. وفتح أبواب قصر الرئاسة في قرطاج لمن يرغب في النقاش والحوار.

■ ما الذي تفعله السلطة بالرجال.. كيف تحول رجل وطني قاوم الاستعمار إلى رجل قاتل يطلق الرصاص الحي على شباب منكسر موجوع؟

كيف تحول رجل الدولة الذي لم يترك المزيد لأخطاء بورقيبة.. ثم بنى دولة جيدة من طبقة وسطى واسعة إلى تعليم وصحة وإسكان.. إلى رجل السلطة الذي لم يهتز لطواير العاطلين ولم يخشع لأنات الفقراء والمهزومين؟ كيف أصبح رجل الدولة.. رجل السلطة؟ كيف أصبح الثائر ضد الثورة؟

■ يذكرني زين العابدين بصدام حسين الذي كان نائباً جيداً.. ثم أصبح رئيساً لا

*نشر هذا المقال في 17 يناير 2011

يحتمل.. بنى صدام حسين بلاده وهو نائب للرئيس.. ثم هدم ما بناه وما بناه الآخرون حين أصبح رئيساً للبلاد.. كان صدام الرئيس يمشى بأستيكة فوق صدام النائب.. ثم مشى بقنبلة نووية فوق مستقبل بلاده ومستقبل بلاد العرب.. فترك العراق أرضاً للخراب.. واتى بالاحتلال الأمريكى إلى شرق العرب.

■ هي المدرسة ذاتها.. زين العابدين بدأ مناضلاً وانتهى قاتلاً.. بدأ ضد الاستعمار وانتهى ضد الشعب.. بدأ ضد فرنسا وانتهى ضد تونس!

■ لم يفهم زين العابدين أن لصبر الشعوب حدوداً.. وأن التاريخ لا يغفر لمن يفهم متأخراً.. وأن قراراته بحل البرلمان وإقالة الحكومة والإطاحة برجاله قد تأخرت كثيراً عن الموعد الذى انتظره الشعب.. نجحت «القلة المنحرفة» وأطاحت بأقوى نظام أمنى فى العالم العربى.. نجحت «القلة المنحرفة» فى أن تجعل من الكرامة جيشاً شعبياً ضد زين العابدين ومؤسساته.

■ إنها أجمل ثورة عربية.. وهى من أجمل ثورات العالم.. لم يكن هناك ذلك التجهيز الطويل الذى حدث فى أوكرانيا.. ولا آلاف الرجال التابعين للمخابرات المركزية الأمريكية ولا مليارات «سورس» التى مولت الثورة البرتغالية فى أوكرانيا.

■ لم يكن هناك ستون ألفاً من رجال السى آى إيه ورجال الكى جى بى كما حدث فى رومانيا.. بل كانت ثورة 14 يناير المجيدة.. ثورة «تونسية» خالصة.. قادها شباب عظيم.. زاده الرصاص جسارة وفروسية.

■ تحية للشباب التونسى العظيم الذى رفع رؤوس العرب أجمعين.. ألف مبروك.

الفصل الثالث

ربيع القاهرة..

ثورة 25 يناير

الجمهورية الأولى

مثلت «الثورة المصرية» في 25 يناير 2011 نهاية الجمهورية الأولى وبداية الجمهورية الثانية في مصر.

كانت فاتحة الجمهورية الأولى محدودة في الزمان ومحدودة في التأثير. وهي حقبة الرئيس محمد نجيب.

ثم جاءت الحقبة الثانية كثيفة في الزمان شاسعة في التأثير ويمثلها عصر الرئيس جمال عبدالناصر، وكان على الحقبة الثالثة أن تخوض امتحاناً شاقاً بالسلح وبالساسة من أجل تحرير سيناء وبحث الطريق الى النهضة. لكن الرئيس السادات الذي قاد الحرب والسلام. لم يكن محظوظا في موعد الاغتيال، حيث غادر منصة الاحتفال في اكتوبر عام 1981 قبل ستة اشهر من عودة سيناء في ابريل عام 1982. وانتهت الحقبة الثالثة على مشاهد متفرقة. دماء على المنصة. ومتمردون في اسبوط ومعتقلون في السجون وغاضبون في كل مكان!

جاء الرئيس السابق حسني مبارك في ختام الجمهورية الأولى موفور الحظ بما لم يحدث مع حاكم مصرى في العصر الحديث. جاء مبارك ليبنى عائد السلام دون أن يدفع الثمن. ولينعم بهدوء دام ثلاثين عاما دون أن تلتصق به اتهامات الخيانة وحكايات كامب ديفيد، ثم انه ورث الانجازات الأسطورية لحرب اكتوبر المجيدة دون أن يشاركه أحد.

كان الفريق الشاذلى رئيس أركان الحرب وبطلها الأشهر يقضى حياته في المنفى ثم في السجن ثم في المنزل. في سنوات كئيبة بليدة. وفيما يشبه سينما الخيال. غادر الفريق الشاذلى الحياة يوم غادر الرئيس مبارك الرئاسة. واختلطت جموع الذين حضروا جنازة

الفريق الشاذلى مع جموع الذين أقاموا حفل رحيل مبارك. كانت جنازة الوداع وحفل
الرحيل في يوم واحد!

لم تكن حياة المشير الجمسى (القائد التالى للفريق الشاذلى) أكثر حضوراً من سابقه.
وقد قضى جميع سنواته في عصر مبارك متريضا في نادى هليوبوليس. ليس أمامه إلا رواية
أحداث أكتوبر أمام أعضاء النادي. كانها حيلة ذكية لقتل الوقت.
لم يسمع أحد بالمشير الجمسى طيلة عصر الرئيس مبارك. ولقد ظن كثير من الناس أن المشير
الجمسى قد مات في عهد الرئيس السادات!

لا شيء أيضا عن المشير محمد على فهمى. ذلك القائد الجليل الذى يعد واحدا من
أعظم قادة الدفاع الجوى على مستوى العالم. شأنه شأن المشير الجمسى. اسم مغمور ووجه
مجهول. لا يعرفه الناس اسما ولا رسما، وربما لم يأت ذكره في عهد الرئيس مبارك سوى
مرات معدودة. لم يلتقطها أحد، ولقد روى لى الكاتب الراحل الأستاذ محمود عوض عن
مذكرات صوتية قام بتسجيلها مع المشير محمد على فهمى. وقد انتظر الأستاذ محمود
عوض حتى يرحل الرئيس مبارك لى ينشرها. ثم شاء القدر أن يرحل الكاتب والمشير قبل أن
يرحل الرئيس!

إن واحدا من أعظم قادة العسكرية المصرية وواحدا من أعظم قادة المدفعية في التاريخ
العسكري. وهو المشير محمد عبد الحليم أبو غزالة. لم يتمكن شعبنا من الاحتفاء به قائدا
ومفكرا، وقد أخرجته الرئيس مبارك من السلطة بطريقة لا تليق بمقام القادة ولا قامته
الأبطال، وراح نظام الرئيس مبارك يغطى على العبقرية الاستراتيجية للمشير أبو غزالة لصالح
قصص صفراء عن مكالمات وغراميات. وبدلا من أن يكون موقع المشير في أعلى مستويات الفكر
العسكرى والعقل الاستراتيجى أصبح المشير أبو غزالة ضيفا دائما على أحاديث النميمة وعناوين
الصحف الصفراء!

هكذا أصبحت أبرز إنجازات عصر مبارك هى «تفريغ مصر» ليبقى مبارك وحده بلا
شركاء. ثم تجريف الوطن من القادة المدنيين والعسكريين. ثم اطفاء جميع النجوم ودفع
كل الرؤوس الى أسفل.

ثمة من كانوا يقولون للرئيس مبارك انه الأفضل منذ محمد على باشا وثمة من
زادوا على ذلك وقالوا منذ صلاح الدين وثمة من كانوا أكثر خيالا وابتداعا فقالوا إنه

الأفضل منذ عهد الفراعنة!

كان المذهل في كل ذلك أن الرئيس السابق لم يكن متأكدا أن ذلك ضرب من هوس النفاق وجنون التزلف والانسحاق. بل كان الأمر يختلط عليه. والأغلب أنه ظن لبعض الوقت أنه حقا الأفضل منذ عصر اخناتون!

لقد كان مبارك محظوظا في معركة «تفريغ مصر». فقد كان القدر حليفا قويا. مات كبار قادة حرب أكتوبر. من رموز القوة الصلبة، ومات معهم كبار قادة العقل المصري. من رموز القوة الناعمة. رحل عبدالوهاب وبليغ، وسكتت شادية ونجاة، رحل عبدالرحمن بدوي وفؤاد زكريا وزكى نجيب محمود، ورحل لويس عوض وحسين فوزي، رحل نجيب محفوظ ويوسف ادريس كما رحل يحيى حقي وتوفيق الحكيم وعبدالرحمن الشرقاوى واحسان عبدالقدوس، رحل الشعراوى والغزالي والباقورى والتلمساني ورحل جمال حمدان ومصطفى محمود، كان إعصارا عنيفا باغت بلادنا. انتهى تسعون بالمائة من القوة الناعمة لمصر في سنوات محدودة. ليبقى مبارك وحيدا وسط الخلاء!

لم يعد المصريون يتناقشون في المناظرة بين الشيخ الغزالي وخصومه. ولا معارك اليسار المصري مع توفيق الحكيم. لم يعد المصريون يسمعون عن الانحناءات الفكرية لعبدالرحمن الشرقاوى، ولا الجلبة الفكرية ليوسف ادريس، ولا الصخب الفلسفى لعبدالرحمن بدوي، ولا الدعوة الفلسفية الرقراقة لزكى نجيب محمود. ولا المجالس الوقورة للشيخ الشعراوى. ولا الأطروحات الضخمة لجمال حمدان.

أصبح الرئيس مبارك هو العالم والفكر والفيلسوف. أو هو الرئيس دون احتياج لعلم أو فكر أو فلسفة! سوف يتوقف التاريخ طويلا أمام حسنى مبارك. كيف أمكن لهذا الرجل أن يمضى مع رجاله فوق أسطول من الجرافات. قطعت ثلاثين سنة من الإزالة البطيئة المتواصلة. لنجد مصر في يناير 2011 «مليون كيلو متر مربع من الأرض الفضاء»!

ظهرت مصر كلها ساخطة على خريف الجمهورية الأولى.. الشباب والشيوخ، الأطباء والصيادلة. المهندسون والعلمون. القضاة والصحفيون. شركات البترول والبنوك. المترو والسكة الحديد. بولاق الدكرور وروتارى أكت. كل مصر ضد حسنى مبارك!

حلّ الحزب الشيوعي وحلّ الحزب الوطني

مثل طائرة ورقية تمرّقت بين يدي طفل صغير.. تمرّق الحزب الوطني وانتهى في لحظات!

لا أحد من الثلاثة ملايين عضو قال، لا... لا أحد من الثلاثة ملايين عضو ذرف دمعة واحدة على النهاية، كان قرار الحل يخص حزباً آخر في بلد آخر!
ثلاثة ملايين عضو كأنهم لا أحداً

(1)

وصل الحزب الشيوعي إلى حكم روسيا عام 1917، ولما جاء بوريس يلتسين إلى السلطة قام بحل الحزب الشيوعي الحاكم، وانتهى الحزب الذي شغل العالم سبعين عاماً في لحظات، وما بين البداية والنهاية قصة مثيرة.

■ أسس الشيوعية في روسيا أربعة رجال: اثنان من الفلاسفة واثنان من الثوار الحكام. تدين الشيوعية في روسيا بالفكر السياسي إلى كارل ماركس وصديقه فريدريك إنجلز.. وشكلاهما ولد ومات في القرن التاسع عشر.. وتدين بالفعل السياسي إلى لينين الذي أنجز الثورة عام 1917 وبقي زعيماً لها حتى وفاته عام 1924، وإلى الرجل القوي ستالين الذي توفي عام 1945.

كما تدين الشيوعية في روسيا إلى نخبة من كبار الأدباء يتقدمهم مكسيم «جوركي» الذي شارك في ثورة 1905 ضد القيصرية.. ورحل بعد فشلها.. وبقي في الخارج داعياً إلى الثورة على القيصرية. وكان جوركي أبرز المتحمسين لثورة 1917.. وفي رواية الأم، أفصح عن وضع الثائر الذي يؤثر على الجماهير من خلال أبطاله.. وقد توفي «جوركي»

عام 1963.

الشيوعية في روسيا إذن هي من صنع خمسة رجال وآخرين، اثنان من الفلاسفة واثنان من الساسة وأديب (2 + 2 + 1).. كارل ماركس + إنجلز + لينين + ستالين + جوركي.

(2)

لقد جاء من بعد هؤلاء خمسة آخرون.. انتهى بهم الاتحاد السوفيتي. جاء نيكيتا خروشوف، ثم ليونيد بريجنيف، ثم يوري أندربوف، ثم قسطنطين تشيرنكو، ثم ميخائيل جورباتشوف.

كان الأفضل خروشوف لكنه لم يبق طويلاً، وكان الأسوأ بريجنيف، وقد ظل في السلطة حتى فقد الاتحاد السوفيتي معظم دوره وإمكاناته، ورغم أن أندربوف قد حاول خلال الأشهر القليلة التي أمضاها في السلطة أن يحدث بعض التغييرات فإنه توفي قبل أن يعرف أحد إلى أين كان سيقود الاتحاد السوفيتي، وجاء بعده تشيرنكو، الذي كان مريضاً هو الآخر.. ولم يعيش إلا فترة قصيرة في موقع الأمين العام.. وجاء جورباتشوف.. برؤية سريعة للإصلاح الكبير.

يقول الشيوعي اللبناني كريم مروّة في كتاب صقر أبوفخر «ما يشبه السيرة»، الذي صدر في دمشق عام 2002، إن جورباتشوف الذي جاء فجأة إلى السلطة لم يكن مؤهلاً لقيادة التغيير، فبدلاً من أن يقوم بالتغيير بشكل تدريجي وواقعي طرح كل أفكاره الراديكالية دفعة واحدة.. ولم يأخذ في الاعتبار أنه لا الحزب ولا الدولة ولا المجتمع كانوا مؤهلين لذلك. إن «جورباتشوف، الذي ظهر فجأة دمر الحزب والدولة قبل أن ينشئ البديل».

(3)

إن المفارقة في إنهاء الحزب الشيوعي السوفيتي لا مثيل لها.. كان الحزب يضم (25) مليون عضو فيه.. وحين أصدر «يلتسين» قرار حل الحزب الشيوعي.. لم يتحرك أحد من الخمسة وعشرين مليون عضواً

■ يقول الكاتب «نذير جزماتي» في كتابه «هل كانت ثورة أكتوبر اشتراكية»، كيف أصبح بمقدور عدد صغير من الأفراد أن يقلبوا كل شيء رأساً على عقب في بلد مضى على انتصار الثورة الشيوعية فيه خمسة وسبعون عاماً، وبلغ عدد أعضاء الحزب

فيه خمسة وعشرين مليوناً؟»

■ ويكمل الكاتب «عبدالكريم أبازيد» الرأى ذاته قائلاً: «إن انهيار الاتحاد السوفيتى ليس ذنب البريسترويكا.. بل ذنب ذلك النظام الذى لم يدافع عن أحد من عشرات الملايين من الشيوعيين والشباب الشيوعى المسجلين رسمياً.. لم يتصد أحد من المليون شيوعى فى موسكو (يلتسين) عندما أعلن حل الحزب الشيوعى. إن (يلتسين) لم تكن تخيفه الدبابات، لكن كان يخيفه لو أحاط به عشر هؤلاء وأعلنوا رفضهم حل الحزب وإغلاق صحيفته المركزية. لماذا لم تخرج الطبقة العاملة السوفيتية هى الأخرى، وعددها عشرات الملايين.. والتي حققت بالفعل مكاسب ملموسة فى عهد النظام السابق؟»

■ «ويزيد» أبازيد قائلاً: " لقد تحولنا نحن الشيوعيين إلى شيوعية أصولية بكل معنى الكلمة.. نصف مجتدين باستشهاد من (لينين) أو (ستالين) أو (ماركس).. يعود فى أحسن الأحوال إلى قرن مضى أو نصف قرن!

ماساتنا وقد انهار الاتحاد السوفيتى أننا عندما يسألنا سائل: ما الاشتراكية التى تنوون بناءها؟.. كنا فى السابق نضع يدينا على أطلس العالم ونقول: هبل تشاهدون سدس العمورة هذه.. أى الاتحاد السوفيتى.. إننا ننوى بناء مجتمع مثله.. وعندما انهار الاتحاد السوفيتى لم نعد نعرف بماذا نجيب.. إننا فى أحسن الأحوال أصبحنا نقول بالمحافظة على القطاع العام وتطويره.. مسخنا نظرية جبارة.. فحولناها إلى مهزلة "

(4)

تلك مشاهد من بداية ونهاية الشيوعية فى روسيا.. عشرة رجال مثلوا بداية ونهاية الحزب الشيوعى والاتحاد السوفيتى.. الخمسة الذين مثلوا رحلة الصعود «ماركس + إنجلز + لينين + ستالين + جوركى»، والخمسة الذين مثلوا رحلة الغروب (خروشوف + بريجينيف + اندربوف + تشيرنكو + جورباتشوف).

ولما جاء سياسى محدود.. لا ثقافة ولا فكر ولا رؤية.. لا يملك إلا الجراءة.. تمكن ذلك الجريء الجاهل «يلتسين» من إزالة تراث عشرة رجال فى لحظة واحدة!

محا «يلتسين» وراء ثلاثة أرباع قرن من السياسة، وقرن ونصف القرن من الفلسفة، باستيكة صغيرة.. فمسح كل شئ!

اصدر «يلتسين الذى لا يفيق طويلا من الخمر قراره بحل الحزب الشيوعى السوفيتى.. لم يتحرك أحد من (25) مليون عضو، ولم يتحرك أحد من (100) مليون عامل مستفيد.. هزم يلتسين، المحدود، عشرات الملايين من الحزبيين والثوريين والمنظرين!

(5)

إننى أفهم الآن.. كيف انهزم الحزب الوطنى فى لحظات، كيف أنهى حكم قضائى حزبا كان يمرح وحده على ساحة اكبر بلد فى العالم العربى والشرق الأوسط.. قبل قليل.

■ انهزم الكمبيوتر المحمول لرجال لجنة السياسات، وانهزم ثلاثة ملايين عضو فى خمس دقائق.

■ لكن الشئ الوحيد الذى يمكن أن يفخر به الحزب الوطنى أن الحزب الشيوعى السوفيتى كان يضم خمسة وعشرين مليوناً من الأعضاء وقد انهزم أمام رجل مخمور.. أما الحزب الوطنى الديمقراطى فقد كان يضم ثلاثة ملايين وقد انهزم أمام ثورة وطنية عظيمة.

ولكن جمال عبد الناصر أفضل من جيفارا

حكى لي الرئيس الجزائري أحمد بن بيللا جانباً من الصراع بين كاسترو وجيفارا. كان الاثنان رفيقين في العمل الثوري، ثم كان الافتراق بعد النجاح - اختار كاسترو بناء الدولة واختار جيفارا بقاء الثورة. وبدأ كاسترو أول خطوة في البناء على طريق الألف ميل، أما جيفارا فقد اختار مشروعه الحالم لإشعال الألف ثورة!

■ ثمة قصة طويلة مثيرة في ذلك الطريق الشاق.. من «الثورة» إلى «الدولة».

(1)

أقيمت أسابيع في مدينة ستراسبورج الفرنسية قبل أعوام، كان ذلك لأجل المشاركة في دورة دراسية عن القانون الدولي وحقوق الإنسان. وكان من حظي أنني التقيت شباباً من أكثر من مائة دولة كانوا يتحدثون في كل شيء.

ذات صباح كنا في حديقة كلية الحقوق جامعة ستراسبورج، وكان الأغلبية من أمريكا اللاتينية. ودار الحوار بلغات مختلفة حول موضوع الثورة والثائرين وقد ساعدني صديق عربي في ترجمة ما يدور وفجأة سألتني أحدهم من أين أنت؟ قلت له: من مصر. قال: بلد ناصر، جمال عبد الناصر.. قلت: نعم. قال: كان ثائراً جيداً، ولكن جيفارا أفضل منه بكثير.. لقد فعل ناصر ما فعله كاسترو.. اختار السلطة وترك الثورة.. تركا مكانة الثوار ليأخذوا مقاعد الرؤساء!

كان ذلك القول دافعاً لي في بحث تحولات الثائر والسياسي.. والمناضل والمسؤول والثورة والسلطة وجاء كتابي «خريف الثورة»، الذي تضمن فصلاً كاملاً حول محاوراتي مع بن بيللا.. مرحلة في بحث لايزال.

(2)

يعرف الكثيرون جيفارا عبر صورته التى باتت أشهر صورة فى العالم، وأخذ جيفارا من المجد ما لم يأخذه نائر على مر التاريخ.

وفى تقديرى.. فإن جيفارا لم يكن ليستحق هذا المجد ولا تلك الهالة الأسطورية التى أحاطت بحياته ومماته. كان جيفارا ثائراً عظيماً وحسب ولا أضنه كان ملهماً لثورات عظيمة قدر ما كان ملهماً لحالات ثورية متقطعة، وملهماً لنماذج متفرقة من الفوضى.

أصبح جيفارا بمرور الوقت رمزاً للاعتراض المفتوح والسخط المستمر.. وبات بعض من يمثلون مدرسته الثورية أسرى صيغة جديدة هى «أيديولوجيا الرفض».. وهى أيديولوجيا غير جادة.. عمادها «الرفض للرفض».

■ لدى الذين يعتنقون «أيديولوجيا الرفض» لا يوجد شئ فى نهاية النفق ولا عائد فى نهاية الرحلة ولا إنجاز فى نهاية الطريق.. أصبح الرفض بذاته هو الوسيلة وهو الغاية.. هو البداية والنهاية.

(3)

قال لى الرئيس بن بيللا، لم يكن جيفارا استراتيجياً بل كان ثورياً دائماً، ولكن رايه ان «الثوار لا يقيمون دولة.. بل يثورون دائماً».. ويكمل بن بيللا، «كنت عند فيدل كاسترو فى كوبا.. وكنت اشرح له كيف كان كينيدي يريد ضرب طائرتى القادمة من امريكا إلى كوبا.. وكان جيفارا جالساً معنا.. ولكنه كان ساكناً لا يتكلم.. ورأى جيفارا وقتها ان عليه الا يقضى حياته وزيراً.. واتفق مع كاسترو وترك منصبه كوزير للاقتصاد، كان يرى ان برنامجهم الأهم ليس فى كوبا.. بل فى كل العالم.. إشعال الألف نار.. أى إشعال ألف ثورة حول العالم!

(4)

ثمة معضلة أخرى.. تتمثل فى الخصومة الكبرى.. إذا ما اختار بعض الثوار طريق الدولة واختار آخرون بقاء الثورة.

وفى حالة جيفارا وكاسترو فقد وقع خلاف كبير بينهما وزاد الخلاف إلى خصومة.. وزادت الخصومة إلى الحد الذى اعتبر فيه كاسترو أن أى تعاطف مع جيفارا هو نقد لنهج

كاسترو. وحين ذهب جيفارا إلى الجزائر، حيث أمضى ستة أشهر في ضيافة بن بيللا حدثت الجفوة بين الثورة الجزائرية والثورة الكوبية.. وحين سألت الرئيس بن بيللا عن ذلك قال: «جاء جيفارا إلى الجزائر بعد خلاف مع كاسترو.. وقال جيفارا، إن كاسترو يريد بناء دولة، وأنا لا أريد قضاء عمري وزيراً.. ويكمل بن بيللا، لكن استضافتي لجيفارا في الجزائر أدت إلى تدهور علاقتي مع كاسترو.. ولم يعد بيننا ما كان من تفاهم وتحالف.

كان كاسترو يعتقد أن استضافتي لجيفارا هي عمل معاد له.. وأنها انحياز لجيفارا نكاية في كاسترو.. ورداً عليه، فحدثت الجفوة بيننا.

وقد استمرت هذه الجفوة حتى جاء انقلاب بومدين على سلطتي وإزاحتي من الحكم وإيداعى السجن.. فأصبح التقارب شديداً بين كاسترو وبومدين نكاية فى!،

(5)

كان جيفارا وبن بيللا يمثلان الثورة.. وكان كاسترو وبومدين يمثلان الدولة.. وفى حالة الرئيس جمال عبدالناصر فقد كان يمثل الثورة والدولة معاً.

واجه عبدالناصر تحديات فكرية كبرى وهو ينتقل من الثورة إلى الدولة.. كان هناك الشيوعيون المصريون في الداخل وحزب البعث في الخارج.. وكانت الشيوعية والبعثية تطرحان مقولات هائلة بشأن الثورة الدائمة والنقاء الثورى والثورة المضادة.. ما جعل عبدالناصر مضغوطاً باستمرار تحت وطأة المزايدات الشيوعية والبعثية، التى اتهمت عبدالناصر بالسلبية والرجعية!

■ غير أن أكبر ضربة واجهها نموذج الرئيس عبدالناصر.. وهى ضربة جاءت نتاج خليط بانس بين الشيوعية والبعثية معاً.. إنها الظاهرة الثورية للرئيس الليبى معمر القذافى.

(6)

جاء القذافى بدعم أمريكى ليقضى على جمال عبدالناصر.. فكراً وتياراً، أخذ القذافى يطرح نفسه امتداداً لجمال عبدالناصر.. وبدأ رحلة تسفيه عبدالناصر والناصرية.. بدأ القذافى يخطب في الجماهير كما كان يخطب عبدالناصر.. وذهب يهاجم أمريكا وإسرائيل كما كان يفعل عبدالناصر.. وشرع يقدم كتاباً ووثيقة ورؤى مكتوبة كما كان يطرح عبدالناصر، وراح يدعم حركات ثورية خارج الحدود كما كان يدعم عبدالناصر.. لكن

ذلك كله كان تدميرا منظمًا لجمال عبدالناصر، فمن الخطاب السياسى العالى لمصر الثورة..
راح القذافى يهذى في خطابه الكارثى.. ومن معركة شريفة القصد والغاية ضد إسرائيل
وأمریکا.. راح القذافى يحول رسالة النضال إلى حالة نفسية مضطربة.. أظهرت الفكر العربى
وقد أصابه الجنون!

ومن أدبيات جادة ورصينة في مصر الثورة.. راح القذافى يقدم للعالم مخلفات على
ورق باسم الكتاب الأخضر والنظرية العالية الثالثة! ومن دعم مصرى عظيم لحركات
التحرر والنضال راح القذافى يمول عصابات طائشة حول العالم بدد عليها ثروة شعبه وبلاده.

(7)

■ نجح القذافى، رجل الولايات المتحدة القوى، في أن يقدم للغرب أعظم خدماته..
تسفيه الفكر الثورى العربى وتسفيه نموذج جمال عبدالناصر وإذا كان جيفارا وبن بيللا
يمثلان نموذج الثورة، وكاسترو وبومدين يمثلان نموذج الدولة.. فإن القذافى كان الأسوأ
في كل التاريخ، لا ثورة ولا دولة!

■ إن المحنة الكبرى التى خلقها جيفارا للعالم هى تقصير المسافة بين الثورة والفوضى..
وخلق نموذج «الثائر السفیه».. كان نموذج الرئيس عبدالناصر أفضل من جيفارا.. ثورة لها
هدف ودولة لها طريق.

ماسبيرو.. ترميم القوة الناعمة

جاء قرار رئيس الوزراء باختيارى عضواً في مجلس أمناء اتحاد الإذاعة والتليفزيون مفاجأة لى ولبعض العاملين في ماسبيرو.

ذلك أننى لم أنخرط في عمل إعلامى بحت طيلة حياتى.. فعملى بالأهرام تراوح ما بين المشاركة في أعمال مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية وكتابة المقالات في صفحات الراى بالأهرام. وهى كلها على مسافة من المطبخ الصحفى الذى ينتج الخبر والتقارير والتحقيق والحوار. وتمثل مقالاتى في «المصرى اليوم» امتداداً لما كنت أكتب في الأهرام في الاجتهاد والاعتقاد.

ثم إن تجربتى في تليفزيون دريم هى إطار ثالث يضاف إلى الأهرام والمصرى اليوم.. وهو إطار يختلف كثيراً عن السائد.. حيث يمثل برنامج الطبعة الأولى حديثاً يومياً له غاية وهدف، أكثر منه برنامجاً يخضع لقواعد المهنة الصارمة. وكثيراً ما قالت لى الإعلامية الأستاذة منى الشاذلى: إن برنامج الطبعة الأولى في التليفزيون يعادل المقال السياسى في الصحافة. ثم يجىء اجتهادى الرابع عبر مشروعى البحثى الذى تمثله ستة كتب في الشؤون المصرية والإقليمية.

■ وعلى ذلك.. فإن الاجتهادات الأربعة التى مررت بها تجيء جميعاً خارج الصناعة اليومية في الصحافة والإعلام. وانتمت جميعها، بدرجات متفاوتة، إلى جانب الراى والتعبئة أكثر منها إلى جانب الحرفة والمهنة.

■ وكان من حظى في أول اجتماع لنا في مجلس الأمناء مع رئيس الوزراء ونائبه ووزيرى العدل والتعاون الدولى.. أن أجد نفسى بين كبار الأسرة الأهرامية.. الكاتب الكبير سلامة أحمد سلامة والشاعر الكبير فاروق جويده.. وكان أول لقاء لى بالكاتب الأستاذ لبيب

السباعى بعد رئاسته لمؤسسة الأهرام وقبيل نجاحاته اللاحقة بعودة الأستاذ هيكل إلى الأهرام متحدثاً وكاتباً وزائراً.

(2)

لا أقول ذلك الآن من باب استعراض صفحة في مذكرات شخصية، ولا إعادة تقديم لمشروعى في الصحافة والسياسة الذى قارب العشرين عاماً.. ولا هو أيضاً استعراض لمقدمات قرار حكومى جعلنى مسؤولاً ضمن آخرين عن واحد من أخطر وأصعب ملفات بلادنا.. إعادة ماسبيرو إلى واجهة الإعلام العربى من جديد.

(3)

لقد جرى تجريف ماسبيرو على مدى عهد حسنى مبارك.. ففى عهده فقدت مصر الريادة الإعلامية التى تمتعت بها فى عهدى الملكية وثورة يوليو. فى عهد مبارك كان هو ورجاله ينتظرون ما تقوله الفضائيات العربية.. ثم يهددون ويفاضون العواصم المالكة لها.. ثم ينشغلون فى كل سياساتهم وتصريحاتهم بما تبثه هذه الفضائيات. كانت هذه الفضائيات، بدرجة أو بأخرى، تسيطر على جانب من مركز القرار فى مصر.

كان الأمر يشبه المؤامرة على القوة الناعمة فى مصر.. بل إنه فى يقينى كان مؤامرة لكسر مكانة الدولة المصرية فى الداخل والخارج. فى عهد مبارك جرى تمهيد كل الأجواء لتدمير صناعة النوعات لصالح المؤسسات الإعلامية السعودية، وتدمير صناعة الأخبار لصالح المؤسسة الإعلامية القطرية. وتآكلت القوة الناعمة المصرية بين ثلاث قوى عربية، اللوبى السعودى واللوبى القطرى واللوبى اللبنانى.. ولم يعد لبلادنا نفوذ فى ذلك الفضاء الممتد من بغداد إلى الدار البيضاء!

(4)

■ كانت «الفضائية المصرية» هى أول ما رأى العرب باللغة العربية عبر الأقمار الصناعية، لكن سرعان ما تمكن رجل مبارك القوى صفوت الشريف من تدمير الفضائية المصرية عبر هبوط متدرج ومتعمد أدى إلى إفساح الساحة للإعلام السعودى.. من MBC إلى ART إلى أوربت إلى روتانا. وأصبح كل رصيدنا من السينما والدراما والموسيقى والغناء يراه العالم العربى عبر الشاشات السعودية القوية وليس عبر الشاشات المصرية المتهاكة.

■ كانت الفضائية المصرية هي أول ما رأى العرب، لكن قناة الجزيرة كانت أخطر ما رأى العرب. ترك رجال مبارك أفضل العناصر الإخبارية في ماسبيرو حتى يطلقوا قناة الجزيرة في قطر.. لم يتحرك لحظة شعورهم بالحقد أو بالغيرة أو بالندم أو بالرغبة في التصحيح.. لأن أبناء ماسبيرو هم من بنوا وأطلقوا القنوات الإخبارية العربية الكبرى.. لقد بنى أبناء ماسبيرو قناة الجزيرة كما بنوا قناة العربية كما بنوا قناة بي. بي. سي العربية كما بنوا قناة أبو ظبي الإخبارية في زمن صمودها في حربي أفغانستان والعراق.

كانت كل المحطات الإخبارية العربية تتصارع على اسمين بارزين من ماسبيرو تمكنا وحدهما من صياغة عصر الأخبار الرئية في العالم العربي.. حيث أصبح إبراهيم هلال وصلاح نجم هما الإعلاميين الأبرز في كل الفضاء العربي في صناعة الأخبار. كما أن أيمن جاب الله - وهو الثالث من أبناء ماسبيرو - ساهم كثيراً في تجارب إخبارية بارزة.

ولقد اختارت مؤسسة MBC وهيئة الإذاعة البريطانية BBC الإعلامى صلاح نجم وابن ماسبيرو، لكى يطلق قناة العربية من دبي وبي. بي. سي العربية من لندن، كما اختار منتدى دافوس إبراهيم هلال واحداً من أفضل الإعلاميين في العالم.

(5)

لقد تدهورت صناعة الإعلام في ماسبيرو.. وأصبحت الرياض والدوحة هما الحاكمتين في مخاطبة الراى العام العربى.

■ يخطئ الذين يهاجمون أبناء ماسبيرو الآن أو يصفونهم بعدم الكفاءة أو البلادة أو الضعف. ذلك أن أبناء ماسبيرو هم الذين صنعوا القوة الناعمة لبلادنا في الماضى وهم الذين صنعوا القوة الناعمة خارج بلادنا في الحاضر.

■ إن في ماسبيرو أعداء وفيرة من التمييزين واللوهوبين ومن الذين يقتلهم الحب والانتماء لكانهم.. غير أنهم قد عانوا لعقود ممتدة من الإدارة الفاسدة أو الجاهلة.. أو هما معاً. إن ضعف ماسبيرو ليس في أبنائه بل هو في قاداته وإدارته ومسؤوليه. لقد بنى أبناء ماسبيرو الإعلام الخاص في مصر في لمح البصر.. بنى أبناء ماسبيرو قنوات دريم والحياة والمحور و«أو» كما بنوا المكاتب العربية الدولية في القاهرة.

■ إن السؤال الآن: كيف نجح أبناء ماسبيرو في بناء المحطات المصرية الخاصة وكيف

نجح أبناء ماسبيرو في بناء المحطات العربية الكبرى وكيف لم يتمكن أبناء ماسبيرو من النهضة بصناعتهم إلى المستوى الذى برعوا فيه خارج المبنى؟

■ إن الإجابة سهلة للغاية.. إنهم قادة ماسبيرو وليسوا أبناء ماسبيرو.. إن الكوادر واحدة.. ولكن حسن الإدارة في الخارج وسوء الإدارة في الداخل هو ما يفرق بين أدائهم هنا وأدائهم هناك.

(6)

لقد أذهلنى حجم الديون الذى تكبده اتحاد الإذاعة والتليفزيون في مصر.. إنها تصل إلى 13 مليار جنيه.. رغم أن الرواتب رخيصة للغاية والنتائج النهائية لا يلبى طموحات أبناء المبنى.. إذن أين تم إنفاق كل هذه الأموال؟ كيف أنفقنا ثلاثة عشر مليار جنيه ومعظم أبناء ماسبيرو يعانون أوضاعاً مالية سيئة.. كما أن الشاشة في ماسبيرو فقيرة للغاية وبائسة بلا حدود.. أين ذهبت هذه الأموال.. إذا لم تكن قد ظهرت على الشاشة ولا في أوضاع العاملين؟

(7)

لقد قلت في اجتماع رئيس الوزراء إننى أفهم أن تخسر المحطات التليفزيونية في سبيل أداء رسالة وطنية أو فكرية أو أخلاقية.. لكنى لا أفهم أن تكون هناك خسائر دون رسائل.. الأصل في صناعة التليفزيون المكسب.. لكن يمكن الخروج على ذلك الأصل إذا ما كانت هناك رسالة تستحق.. في هذه الحالة يمكن قبول تلك المعادلة، الخسارة مقابل الرسالة..

■ إن المعادلة التى حكمت ماسبيرو في عصر مبارك، خسارة بلا رسالة.. واليوم يشعر أبناء ماسبيرو بأنهم أصبحوا في مرمى النيران.. وأنهم يحاسبون على أخطاء الإدارات المتعاقبة والمسؤولين الفاشلين.

اليوم ينتظر أبناء ماسبيرو الرواتب على نحو غير كريم.. ويجدون سياسة فاشلة أضعفت المبنى في حقبة ما بعد الثورة.

■ كان تركيز عصر مبارك على المبنى لا المعنى.. والخسارة لا الرسالة.. وأخشى، إن بقى ذلك الفكر حاكماً حتى الآن، أن يصل ماسبيرو إلى ما هو أسوأ.. لا مبنى ولا معنى!

عودة الملكية..

أحمد فؤاد الثاني رئيساً لمصر

سالتُ الأميرة الراحلة فريال فاروق، هل كان والدك الملك فاروق يفكر في احتمالات عودة الملكية في مصر؟ هل كان يضع في حساباته أثناء المنفى أن ثمة احتمالاً ولو ضئيلاً بفشل الثورة ورحيل عبدالناصر وعودة الملكية؟.. أجابتني الأميرة، لا اعتقد أبداً أن والدي فكر في هذا الاحتمال.. كان والدي يرى أن الملكية انتهت بلا عودة.. لكنه كان يتمنى أن يعود إلى مصر مواطناً وزائراً.

(1)

■ قلت للأميرة فريال، وهل يرى أخوك الملك أحمد فؤاد الثاني ما كان يراه الملك الأب.. أم أن أحمد فؤاد قد يغامر بطرح نفسه سياسياً في أي تحولات مقبلة في مصر؟

تراجعت الأميرة فريال في مقعدها وقالت في حزن وانكسار، للأسف فإن زواج أخى فؤاد من «دومينيك فرانس» - الملكة فضيلة - قد أنهى كل الاحتمالات.. ليس فقط احتمالات السلطة.. بل حتى احتمالات الكانة الرفيعة في مصر، واستطردت الأميرة فريال، إن زوجة فؤاد يهودية.. وقد تم وضعها في طريق أخى ليتزوجها.. لقد حاولت منع ذلك ولكن «المخطط» كان أكبر منا.. وتزوج أخى منها.. وأنت تعرف أن اليهودى ينتسب للأم اليهودية.. وهكذا نجح «المخططون» في أن تصل وراثة العرش إلى أبناء نصف يهود!

■ قلت للأميرة فريال - وكنا جلوساً في فندق البرنس دوجال في باريس - إن «فضيلة» أسلمت، وذهبت مع زوجها أحمد فؤاد إلى مكة المكرمة.. وأديا مناسك العمرة معاً.. وهى إذن مسلمة وزوجها مسلم وأبناؤها الثلاثة.. محمد على وفوزية لطيفة وفخر الدين من المسلمين.

(2)

■ لم تقتنع الأميرة فريال بما قلت.. وشرحت لى قصة مثيرة بشأن زواج أخيها واحتمالات المؤامرة.. وقالت لى، لا تذكر شيئاً من ذلك وأنا على قيد الحياة.. لكن يمكنك أن تقول كل ما أقوله لك.. بعد وفاتى!

(3)

■ سألت الملكة فضيلة، الزوجة السابقة لأحمد فؤاد، أم أبنائه الثلاثة، وكانت وقتها لاتزال زوجة للملك السابق، هل تظنين أن أحمد فؤاد أو أحد أبنائك يفكر في دور سياسى في مصر إذا ما تغير نظام مبارك؟ كنت لازلل موضع ثقة لدى فضيلة، قبل أن أفقدها لاحقاً إثر توطد علاقتى مع الأميرة فريال.. قالت لى فضيلة، نحن نحترم نظام الرئيس مبارك، ونحن نؤيده، كما أننا لا نريد إثارة حفيظة زوجته السيدة سوزان مبارك، إنها قوية جداً ويمكن أن تسبب لنا متاعب.. ونحن نريد أن نعود تدريجياً إلى مصر، ولكن دون أن يقلق منا أحد.

واصلت فضيلة، إننى أفكر في التجهيز لكتاب يحمل أوراق وأسرار الملك فاروق، كما إننى أنوى كتابة قصة حياتى، ملكة خارج المملكة، وقد تحدثت مع فريدريك ميتران، ابن أخ الرئيس فرانسوا ميتران ووزير الثقافة الفرنسى لاحقاً، بشأن كتاب، أوراق الملك فاروق، وبشأن كتابى.. ولى صديق حائز على الأوسكار.. وأعرفه عن طريق عائلتى في استراسبورج.. وسوف أناقش معه عمل فيلم سينمائى عالى عن حياتى، قصة حياة الملكة فضيلة.. ثم انتهت فضيلة بالقول: إن ذلك كله بمثابة تمهيد الأرض لعودتنا، أحمد فؤاد وأنا والأولاد، إلى مصر.. والقيام بدور!

(4)

■ رحلت الأميرة الرائعة فريال فاروق.. واكتمل طلاق فؤاد وفضيلة بعد عشر سنوات من الصراع في محاكم سويسرا وفرنسا.. وجاءت فوزية إلى القاهرة في ضيافة عائلة الوزير السابق أحمد المغربى، ثم غادرت!

■ والآن.. يعود أحمد فؤاد إلى مصر بعد ثورة أسقطت الرئيس الرابع.. في نظام الثورة التى أسقطت عائلته ووالده!

(5)

■ عرفت من بعض الأصدقاء أن هناك من يدفع، أحمد فؤاد، للعب دور في السياسة

المصرية.. وقد بدأ هؤلاء - حسب معلومات وصلتني مؤخراً، قد تكون صحيحة - في دفع أحمد فؤاد للزواج من مصرية وإعادة تقديمه كوريث للعرش.. وجمع شتات العائلات الأرستقراطية وبعض قطاعات الليبراليين.. من أجل مشروع سياسى سوف يأخذ شعار الملكية الدستورية في مصر... ويتمنى هؤلاء أن يسود النظام البرلماني في مصر من أجل تسهيل مهامهم في طرح الملكية الدستورية..

■ وقد انتشرت على «فيس بوك» صفحات عديدة تدعو لهذا الطرح.. وعلى الرغم من أنها لا تضم أعداداً مؤثرة.. ولا حتى لافتة للانتباه غير أن تعددها واستمرارها يؤكدان أن ثمة مئات أو آلاف يفكرون في ذلك أو يخططون له.

ان عناوين بعض الصفحات كالتالى: 1- نطالب بعودة الملك أحمد فؤاد لعرش مصر. 2- عودة الملكية وجلالة الملك المعظم أحمد فؤاد الثانى. 3- عودة الملكية الدستورية إلى مصر. 4- حملة لدعم الملك أحمد فؤاد رئيساً لمصر. 5- معاً لترشيح أحمد فؤاد رئيساً للجمهورية. 6- الدعوة إلى عودة الملك أحمد فؤاد إلى مصر المحروسة. 7- عودة الملك أحمد فؤاد ملك مصر الشرعى. 8- نريد عودة الملك أحمد فؤاد. 9- معاً لعودة الملك. 10- معاً لاختيار أحمد فؤاد رئيساً.

■ ثمة صفحات أخرى على الطريق نفسه.. وباللغة الإنجليزية توجد صفحة تحمل فكرة مثيرة، أحمد فؤاد ملكاً وعمرو موسى رئيساً للحكومة،!

■ وقد بدأت الهمهمات تزيد بشأن الدور السياسى لأحمد فؤاد.. وقد نشرت صحيفة «الأخبار» المصرية تحقيقاً بعنوان: «هل يترشح أحمد فؤاد رئيساً للجمهورية؟».

(6)

■ سوف يجد الكثيرون في ذلك أمراً بعيداً للغاية.. وربما يجدون فيه شططاً يفوق الخيال ويبتعد كثيراً عن السياسة والتاريخ. وتقديرى أن ذلك - من حيث بعده وقربه - فهو بعيد تماماً ومستحيل تماماً. ولكنه من حيث التاريخ والسياسة يمثل امتداداً لمحاولات عديدة في دول متعددة.

■ حين سقط حكم الديكتاتور شاوشيسكو في رومانيا عام 1989 بدأ البعض يطرح اسم الملك الرومانى «ميشيل» الذى أطيح به عام 1945.

■ وحين عاد ملك بلغاريا السابق «سيميون» إلى بلاده بعد سقوط الشيوعية لقي محاولات لدفعه للحياة العامة رغم فقدان العرش عام 1945.

■ ولا سقط الديكتاتور اليوغوسلافي سلوبودان ميلوسيفيتش جرى الاحتفاء بولى عهد يوغوسلافيا السابق ألكسندر ديفيتش.

■ وفى أفغانستان بعد سقوط طالبان جرى التفكير في عودة الملك ظافر شاه إلى السلطة.. وفى العراق بعد سقوط نظام صدام حسين كانت بريطانيا تدفع لعودة الملكية إلى العراق.. وقد التقيتُ في أبوظبي «الشريف على بن حسين» في تلك الأثناء.. وقال لى إنه قادم ملكاً على العراق!

■ ويتحدث البعض في ليبيا الآن عن عودة الأسرة المالكة السنوسية.. كما أن خصوم النظام الإيراني يناورون دوماً باحتمالات دور لابن الشاه رضا بهلوى!

(7)

لا يمكن إذن أن نتجاهل النماذج السابقة.. لكن المؤكد تماماً أن هذه النماذج جميعها قد فشلت.. ولم يحدث - على الإطلاق - أن عاد ملك إلى ملكه.. أو قبل الشعب عودته إلى مكان بارز.

■ إن التاريخ أصبح عدواً للنظم الملكية.. وإن النظم الجمهورية لا تقبل شعوبها أبداً بالعودة إلى الوراء.. وفى مصر لا أظن أحداً من العقلاء يمكنه أن يكون جاداً في دعم الملك أحمد فؤاد.. وريثاً أو رئيساً.. ليس فقط لما قالت له الأميرة فريال بشأن الزوجة والأبناء.. ولكن أيضاً لأن فؤاد في حد ذاته.. لا يملك المؤهلات للقيام بأى دور في الحياة السياسية. لقد خرجت أسرة محمد على باشا من السياسة ولن تعود.. ولا ينبغي أن تعود. وسوف تبقى مكانتها في التاريخ بقدر ما قدم ملوكها.. من قادة عظام مثل محمد على وإبراهيم باشا والخديو إسماعيل.. إلى قادة أقل.. إلى مليك خائن وعميل كالخديو توفيق.

■ إننى أدعو ملك مصر السابق أحمد فؤاد الثانى.. وهو يحمل من الخصال الطيبة والسمات الرقيقة الكثير والكثير.. ثم إنه يحمل لوطنه الحب والتقدير، ولا يحمل حقداً على ما واجهته العائلة في مصر أو في النفى.. إننى أدعوه للعودة مواطناً صالحاً له كل الاعتبار والتقدير.. أما أن يكون أداة في أيدي منتفعين وباحثي شهرة ودور.. فسوف يطيح ذلك بصورة أحمد فؤاد كما نعرفها.. ثم إنه لن يصل إلى شيء كما يتوهم المنتفعون.

■ إن مصر وهى تمضى من الثورة إلى الدولة.. لا تحتل عواصف غبار تعوق البصر عن معالم الطريق.

مصر.. البحث عن نظرية سياسية جديدة

مضت مصر في العقود الأخيرة دون نظرية سياسية.. كان الأداء أقرب إلى العمل باليومية، لم يكن وارداً أى حديث جاد عن الاستراتيجية.. وفى أحيان كثيرة لم يكن ممكناً إنجاز عمل تكتيكى بالكفاءة اللازمة.

سمعت من أحد سفرائنا في الخليج قصة موجهة. كانت الولايات المتحدة الأمريكية تزيد وجودها العسكرى في منطقة الخليج.. وثمة حديث دائم عن سيناريوهات قادمة في المنطقة.. هناك من يتحدث عن نهاية الدولة العراقية المعاصرة.. وهناك من يتحدث عن حقبة مستجدة من الصراع المذهبى بين السنة والشيعة. وهناك من يتحدث عن تمدد امبراطور شيعى من وسط آسيا إلى إيران إلى العراق إلى البحرين إلى شرق السعودية.. وعن تحالف مع سوريا وتنسيق مع حزب الله وحركة حماس. وهناك من يتحدث عن صعود للنزعة الإسلامية في تركيا أو صعود مضاد للنزعة الأتاتوركية.. وهناك من يزيد إلى احتمالات انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبى أو احتمالات انسحابها من حلف شمال الأطلسى.

كان سفيرنا حائراً للغاية.. ما النظرية التى تحكم السياسة المصرية وسط هذه التقلبات العاصفة؟ وما خريطة الطريق للدبلوماسية المصرية تجاه الدول والقوى والمذاهب والطوائف.. المتشابكة؟

سأل سفيرنا وزير خارجيتنا حين التقاه في إحدى المناسبات الاجتماعية، سيادة الوزير.. ما رؤية الدولة في مصر للخرائط السياسية الجديدة؟ وما تعليمات القاهرة.. بشأن هذه

الأطراف المتعددة في هذه الخرائط؟

■ كانت صدمة سفيرنا فوق الاحتمال. تجاوز وزير خارجيتنا شرح السفير وتسؤولاته.. وقال، سيادة السفير، كم بقى لكم في بعثتكم الحالية؟ قال السفير، بقى لى هناك ثلاثة أعوام. قال الوزير، هبى مدة جيدة لكى تجمع بعض الأموال وتستمتع بالماكولات الهندية المنتشرة في الخليج.. لا تشغل بالك بأكثر من ذلك حتى تعود!

كان من المعتاد أن يقول الدبلوماسيون والباحثون السياسيون، إن ملف ليبيا والسعودية مع صفوت الشريف وإن ملف كذا وكذا مع المخابرات، وإن ملف كذا وكذا اخذه جهاز أمن الدولة من المخابرات.. كما أن ملف كذا أصبح مع مكتب جمال مبارك.. ولم تبق لوزارة الخارجية إلا الملفات الأقل سخونة!

واذكر أننى قابلت عدداً من سفرائنا في عواصم عديدة.. وكنت أجد فيهم الإلمام المتميز بملفاتهم.. من علاقات نافذة إلى صداقات مؤثرة.. ومن معرفة سياسية واقتصادية رفيعة إلى تصور دقيق لما ينبغى أن تكون عليه العلاقات بين البلدين. لكن سرعان ما يبدأ سفراؤنا الشكوى من أن كل ما يأتى إليهم من القاهرة مرتبك وضعيف وأنه في حالات كثيرة.. تاتى تعليمات القاهرة خاطئة تماماً.. وبعيدة عن أى طموح وطنى أو منطق سياسى.

كانت كل الأيدى تعبث في سياستنا الخارجية.. من موظفى الرئاسة إلى الأجهزة الأمنية إلى رجال الأعمال إلى الوزراء والصحفيين.. وفوقهم جميعاً عائلة الرئيس والعائلات القريبة والصديقة.

لقد أدى ذلك كله إلى أن يتحول الكثير من سفاراتنا إلى مكاتب تشهيلات... وأصبحت مهام عدد من دبلوماسيينا مرافقة المسؤولين إلى المراكز التجارية والترفيهية واصطحابهم في المحطات والمطارات.. أصبح جزء كبير من المدرسة الدبلوماسية المصرية العريقة مجرد مكاتب للعلاقات العامة والاستقبال!

كان من المعتاد أيضاً أن يبذل الدبلوماسيون المصريون جهوداً جلية في مفاوضات

ثنائية أو متعددة.. ثم يجهدون الأطراف المفاوضة إلى الحد الأقصى من أجل المصلحة الوطنية المصرية.

ثم إذا بهم يفاجأون بتلك الأطراف تقول لهم: إننا لا نحتاج إلى أن نمضى معكم في هذه المفاوضات الشاقة.. إننا سنرفع سماعة الهاتف إلى بلادكم.. ونحن نعرف جيداً ما الأرقام التي نطلبها في القاهرة.. ومتأكدون تماماً أننا سنضع معهم السماعة ليرن الهاتف عندكم، حاملاً الأوامر من القاهرة بما نريد!

كانت الملفات الاقتصادية هي الأخرى تمضى في هذا السياق، لم تعرف مصر السابقة جهوداً كبيرة في دبلوماسية المال.. في حين أن مصر خضعت كثيراً لدبلوماسية المال الأجنبي.. وقد تابع المصريون رئيسهم السابق وهو يسافر إلى كل بلاد العالم في أوقات متقاربة دون عائد سياسى أو اقتصادى. كان مبارك يتصرف كسائح معجب بما يزور.. لذا يتردد على المكان نفسه باستمرار وانتظام.

وقد كسر مبارك بنظريته الفريدة، الرئيس السائح، كل التقاليد والأعراف، كان مبارك يزور العاصمة الواحدة مرات عديدة دون أن يأتى رئيسها إلى القاهرة مرة واحدة، وكان رجال مبارك يروجون لهذه الزيارات باعتبارها رؤى جديدة في السياسة العالمية.

تمكن قادة أوروبا وآسيا من احتلال مساحات نفوذ كبيرة في مصر، وكانت كل زيارة للرئيس السابق إلى بلدانهم تعود بالمزيد من النفوذ لهم!

■ كان قادة الخارج جاهزين في كل مرة لأن يوافق مبارك على شيء.. شركات للأسمدة أو الأسمنت أو شراء شركات حكومية بثمن بخس.. أو إعفاءات ضريبية أو مد مرافق من حساب الميزانية المصرية.. أو الحصول على مساحات شاسعة للأراضى بأسعار تعادل شراء سيارة حديثة!

■ ذهب رجال مبارك يتحدثون طويلاً عن كثير من هذه الصفقات، غير الوطنية، باعتبارها فتوحات استثمارية.

أما رجال الأعمال المصريون المرافقون للرئيس في بعض رحلاته.. فقد كان معظمهم يعود بعقود توكيلات لمصانع وشركات الدول الأجنبية.. وكان القليلون جداً هم من يتمكنون من إبرام عقود للتصدير وبلدورهم كان الصحفيون والإعلاميون المرافقون

للرئيس يعتبرون غاية نجاحهم وارتياحهم.. هو إمكانية مصافحة الرئيس أو الفوز بمداخلة أو مشاغبة. ولم يكن هؤلاء من العلم والإخلاص بما يجعلهم كاشفين لحجم الادعاء والفشل في زيارات الرئيس.

لقد هبطت مصر بهبوط الرئيس والرئاسة.. وانتهت بلادنا على هزيمة بلا حرب... اقتصاد ضعيف لم يصمد في أي أزمة، وسياسة ضعيفة أنزلت مصر من مكانتها كقائدة للإقليم وصانعة لجزء من سياسة العالم إلى دولة محدودة.. تراجع جدول أعمالها من إدارة الصراع مع واشنطن إلى إدارة الصراع مع قناة الجزيرة!

القذافي مفكراً.. غروب العقل

كان القذافي يتحدث إلى الشعب في النيجر، وفجأة ترك سياق الحديث ثم قال للجمهور، لماذا نتحدثون اللغة الفرنسية، والرسول صلى الله عليه وسلم، والصحابة لم يكونوا يعرفون اللغة الفرنسية؟

وفي إحدى السنوات ألغى القذافي الأعوام الأربعة الأولى من التعليم الابتدائي، وقرر الاكتفاء في تلك المرحلة العمرية بالتعليم في المنزل.. وفي سنة أخرى قرر إلغاء تدريس اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية في الجامعات.. لأن دراسة طلاب الجامعة لهاتين اللغتين تمثل عملاً غير ثوري، والثوري الحقيقي هو الذي لا يدرس اللغات الأجنبية.. وقد قام الطلاب الثوريون في جامعة الفاتح بإغلاق قسمي اللغة الفرنسية والإنجليزية في الجامعة، وأحرقوا عدداً من المراجع والكتب باللغتين.

لكن القذافي سرعان ما قرر تدريس اللغة الروسية في جميع المراحل الدراسية بعد إلغاء اللغة الإنجليزية!

- 1 -

لقد أسهم اللاعقل عند معمر القذافي في ركود الحياة الفكرية والثقافية في البلاد، ولم يتمكن المثقفون ولا الرأي العام في ليبيا من ضيافة أي مشروع فكري، حيث لم يكن هناك سوى المشروع الفكري العالمي للقذافي.

وقد أدى عدم استقرار الديكتاتور الهارب على رأي واحد.. خطأ كان أو صواباً.. وكذلك الجو القمعي للجان الثورية.. إلى تحول الفكر السياسي الليبي طيلة أربعين عاماً إلى متفرقات من أقوال القذافي!!

ففي مرة يفتي القذافي بعدم أحقية المسلمين في البوسنة والهرسك، وبأن الأديب البريطاني الأشهر، وليم شكسبير، هو مواطن ليبي اسمه «الشيخ زبير»، ومرة يقرر نقل العاصمة

من طرابلس إلى رأس لانوف مسقط رأسه في خليج سرت، لأنه لم يرض عن موقف سكان العاصمة الذين لم يثوروا ضد الغارة الأمريكية على منزله عام 1986!

ومرة يطلق نظرية عن «الراهابات الثوريات» التي تقول إن الرجل العربى مهزوم ولا يشرف أى فتاة أن تكون زوجة له، لذا على الفتاة العربية رفض الزواج والتفرغ للرهبنة الثورية، والراهة الثورية لا تتزوج، وهدفها استفزاز الرجال العرب الخانعين ليعودوا لسلاحهم ونضالهم، وشعارها «لا أتزوج مهزوماً لأنجب مهزومين».

ومرة يقول «التعليم تدجيل.. والتعليم الإلزامى تدجيل إلزامى... ومرة يهدد «ساحرق كل الكتب المضللة، سأشن ثورة على المكتبات والجامعات والمناهج الدراسية وعلى أى شئ مكتوب!!!»

ومرة يحرق الآلات الموسيقية والمصنفات الغربية. وفى أحد الأيام فوجئ مشاهدو التليفزيون الليبى بصورة حذاء تعرض الشاشة عدة أيام، وعلموا أن ذلك الحذاء الموضوع فوق الشاشة بسبب استياء القذافى من عدم تحقيق الوعى الثورى غايته!!

ومرة أصدر الفريق الغنائى «فرسان القذافى» أسطوانة بعنوان «العالم الثالث.. الطريق الثالث» نسبة إلى نظرية القذافى، وقالت صحيفة إنجليزية «من الواجب نقل أعضاء الفريق إلى مستشفى أو احتجازهم بإحدى المصحات العقلية!!!»

ومرة يقول «تلقوا الواحد منهم يقول الدعوة ولنا الإخوان.. هذا تقطعوا له رقبتة وتلوحوه فى الشارع.. الآن نستطيع أن نعدم أى أحد، ما نخجل أبداً، نأتى به فى التليفزيون أمام العالم، نحضر جميع صحفى العالم وأتركهم يتفرجون عليه.. نعدم حتى الأبرياء بقصد إرهاب الجانى الحقيقى الذى قد لا يكون معروفاً فى تلك اللحظة».

ومرة يقوم بافتتاح المؤتمر التأسيسى الأول لمقاومة الاستسلام والتطبيع مع العدو الصهيونى، وقبل أن ينتهى المؤتمر يقرر طرد آلاف الفلسطينيين من ليبيا إلى لهيب الصحراء فى انتظار المغادرة!!

ومرة يقرر تخصيص ثلاثين رأس ماشية لكل صاحب غنم بعد أن تبين أن أصحاب العقارات الذين قام القذافى بتأميمهم قد اتجهوا لشراء آلاف الماشية.. ومرة يوجه نداء إلى جميع المنوعين من السفر ليجتمعوا أمام إدارة الجوازات للتظاهر ضد قرارات المنع!!

ومرة يقول للجان حقوق الإنسان الغربية ليس لدينا معتقلون سياسيون، وأنا لا أعرف من الذى أدخل هؤلاء إلى السجون.. ينبغي أن يخرجوا.. وأن يحاكم الذين أدخلوهم!!

-2-

لقد عرضت تحليلاً مطولاً في كتابي «حقوق الإنسان في ليبيا.. حدود التغيير، الذى صدر عن مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان عام 1999 - للانهيال الفكرى والثقافى فى ليبيا بسبب استحواد الفكر الأواحد والفيلسوف الأول معمر القذافى على كل شىء.

ويصف المعارض الليبى «السنوسى بلالة، حالة العقل فى ليبيا فى عصر القذافى قائلاً، إن القذافى عمل طيلة عهده من أجل ترسيخ فكرة أنه هو شخصياً وفقط مصدر الإشعاع الوحيد للفكر والثقافة فى ليبيا، وسعى لإقناع الجماهير بذلك.. سواء بالإرهاب الذى ألم بالثقفين أو المبدعين، أو بالقمع الذى أحاط بالثقافة ووسائلها داخل البلاد عموماً، مما أدى إلى تردى وبؤس الواقع الثقافى واضمحلال مستواه على الجوانب كافة.

ولقد أتاح ذلك للقذافى فرص الظهور كبديل فكرى وثقافى وحيد، بعد إهالة التراب على إبداعات الأدباء الراحلين، خليفة التكبالى، ويوسف الدنسى، وغيرهما، وتوقف «الثقافة العربية»، المجلة الثقافية الوحيدة فى ليبيا، عن الصدور ليسطع نجم الكاتب والأديب معمر القذافى!

-3-

إن الفكر السياسى بل عموم التفكير فى ليبيا قد أصابه الكساد طيلة عهد القذافى، فالكتب والدراسات ومراكز البحث والجامعات والمعاهد والسينما والمسرح والتليفزيون والقصة والرواية والقصيدة.. كلها دخلت فى طور السكون!

وطيلة عهد القذافى لم يكن ممكناً سماع شىء عن فيلم أو مسرحية أو مطرب أو شاعر أو باحث ليبى له صيت خارج بلاده!

-4-

يروى الأستاذ محمد حسنين هيكل فى «المقالات اليابانية، أن وفداً ليبياً أمره القذافى بشراء قنبلة نووية من الصين بعد قيام الثورة الليبية عام 1969، وقد طلب الوفد أثناء مروره بالقاهرة لقاء الرئيس عبدالناصر ليطلععه على الموقف، فضحك عبدالناصر وقال: «هى

القنبلة النووية في سوبر ماركت؟!

وبعد ثلث قرن قرر القذافي طواعية ان يسلم محاولاته من اجل الحصول على القنبلة النووية الى مسؤولى المخابرات المركزية الأمريكية!

اقام القذافي فكرة الجماهيرية على الاشتراكية التامة، ثم قام لاحقاً بتعيين شكرى غانم رئيساً للوزراء وأعلن عن خصصته المصانع والنفط والبنوك والمطارات والشركات العامة.. أى كل شىء تقريباً!!

اقام القذافي نظامه السياسى على العادة الظاهرية الشديدة للولايات المتحدة، وكان يتهم النظام الملكى السابق بالتبعية لأمريكا والغرب.

ثم فتح القذافي كل أبواب ليبيا للولايات المتحدة وأوروبا في أخطر المجالات، وقال سيف الإسلام معمر القذافي في حوار لصحيفة «صنداي تايمز»: «لن تمنع ليبيا في ان تقوم قوات بريطانية أو أمريكية بعمل تدريبات عسكرية على أرض ليبيا»، وأعلن القذافي عن قرار ليبيا بحل مشكلة لوكيربي كما يريد الغرب، وكذلك تسليم كل مشروعها لإنتاج اسلحة الدمار الشامل إلى أمريكا، قائلاً: «سوف نحول سيوفنا إلى مناجل!»

كان القذافي يتحدث دوماً عن العروبة والقومية العربية والناصرية كمشروع أساسى لبلاده.. ولكنه طلب عدة مرات انسحاب بلاده من عضوية الجامعة العربية.. وشرح القذافي الابن «سيف الإسلام» التحولات الليبية التى سمحت بوجود عسكري أمريكى وبريطانى في ليبيا بقوله: «بمجرد ان أكد لى الأمريكيون والبريطانيون أنه لا توجد لديهم نية في تغيير نظام القذافي.. فإن كل شىء سار بسلاسة!!»

- 5 -

لقد كان عهد القذافي أربعة عقود كاملة من غياب العقل.. وفي تقديرى انه من المستحيل «يقيناً» ان يكون القذافي وهو بهذا المستوى العقلى قد تمكن من حكم ليبيا أكثر من أربعين عاماً.. بقدراته وإمكاناته وأطروحاته، شىء واحد يفسر بقاء القذافي رغم قوة المعارضة.. كل هذه السنوات.. كان القذافي عميلاً متميزاً لدى وكالة الاستخبارات الأمريكية «سى. آى. إيه».

خريف القذافي

تشرفت بتحرير مذكرات الفريق سعد الدين الشاذلي قبل أعوام قليلة.. تقع المذكرات، التي لم تُنشر بعد، في سبعمائة وأربعة صفحة، تشمل حياة ورؤى الفريق الشاذلي منذ نشأته في قرية شبراتنا مركز بسيون محافظة الغربية، مروراً بالحروب المصرية والعربية، ووصولاً إلى ما بعد سقوط بغداد وتحولات العالم العربي.

كان على أن أجلس ساعات طويلة فاقت المائتي ساعة من أجل إنجاز تلك المذكرات.. وكانت هذه الجلسات تسمح بالحديث في قضايا متنوعة كان بعضها خارج السلاح والسياسة.. لكن معظمها كان في شأن الحرب والسلام.

(1)

ذات صباح.. كان الفريق الشاذلي يتحدث عن الرئيس الليبي معمر القذافي، وكان الفريق معتدلاً في طرحه بشأن العقيد وجماهيريته، ولكنني لم أكن على نفس القدر من الاعتدال.. وفاجأت الفريق الشاذلي بقولي، سيادة الفريق.. إن القذافي عميل أمريكي، ولا يمكن لنا بناء سياسة خارجية ولا نظرية للأمن القومي دون أن تكون إحدى فرضياتها أن القذافي رجل الولايات المتحدة. إنه لا يمكن للمرء أن يتصور - تحت أي مستوى عقلي - أن رجلاً كالقذافي يمكنه أن يحكم بلاده لعقود متصلة دون أن يكون واجهة لقوة أكبر وأخطر.

كان رد الفريق الشاذلي مفاجئاً للغاية.. قال، إن هذه الفرضية كانت هي الحاكمة لتفكير الدولة المصرية تجاه القذافي طيلة عصر السادات. واعتدل الشاذلي على مقعده وقال: لست أوافق على هذه الفرضية، وأراها تجنب إلى المبالغة، وربما اعتمدت على غرابة أطوار القذافي أكثر مما اعتمدت على حقائق ووثائق.

نشر هذا المقال في 14 مارس عام 2011 قبل سقوط ورحيل القذافي.

وواصل الشاذلي، ولكن الرئيس السادات والمشير أحمد إسماعيل وممدوح سالم وآخرين كانوا يرون القذافي رجل واشتطن.

(2)

إننى واحد ممن يرون أن القذافي هو رجل الغرب وأنه لم يكن يوماً صادقاً في ادعاءاته القومية العربية، وأنه ربما كان يمثل «الطابور الخامس» داخل الجامعة العربية وفى قلب الجماعة العربية. وقد نجح القذافي في أن يحرم مصر من الانتعاش الاقتصادى على إثر الوفرة النفطية الليبية، كما أنه كان يستخدم المصريين العاملين في ليبيا كورقة ضغط دائمة على القاهرة لا كرؤية عروبية وإيمان حقيقى بأى تكامل عربى، وكثيراً ما كان القذافي يخلق الحدود ويفتح الحدود ويأخذ قوارب الصيد ثم يفرج عن قوارب الصيد، ويعتقل ويحاكم آلاف المصريين.. في إطار عدائى بحث لا علاقة له بأى مقولات تخص الوحدة العربية والآمال العربية.. نجح القذافي في أن يخطف صورة الرئيس جمال عبدالناصر لتكون غطاء لكل ما يخالف فكر ورسالة جمال عبدالناصر.

(3)

كان الأجدر - في تقديري - أن تقوم مصر بقلب نظام الحكم في ليبيا وإسقاط القذافي منذ سنوات طويلة. إن ليبيا امتداد مصر، وشعبها امتداد لجزء من شعبنا، ومناخ ليبيا معتدل وجاذب، وصحراؤها تملك جمالاً خاصاً وأسراً، وساحلها الشمالى هو امتداد ساحلنا الشمالى، واللهجة الليبية متصلة باللهجة موطنينا في الشمال الغربى لمصر، وثمة اتصال تاريخى منذ عهد الفراعنة بامتدادنا الجيوستراتيجى في ليبيا، ثم إن قيام دولة العدو الإسرائيلى عند الشمال الشرقى لمصر قد ضاعف من أهمية الاتصال الشمالى الغربى عند ليبيا، وقد كان بإمكان الثروة الضخمة التى امتلكها شعبنا في ليبيا أن تمثل مشروع مارشال عربياً لدعم الاقتصاد المصرى بعد حروب إسرائيل، كان يمكن لهذه الثروة أن تكون دافعة للاستثمار وجاذبة للعمالة وقائدة لمنطقة اقتصادية متميزة تشمل بلدنا معاً.

لكن القذافي كان حائط الصد الأكبر ضد تلك الأحلام العربية. أظهر القذافي لشعبه أن مصر تطمح في نفط ليبيا، وأن المصريين إذا تمكنوا سيأخذون آبار النفط لهم ويتركون الليبيين بلا ثروة! وقد ظهر ذلك تماماً في تصريحات سيف الإسلام القذافي أثناء الثورة الليبية 2011 كى يخلق الخوف لدى الشعب الليبى من أشقائهم المصريين.

(4)

إن القذافي الذى حرم مصر من استثمار ثروة عربية لصالح شعبينا.. زاد إلى ما هو أسوأ.. حيث كان القذافي وسيف القذافي وراء انقلاب دول حوض النيل على مصر.. تجاوز القذافي مرحلة الدفاع، إلى الهجوم.. وبدلاً من أن يكون الحوار حول كيفية خلق «بينولوكس» عربى بين مصر وليبيا والسودان.. دفع القذافي ومعه الولايات المتحدة وإسرائيل الحوار إلى إعادة النظر في مياه النيل.. وكان القذافي هو من نبه ودفع لقادة وساسة أفارقة من أجل رفع شعار «قطرة الماء تساوى قطرة نفط»

■ ويروى دبلوماسيون نافذون كيف أن القذافي قال لعدد من قادة حوض النيل إنكم تروننا أغنياء، لأننا نملك النفط.. وتنسون أنكم أيضاً أغنياء لأنكم تملكون الماء.. وقد حان الوقت لكى تبيعوا المياه لمصر كما نبيع نحن النفط للغرب.

وقد سمعت من مسؤولين مصريين أن الأجهزة المصرية كانت تعرف ذلك جيداً.. لكن السلطة السياسية في عهد مبارك التزمت الصمت!

■ لقد كان دور القذافي لصالح الغرب في تلك الأثناء قوياً للغاية.. أدى خلاله مهمتين جليلتين.. الأولى ضد باكستان حين كان «الصيدة» التى أوقعت شبكة العالم النووى الباكستانى «عبدالقدير خان» والمهمة الثانية أنه لعب دوراً كبيراً في رشوة ودفع قادة إثيوبيا ودول حوض النيل من أجل إلغاء الاتفاقية وحرمان مصر من جانب مياه النيل، على أن تأخذها مصر بمنطق البيع والشراء!

(5)

لم يكن عصر حسنى مبارك بالزم من الجاد في السياسة الخارجية أو حماية الأمن القومى.. وفى عهده كان دور بلادنا الخارجى أقرب إلى العلاقات العامة.. مساحات رخوة من التلطيف الإقليمى والدولى.. كانت كل دولة هى «الشقيقة والصديقة» وكل رئيس هو «أخى وشقيقى العزيز فخامة الرئيس»!

ولو كان مبارك قائداً جاداً، ولو كانت إدارته إدارة وطنية.. واعية وقادرة لتغير وضع بلادنا تماماً.

■ إن عصر مبارك لم يشهد حرباً ولا اشتباكاً.. ولم يواجه تحديات داخلية ولا

خارجية صادمة.. ولو أننا امتلكنها في الثلاثين عاماً الماضية قيادة غير مبارك لتغير وجه المنطقة إلى الأفضل.

كان مبارك أوفر حظاً من عبدالناصر والسادات، وكان الإقليم المحيط بالعالم المعاصر أكثر ملاءمة لممارسة الدور والمكانة بما يليق، لكن مبارك الذي انهزم في السودان وانهزم في فلسطين وانهزم في العراق.. وانهزم في ليبيا.. ترك بلادنا وقد امتلكت كل ركائز الضعف.. لكننا الآن لدينا فرصة عظيمة للعودة من جديد، لكن أولى خطوات العودة.. إسقاط نظام القذافي.

يمكننا الآن أن نسقط زمن «العلاقات العامة، لنشهد زمن «عودة الدبلوماسية».

الأسطول السادس

قابلت الرئيس معمر القذافي ذات خريف قبل سنوات، كنت ضمن وفد مصرى ذهب للمشاركة في احتفالات ثورية. وكان الراحل النبيل الدكتور محمد السيد سعيد قد كلفنى بعمل بحث عن حقوق الإنسان في ليبيا، وقد نشرته لاحقاً في كتاب صدر لى عن مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان. أثناء إعداد البحث جاءتنى دعوة ليبيا وكنت اعرف أنى لن ادخلها بعد نشر البحث.. ومن ثم فإن هذه الدعوة هى فرصتى الأولى والأخيرة.

■ ■ كنت أفكر طيلة الوقت.. من هو القذافي هل يمكن لرجل بهذا المستوى أن يحكم دولة واسعة مثل ليبيا؟.. إن القذافي يبدو شخصاً غير طبيعى.. وهو يتحدث كثيراً ولا يقول شيئاً.. وهو يقدم حالة استعراضية من الكلام، قذافي شو، أكثر مما يقدم خطاباً سياسياً مسؤولاً أو موزوناً.. من يكون هذا الرجل؟.

إننى أتذكر الآن ذلك التعبير الأخاذ الذى صاغه الرئيس الكوبى فيدل كاسترو عن الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن، كل ما أخشاه أن يكون هذا الرجل بالغباء الذى يبدو عليه،!

(1)

أقمنا في «الفندق الكبير» في العاصمة طرابلس على شاطئ البحر المتوسط، وحين تجولت على كورنيش طرابلس.. كانت صدمتى كبيرة في حالة الفقر الشديد الذى يعانيه عدد كبير من الليبيين هنا ليس بالخليج العربى، لا مظاهر للثراء ولا أثر للنفط.. وقد استقبلت في ساعة واحدة عشرات المتسولين الليبيين الذين يطلبون الصدقات والإحسان!

كان ينبغى أن يكون الشعب الليبى أغنى شعوب العالم، إنه يملك أكبر ثروة على عدد قليل من السكان في دولة ساحلية سياحية معتدلة المناخ والبشر.. كان ينبغى أن تكون

ليبيا سويسرا العالم العربى حتى لو لم يفعل الشعب أى شىء غير الإنفاق والاستمتاع.

كان دخل ليبيا من البترول عام 1980 يزيد على العشرين مليار دولار.. استقبلت ليبيا في أكبر ثروة استقبلها شعب على مدى ثلاث قرن، لكن نجاح القذافى كان مذهلاً في تبيد أكبر ثروة في التاريخ!

ضاعت وعود القذافى بتقسيم عائدات النفط وحلت محلها طوابير المتسولين امام الجمعيات التعاونية.. وكلما بدأت ملامح طبقة وسطى او ملامح طبقة من القادرين كان القذافى يدعهم حتى يصلوا إلى قرابة أهليافهم.. ثم يسحقهم ليعودوا إلى الصفر من جديد! وفى عام 1996، أعلن القذافى عن عمليات التطهير، القى القبض على رجال الأعمال وأصحاب المحال والعقارات والصانع، وأقام لذلك الهدف ألفاً ومائتى لجنة تطهير وإحدى وثمانين محكمة عسكرية!

(2)

غادرت العاصمة طرابلس إلى مدينة سرت حزينا على ما رأيت، وفى مطار سرت تضاعف ذلك الحزن.. دخلت إلى صالون الاستقبال من أجل بعض الراحة وبعض الشاى.. وكان الفيلسوف الفرنسى الشهير روجيه جارودى قد سبقنى إلى الشاى وإلى الجلوس.. كان من حظى أنى قضيت الوقت مستمعاً إلى جارودى.

كان جارودى يتحدث إلىى بإنجليزية سهلة عن السياسة السياسيين.. ولقد صدمنى رأى جارودى فى القذافى.. قال لى: «إن القذافى سياسى ومفكر.. وهو صاحب رسالة صعبة في زمن صعب، لم تكن ملامح جارودى بالصدق الكافى وهو يمتدح معمر القذافى، وقد قابلت جارودى مرة ثانية في طريق العودة إلى مطار سرت وكان جارودى لا يزال على موقفه.. وقد عرفت فيما بعد أن الفيلسوف الفرنسى الكبير كان يتقاضى أموالاً من القذافى.

(3)

قابلنا الرئيس القذافى في خيمة فاخرة.. ولو كانت الخيام كالفنادق تقاس بالذبحر.. لقلت إن خيمة القذافى مائة نجمة.. ولكن القذافى بدأ حديثه بالقول: إننى قائد بسيط أعيش في خيمة متقشفة!

كانت تلك العبارة هى افتتاحية خطاب عبثى امتد ثلاث ساعات لم يكن هناك رابط

واحد بين كل ما يقول إلا «العبث.. وبينما يواصل القذافي نوباته الكلامية.. توقف فجأة ثم قال: لماذا أنتم هنا؟.. ماذا تفعلون في هذه الخيمة؟.. إن العدو أمامكم فلماذا لا تواجهونه؟.. لماذا جئتم بالطائرة من القاهرة إلى تونس ولماذا دخلتم إلى طرابلس عن طريق البر؟.. الشائر الحقيقي لا يخاف.. عليكم أن تكسروا الحظر الجوي علينا.. الآن بعد أن تخرجوا من الخيمة عليكم أن تركبوا الطائرة من سرت إلى القاهرة.. وأن تواجهوا الأسطول السادس الأمريكى.. ماذا سيحدث لكم؟.. لا شيء.. سيضربكم الطيران الأمريكى.. ستموتون.. نعم سوف تموتون، ولكنكم ستموتون أبطالاً.. بدلاً من أن تعيشوا خائفين من أمريكا!

(4)

لا يؤمن القذافي بقيمة الحياة إلا حياته هو وحياة أبنائه.. الموت للشعب من أجل أن يعيش القائد.. بل الموت للوطن من أجل أن يحيا الزعيم.. إن أول ما يفكر فيه القذافي تجاه أى رأى مخالف هو الموت.

لا يعرف القذافي أى تدرج في الخلاف أو العقاب.. وحين تولى السلطة في عام 1969 أصدر قانوناً بإعدام كل من تعتقد السلطة أنه يقاوم الثورة، وفى عام 1972 أصدر قانون «تحریم الحزبية، والذي يقضى بإعدام كل من يشكل حزباً سياسياً، ثم أصدر قانوناً بإعدام كل من يخالف سعر الصرف السائد، ثم كان «قانون تعزيز الحرية... والذي يقضى بإعدام كل من تشكل حياته خطراً على المجتمع!

كان القذافي مجرماً في تنفيذ تلك الأحكام.. وكان يتوسع فيها بلا خوف أو رادع.. وفى عام 1984 أمر القذافي بإعدام طالبين أمام زملائهما.. الأول في فناء كلية الزراعة والثانى في فناء كلية الصيدلة.. ولما تظاهر الطلاب أطلق عليهم الرصاص، وفى عام 1996 أطلق الأمن الليبى النار على الجمهور الذى حضر مباراة لكرة القدم بين فريقى الأهلي والاتحاد بعد أن ردد الجمهور هتافات سياسية.. وكانت نتيجة المباراة مقتل خمسين وإصابة خمسمائة!

(5)

أصبحت ليبيا جماهيرية بلا جماهير.. ودولة بلا رموز.. لا أغنياء ولا أقوياء ولا ساسة ولا مفكرون ولا نجوم.. تم إطفاء ليبيا بكاملها من أجل يضىء معمر القذافي.

ولقد نشر القذافي حالة من «السفة الفكرى».. مزيج من خرافات حول المؤتمرات الشعبية واللجان الثورية والقائد الملهم.. يرى القذافي في نفسه زعيماً أكبر من بلاده، وكان يرى نفسه جديراً بحكم مصر.. ومنها يحكم العالم العربى.. ثم إنه رأى نفسه جديراً بحكم أفريقيا، فأعلن نفسه ملكاً على ملوكها.. ثم إنه رأى نفسه أميراً للمؤمنين، فكان يخطب الجمعة ويؤم الصلاة.. وزعيماً للصوفية العالية.. ثم إنه زاد في تثمين قدراته الدينية فراح ينافس بيت النبوة ذاته.. فألغى السنة النبوية والتقويم الهجرى واتهم عبدالمطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم، بالعمالة لأبرهة الحبشى!

■ ■ دارت السنوات اثنين وأربعين عاماً.. كان القذافي في أولها يتحدث عن الثورة والثوار وعن مناهضة أمريكا والغرب.. ثم مضت السنون.. ليخرج جميع أعضاء مجلس قيادة الثورة الأحد عشر من السلطة ومن الحياة.. ثم ها هو القذافي يواصل جدول أعماله.. «قتل الشعب في بنغازى وطرابلس ومصراته ورأس لانوف».. وكل مكان.. ثم ها هو يأتى بالقوات الأمريكية والبريطانية والفرنسية إلى بلاده من جديد.

■ ■ اثنان وأربعون عاماً.. لا ثروة ولا حرية ولا استقلال.. عاش القائد الأول ليعيش الأسطول السادس!

كونفيدرالية جديدة.. مصر وليبيا والسودان

إننى واحد ممن يؤمنون بالتوسع الخارجى والأحلام الإمبراطورية، وأعتقد، جازماً، أن عدداً من أزمات الداخل تكمن حلولها الوحيدة في الخارج. ولو أننى عشت قبل قرن من الآن لكنت من دعاة الإمبريالية المصرية، أى التوسع الاستعماري لبلادنا في الخارج، غير أن مستجدات السياسة وتحولات التاريخ قد فرضت علينا حماية حدودنا كحد أقصى.

■ الآن.. وقد فتحت ثورة 25 يناير 2011 أبواب التاريخ.. يمكنها أيضاً أن تفتح أبواب الجغرافيا.. يمكن لبلادنا أن تتجه ذات الغرب وذات الجنوب.. من أجل إنشاء كونفيدرالية جديدة تشمل القاهرة وطرابلس والخرطوم.

■ هذه دعوتنا.. وهذا مشروعنا وهذا بالإمكان.

(1)

■ زرت ليبيا قبل أعوام، واستمعت إلى الرئيس القذافي وإلى سيف الإسلام القذافي.. وقابلت عدداً من أفراد اللجان الثورية واللجان الشعبية وعدداً وفيراً من معجبي الكتاب الأخضر!

■ ولقد قابلت نخبة من المثقفين الليبيين في المنفى على مدى سنوات فائتة وكان الحزن والألم يلف الجميع جراء ما فعله القذافي بالمال والانسان ذلك أن القذافي أهدر أكبر ثروة أتاحت لشعب في كل العصور. وبينما كان ينبغي أن يرفل الليبيون في مليارات النفط التي لا تنقطع، كان الليبيون يعانون - مثل باقي شعوب العالم الثالث - مدناً فقيرة وبائسة.. وخدمات ضعيفة وفاشلة.. وإمكانات ضحلة لا تليق ببلد غنى.. فكل ما فعله القذافي لشعبه

هو ضمان التدفق الرخيص للسلع التموينية. ولا يتجاوز عطاء القذافي لشعبه نطاق الأكل والشرب... كأنه يتعامل مع ضيوف مؤقتين.. ما عليه إلا أن يكرم وفادتهم بالطعام حتى يرحلوا!

(2)

إن ليبيا بلد رائع ومهم. وقد ألغى القذافي روعته وأهميته.. وأصبحت الصورة الذهنية لليبيا في العالم أنه «بلد غريب الأطوار... إن مساحة ليبيا تصل إلى مليون وثلاثة أرباع المليون كيلو متر مربع.. ويصل طول ساحلها على البحر المتوسط إلى (2000) كم.. وبذا يصبح الساحل الشمالى، في ليبيا هو أطول ساحل شمالى وجنوبى على امتداد البحر المتوسط أوروبا وعربيا، وفى ليبيا واحدة من أبداع وأجمل الصحارى في العالم.. وهى الأكثر جذبا لسياحة السفارى.. وفى ليبيا أكبر حجم وقيمة للآثار الرومانية خارج إيطاليا.. وتنتشر فيها المدن التاريخية السياحية البحرية في آن واحد.. وفى ليبيا أيضا مرتفعات للثلوج.. حيث تسقط الثلوج على مرتفعات الجبل الأخضر.. وفى فصل الشتاء تكون مدينة البيضاء - وهى من المدن الليبية المهمة.. مكسوة بالثلج مثل مدن أوروبا الباردة.. مع جمال عربى خاص وأسر.

■ وتحت الطبيعة الساحرة يقبع احتياطي ضخمة من البترول والغاز.. حيث يصل احتياطي النفط الليبي المؤكد إلى أكثر من (40) مليار برميل، ويصل احتياطي الغاز المؤكد إلى (50) تريليون قدم. وتصدر ليبيا من النفط سنويا ما قيمته (40) مليار دولار.

(3)

لم يكن ممكنا الإفادة المشتركة من الثروة والخصوصية الليبية.. ذلك أن القذافي حرم الليبيين منها قبل أن يحرم الآخرين.. كما لم يكن ممكنا التعاون الاقتصادي الجاد في ظل حاكم كالقذافي في ليبيا ومبارك في مصر. ولم يكن ممكنا كذلك أن يقوم القطاع الخاص المصرى والأفراد الوهوبون بالانطلاق في ليبيا للمساهمة في الازدهار والتنمية المشتركة.. ذلك أن القذافي يحكم بلدا بقوانين، لا قضاء ولا محاكم ولا حقوق ولا التزامات.. ولا دولة!

■ إن شعبنا الليبي، يمكنه أن يتوجه إلينا.. وعلينا أيضا أن نتوجه إليه.. وإننا لسنا حيرانا فحسب، بل إن لنا وجودا مشتركا في غرب مصر وشرق ليبيا.. ذلك أن العائلات والقبائل عند حدودنا الغربية مختلطة ومتوافقة. وللأسف الشديد.. فإن عصر مبارك والذي

أدى إلى الضعف المزرى للدولة المصرية، قد فتح الباب لخراقات القذافي وجولات أحمد قذاف الدم التى ظهر منها أن المصريين من أصل لىبى.. من أجل زعامة موهومة للمديكتاتور القذافى..

وتركت سُلطاتنا للقذافى ساحة واسعة للعبث فى الفيوم والبحيرة والإسكندرية ومطروح وغيرها.. والآن حان وقت التصحيح.. ذلك أن الحياة المشتركة لشعبينا فى غرب مصر وشرق ليبيا لا يمكن الجنوح بها إلى هذا الشطط القذافى.. وكل ما هو مؤكد ومناسب أن المصريين الذين أطلقوا على غرب بلادهم اسم «ليبيا» يجدونها ذات مكانة خاصة عندهم.. وأن الليبيين الذين تعاملوا كمصريين فراعنة وشاركوا فى الحكم لبعض الوقت يجدون مصر ذات مكانة خاصة لديهم.

■ لقد حان الوقت إذن لأن تدخل ليبيا مع مصر وشمال السودان فى كونفيدرالية واحدة.

(4)

لقد زرت السودان قبل أعوام والتقيت علدا من ساستها ومثقفينا.. وأقابل فى القاهرة وعواصم عديدة أشقاءنا السودانين دون انقطاع. إن السودان موجود فى مصر كأننا فى اتحاد حقيقى.. ومصر موجودة فى السودان بالفكر والثقافة والفنون والمجتمع وإن كانت غائبة بالسياسة والتأثير.. إننا لن نبذل جهدا فى إقامة كونفيدرالية مع السودان.. ذلك أننا قضينا عقودا عديدة فى دولة واحدة. كما أن ملايين السودانين يعيشون فى مصر وآلاف المصريين يعيشون فى السودان دون ضجيج.

إن انفصال شمال السودان عن جنوبه - رغم الأسى - يمكن الإفادة منه.. يمكننا التحالف مع شمال السودان بعيدا عن ملف الجنوب والتكاليف العسكرية والأخلاقية للحرب الأهلية..

■ لقد خسر شمال السودان - بانفصال الجنوب - أغلب موارده من النفط.. كما أنه خسر مساحات واسعة من الأراضى الزراعية والثروة الحيوانية ثم إنه فقد ربع سكانه.. وأصبح عدد السكان (30) مليونا بعد انفصال عشرة ملايين فى دولة الجنوب.. ثم إنه قد يواجه خسائر نفطية أكبر فيما لو قررت حكومة جنوب السودان أن تستغنى عن ميناء بورسودان فى التصدير واعتمدت ميناء مومباسا فى كينيا.. ويواجه شمال السودان معضلات

في دارفور وفي الشرق لكن السودان الشمالى، رغم ذلك كله، لا يزال قويا وغنيا. من المياه إلى الأرض إلى الذهب.. والسودان في احتياج إلينا كما أننا بحاجة إليه..

(5)

هذه مقدمة عامة فى الدعوة إلى تأسيس كونفيدرالية تشمل ثلاث دول: مصر حيث البشر والسودان حيث الأرض وليبيا حيث النفط.. إنها شركة عالية لا مثيل لها.. لن نذهب إلى السودان لنأخذ الأرض ونرحل أو نذهب إلى ليبيا لنعبئ النفط ونمضى، بل نذهب إلى هناك ويأتون هم إلى هنا من أجل إنجاز أمل شعوبنا في الرخاء.

■ ■ إن فرص تأسيس هذه الكونفيدرالية كبيرة للغاية.. بعد أن غادر مبارك والقذافى.. وبعد أن تنضبط أصوات القوضى في السودان..

■ ■ الكونفيدرالية هى الحل.

القابلية للاستعمار.. مالك بن نبي

« لو طلبت منى فرنسا أن أقول لا إله إلا الله.. ما قلتها »

الشيخ عبد الحميد بن باديس

■ يرى الفيلسوف الجزائري مالك بن نبي أن الحضارة الإسلامية قد استقالت من التاريخ بعد زوال دولة الموحدين في المغرب، فبعدها دخل المجتمع الإسلامي في العدم، فيما كانت الحضارة المسيحية تنطلق إثر الحروب الصليبية، وأول لقاء بين الحضارتين كان حوالي 1858م، حيث استعمر الغرب الهند والجزائر.

■ جاء لقاء الحضارتين الغربية والإسلامية كاشفاً لهوة شاسعة ومقارنة محبطة.. فننادى بن نبي، بإيجاد علم جديد يبحث في ذلك، سماه «علم اجتماع الشعوب التي لا تزال خارج إطار الحضارة المعاصرة».

■ يرجع مالك بن نبي أساس تدهور المسلمين حضارياً بعد زوال دولة الموحدين إلى الفردية والأنانية اللتين صبغتاه الروح الإسلامية.

يقول بن نبي، في كتابه «الصراع الفكري في البلاد المستعمرة»، إن التخلف الذي حصل سببه روح الفردية وحلول نظرية الجزء، فقامت الدويلات واستعر القتال وحصل الانحطاط والسقوط..»

(1)

إن ما يراه مالك بن نبي هو أن هناك مشكلة داخلية في العالم الإسلامي، بغض النظر عن المشكلات والضغطات والمؤامرات الخارجية، أي أنه حتى لو استبعدنا وجود وتوحش الاستعمار للدول العربية والإسلامية فإن العطب والخلل الداخلي هو كافٍ وحده بتأخر

المسلمين وتخلف بلادهم.

وقد وضع الفيلسوف الجزائري «مالك بن نبي» في ذلك نظريته الشهيرة «القابلية للاستعمار... يقول في كتابه «الصراع الفكري» «إن الاستعمار قد جاء إلى العالم الإسلامي نتيجة مرض أساسي عندنا، هو القابلية للاستعمار.. وهو نتيجة الصراع الفكري الذي خطط له الاستعمار وأحسن إحكام الخطة.. لقد سلب الاستعمار الأضواء على المشكلات الهامشية، بينما ترك في الظلام كل رؤية منهجية سليمة.. تفتح الطريق أمام حركة التاريخ.»

■ وقتها كانت اليمن تستقل عن بريطانيا وكانت إندونيسيا تستقل عن هولندا.. ولكن مالك بن نبي كان يرى ذلك الاستقلال استقلالاً ضعيفاً.. ذلك أن هذه الدول لم تسيطر بعد على شؤونها وتحقق التقدم، وهو ما يجعل إمكانية عودة الاستعمار واردة من جديد، إن الاستقلال لا يعنى شيئاً في ميدان التقدم طالما ظلت الأرض صالحة لإعادة الكرة مرة أخرى.»

(2)

* امتداداً لفكرته في نقد الحفاوة بالهوامش لا بالجواهر يعيب «بن نبي» على المدرسة الاستعمارية إسهامها في ذلك من خلال وسائلها التربوية للقادمين من العالم الإسلامي إلى الغرب، فالطالب يسافر إلى أوروبا وهدفه الوحيد اللغة أو الحرفة لا اكتشاف الثقافة.. لم تهتم المدرسة الاستعمارية بنشر عناصر الثقافة الأوروبية اهتماماً يعادل حرصها على توزيع نفاياتها التي تحيل المستعمر عبداً للاقتصاد الأوروبي.. ويدلل «بن نبي» في كتابه «وجهة العالم الإسلامي» يقول: «الطالب الذي يعيش في باريس لا يرى المرأة التي تجمع العشب للأرناب.. وإنما يرى التي تصبغ أظافرها وشعرها وتدخن في المقاهي والندوات.. وهو لا يرى الصانع والفنان منكبين على عملهما ليحققا فكرة على صفحة المادة.»

والحل في رأى «بن نبي» هو التغيير الاجتماعي والإصلاح الفكري الذي يرفع من كفاءة الإنسان المتخلف، وحيث إن الطفل يمر في حياته بعالم الأشياء والأشخاص والأفكار تباعاً، فإن المجتمعات المتخلفة تمر بالراحل ذاتها، والعالم الإسلامي بقي بالنسبة للحضارة الغربية في عالم الأشياء والأشخاص.. ولقد تعاون التخلف والاستعمار على وقف تطوره إلى عالم الأفكار.

(3)

يلخص مالك بن نبي في كتابه «بين الرشاد والتهيه» رؤيته للحل يقول: «يجب تصفية

الاستعمار فى العقول قبل كل شىء، فتصفية الاستعمار من العقول تتطلب أشياء كثيرة يتضمنها مفهوم الثقافة ومفهوم الحضارة، فهى لا تتحقق إذن بمجرد انسحاب جيوش الاستعمار، ومجرد إعلان الاستقلال وتحرير دستور..»

■ يعقب الفكر محمد الميلى على نظرية «بن نبى» فى القابلية للاستعمار، بأن فكر الفيلسوف الجزائرى كان مرشحاً لأن يؤدى دوراً معتبراً فى مرحلة ما بعد الاستقلال، لكن نظريته هذه لم تفهم كما يجب، فالاتجاه الذى كان سائداً منذ حروب الاحتلال هو تحميل كل المسؤولية للاستعمار. ولعل أحد القلائل الذين فهموا فكرة مالك بن نبى هو الرئيس التونسى الحبيب بورقيبة الذى لا يحمل كل المسؤولية للاستعمار. وقد عمل «بورقيبة» بسياسة المراحل.. أى التخلص من الاستعمار بالتدرج فى الوعى والمسؤولية.. وهى سياسة تتوافق مع فكر «بن نبى» فى القابلية للاستعمار. فالنظرية تسجل مسؤولية البلد المتخلف.. من أجل دفعه إلى اكتساب التقنيات التى مكنت البلد الأجنبى من استعمارنا.

(4)

أتذكر اليوم الفيلسوف الجزائرى الكبير مالك بن نبى على أثر التحولات العارية فى العالم العربى.. ثمة محاولة جماهيرية جسورة تحاول فيها شعوبنا أن تمضى إلى الجزء الثانى من الاستقلال.. كان الجزء الأول فى حركات التحرير الوطنى ضد الاستعمار الخارجى.. والآن يبدأ «عصر الاستقلال الثانى».. حركات التحرير الوطنى ضد الاستعمار الداخلى. فى «عصر الاستقلال الأول» كان الهدف خروج الاحتلال الأجنبى من البلاد، وفى «عصر الاستقلال الثانى» كان الهدف خروج الديكتاتورية العميلة من السلطة أو تصفية بقايا الاستعمار.. الذين يجمعهم بالاستعمار الأجنبى إطار واحد.. لا حرية ولا كرامة ولا تقدم ولا عدالة.. ذلك الإطار الذى قاد فى الحالتين إلى تخلف العالم العربى والإسلامى.. مرة بأيدى الآخرين ومرة بأيدى الفاسدين.

■ لقد تأملت كثيراً ما كتبه الفيلسوف الجزائرى مالك بن نبى الذى تألق مشروعه الفكرى فى الخمسينيات والستينيات.. وقد كتبت فصلاً كاملاً عنه فى كتابى «خريف الثورة».. صعود وهبوط العالم العربى.. وقد عدت إليه الآن لأننا نمضى إلى مرحلة الاستقلال الثانى.. وكنا قد فشلنا فى عصر الاستقلال الأول.. فلم تسفر ثوراتنا الوطنية ضد الاستعمار عن دولة متقدمة يمكنها أن تمنع الكرة من جديد، بل إن الديكتاتورية العربية قد

قادت إلى عودة الاستعمار إلى منطقتنا من جديد.. أدى حزب البعث الثورى فى العراق إلى احتلال بغداد.. وتهتك الدولة.. والوجود الأمريكى البريطانى الإيرانى على حساب الدولة والشعب فى العراق.. خرج الإنجليز فى عصر الاستقلال الأول ليعودوا من جديد بصحبة الجيش الأمريكى وبعد مليون قتيل وخمسة ملايين لاجئ وشبه حرب مذهبية بين المسلمين والمسلمين! وإن الثورة اليمنية التى قادت فى بلادها عصر الاستقلال الأول لا تريد أن تغادر الآن إلا وقد انتهت الدولة إلى دولتين أو ثلاث أو خمس دول يمنية!

(5)

إن حزب البعث السورى الذى ملأ العالم العربى ملايين الخطب حول الكرامة والاستقلال.. يجد نفسه الآن فى حرب مع الشعب بعد أن انقطع الرصاص عن إسرائيل أربعين عاماً!

وأما الفوضى الثورية التى خلقها معمر القذافى فى عام 1969 وخطبه التى لا تنقطع فى مواجهة الاستعمار والاستكبار.. فلن تترك ليبيا الآن إلا بعد عشرات الآلاف من جثث الشعب.. وبعد الغزو البرى لقوات الناتو.. وبعد أن تتأكد من تقسيم الدولة إلى دولتين أو ثلاثا..

يؤدى القذافى اليوم المهمة الأعظم للاستعمار.. الوجود البرى وامتلاك النفط وبدء حرب استنزاف مصرية على الحدود مع ليبيا. يريد القذافى الآن أن تنهار ليبيا ولا تصعد مصر.. وأن يعود الزمن الكلاسيكى للاستعمار من جديد.

(6)

وفى مصر الآن بدايات جهد جديد لصالح الاستعمار.. هناك من يقومون نيابة عن إسرائيل والغرب بالتمهيد لحرب متقطعة بين المسلمين والمسيحيين.. وبين المسلمين والمسلمين. فى مصر الآن ينمو ملوك الطوائف من جديد.. أفكار من خارج العصر وأهداف من خارج الوطن وآفاق ضد التاريخ.

■ لا يحتاج الغرب أن يأتى إلينا الآن.. فبعض الجهلاء فىنا ينفذ ما يريد بأفضل وأسرع مما يستطيع.. وإذا كان هدف الغرب إرباك مصر، فإن هدف الجهلاء « إسقاط مصر... لا نحتاج الآن إلى استعمار جديد، ذلك أن العملاء الجدد يضاعفون "القابلية للاستعمار".

عن الطفافة والغزاة.. لقاء مع الأمير الحسن

كانت هذه هى المرة الثانية التى التقى فيها الأمير الحسن بن طلال فى العاصمة الأردنية عمان. التقيت الأمير للمرة الأولى فى منزل السفير المصرى فى الأردن عمرو أبو العطا.. كان ذلك فى عشاء أقامه سفيرنا على شرف كبير العلماء العرب الدكتور أحمد زويل.

لم تكن المعرفة الواسعة للأمير الحسن وما يحمل من ثقافة عربية إسلامية رفيعة تمثل لى أدنى مفاجأة.. ذلك أننى تابعت الكثير من مقالاته وأحاديثه.. كما أن استاذى "السيد ياسين" و"حسن نافعة" ممن عملوا مع الأمير فى منتدى الفكر العربى لطالما تحدثا عن مناقب الحسن وعن ثقافته الرصينة.

لكن ما كان يمثل مفاجأة لى.. تلك البساطة وخفة الظل اللتان يحظى بهما الأمير.. إنها بساطة نادرة فى عامة الناس فكيف بها عند الأمير الهاشمى الذى تحتل عائلته جانباً كبيراً من تاريخ العرب المعاصر.

(2)

التقيت الأمير الحسن هذه المرة فى منزله فى حى القصور الملكية فى عمان، تقابلنا وتحدثنا على مدى يومين.. ودارت النقاشات فى حديقة القصر التى تتألق بهاء.. بتخطيطها الدقيق وأشجارها النادرة، وقد عرفت من الأمير الحسن أن هذه الحديقة قد شهدت قبل وصولى بأسبوع واحد حفل زفاف ابنه الأمير راشد بن الحسن بن طلال.

كانت الحديقة مزدهمة قبل أسبوع بالعائلات المالكة العربية والأوروبية، قبل أن تزدهم هذه المرة بكاميرات برنامج «الطبعة الأولى» وبأصدقاء الأمير الذين حولوا الحديقة إلى

(3)

فى الطريق إلى قصر الأمير الحسن مررت بقبر الملك حسين، ويبعد قبر الملك حسين عن قصر الأمير الحسن مسافة دقيقتين.. ولكن المسافة النفسية بين الحسن والحسين أقل من ذلك بكثير. ذلك أن الأمير مولع بالملك.. الأخ مبهور بأخيه.. ورغم أن الانتقادات التى تلاحق الملك حسين عديدة وثقيلة.. غير أن الأمير الحسن لا يسلم بشيء من ذلك.. إلى الحد الذى وجدته ينتصر للعائلة حين تشتبك مع التاريخ.

إن الأمير الحسن يحظى بنسب رفيع.. لكن النسب الرفيع ظل ملاحقاً سياسياً لسنوات عديدة.. ولا تزال صورة ملوك عائلته ليست بالجاذبية التى يتمناها الأمير.

فالأمير الحسن ابن ملك وشقيق ملك وعم ملك وحفيد ملك وسليل العائلة الأكثر قداسة في العالم الإسلامى.

لكن شقيقه الملك حسين ووالده الملك طلال وجده الملك عبدالله الأول وجده الملك فيصل الأول ووالد جده الشريف حسين بن على جميعهم نالوا الكثير من نقد السياسيين والمؤرخين.

قال لى الأمير حسن إنه يملك إيضاحات وافية وردوداً شافية على مجمل النقد السياسى للعائلة.

(4)

تحدثت مع الأمير الحسن بن طلال في قضايا عديدة.. لكن واحدة منها ظلت تدور في ذهني حتى اللحظة.. قال لى الأمير، إن معضلة العالم العربى الكبرى تدور في ثلاث كلمات، الطغاة والغزاة والغلاة.. الطغيان الذى يحكم.. والغزو الذى قد ينهى الطغيان لكنه يبدأ الاحتلال.. والتطرف الذى يقضى على الناعة الوطنية والحضارية للأمة. المجتمع يحكمه الغلاة، والسلطة يحكمها الطغاة. وفي صراع المجتمع مع الطغاة والغزاة.. تكون الفرصة سانحة لأن يحكم الغلاة!

(5)

إن حكم الطغاة يدفع الناس للبحث عن أى مخرج والسعى إلى أى حليف.. يشعر الناس

بأنهم إزاء احتلال داخلي.. وهو ما يتوجب معه إدارة معركة الحرية على أنها معركة عسكرية، تجري فيها الحسابات بمنطق نفعي تام.. عدو عدوى هو صديقي.. والتحالف مع الأجنبي في مواجهة الحكم الديكتاتوري الوطني هو عمل وطني لا حرج فيه.

كان المناضلون ضد صدام حسين يدفعون أمريكا دفعاً إلى التدخل العسكري في العراق، وكان المناضلون ضد القذافي يدفعون الناتو دفعاً إلى التدخل العسكري في ليبيا.

لقد كان مشهد الثورة الليبية 2011 يحمل تلك المفارقة بجلاء.. ذلك أن الطاغية معمر القذافي كان يقتل الشعب الليبي بلا توقف، وكان وقف القتل وهزيمة القذافي رهناً بتحالف الثوار مع الناتو.

كانت الوطنية تقتضي ألا يستعين الثوار بالغزاة ضد الطغاة، وكان بقاء الشعب ونجاح الثورة يقتضي تقديم البراجماتية السياسية على المثالية الوطنية

(6)

كان السؤال الذي طرحته قبل سنوات في كتابي «خريف الثورة، ما الذي يعنيه الوطن إذا تم إلغاء المواطن؟ وكان السؤال يبحث فيما أجمله لي الأمير الحسن في محنة الاختيار بين الطغاة والغزاة والغلاة.

وأذكر أنني كنت موجوداً في غرفة الأخبار في قناة أبو ظبي حين قصفت قوات التحالف الأمريكي- البريطاني بغداد في أول مساء للحرب الأمريكية على العراق. كانت بغداد تحترق، وكانت الصور الحية التي ينقلها مراسلو القناة تبدو أقرب إلى فنون الجرافيك والألعاب النارية أكثر منها إلى واقع مروع يلخص كلمة الحرب، في تلك الأثناء قهرنا دموعنا وأمسكنا بقلوبنا كالقابضين على الجمر، لأن بغداد تغادر تاريخها أمام عيوننا.

(7)

نظرت في وجوه زملائنا العراقيين باحثاً عما يقال في عزاء الحروب، وكانت المفاجأة أن أحداً من العراقيين لا ينتظر اللواسة، بل إنهم كانوا يتابعون الحرب طيلة أيامها المريرة وهم ينتظرون الهزيمة بفارغ الصبر، وحين لم يخذلهم صدام حسين طويلاً، وأدى في ساحة القتال أداء يليق بما كان عليه في ساحة السياسة.. عاراً وراء عار، راح العراقيون يهنئون أنفسهم في كل مكان، وحدث في بعض مدن الخليج أن عراقيين خرجوا يوم التاسع من أبريل

عام 2003- يوم سقوط بغداد- إلى الفنادق والنوادي الليلية يبحثون عن أمريكي أو بريطاني ليتوجهوا إليه بالشكر!

وقد قال لي أيمن جاب الله، رئيس قناة الجزيرة مباشر، وكان وقت الحرب رئيساً لتحرير قناة العربية، وكبير مراسليها في بغداد، وكان ذلك أثناء وقائع الحرب: "لم يخطئ الأمريكيون حين قالوا إن العراقيين سيقابلوننا بالزهور، فالعراقيون يشعرون فعلاً بامتنان كبير للولايات المتحدة وقد وجدت العراقيين على وجه العموم مؤيدين لواشنطن."

وقد غلب شعورهم بالتخلص من صدام على شعورهم بوجود الاحتلال. وبالطبع فإن هناك أقلية ضد الولايات المتحدة، لكنها تظل أقلية إلى جوار التيار العام الذي يرى أن صدام حسين كان جهنم، الحقيقية وأن الاحتلال ليس إلا "مستصغر الشرر". كان حديث أيمن جاب الله معي أثناء الحرب وقد تغيرت ملاحظاته فيما بعد.

(8)

لقد دفع الاستبداد الناس لإعادة النظر في كل شيء، فما رآه المصريون عدواناً أمريكياً على العراق، رآه معظم العراقيين عوناً أمريكياً للعراق، وما رآه المتظاهرون شرقاً وغرباً سقوطاً لبغداد رآه العراقيون سقوطاً لصدام!

وما اعتبره العالم العربي في التاسع من أبريل 2003 يوماً للنكبة حيث تمت هزيمة العراق، رآه أول مجلس للحكم في العراق يوم العيد الوطني، حيث عاد العراق إلى العراقيين بعد عقود من الاختطاف.

■ وحين نقلت ذلك إلى الفيلسوف المصري د.حسن حنفي.. عارضاً تلك الأفكار حول بؤس الاستبداد الذي جعل المواطن عدواً للدولة- فلما جاء أحد من الخارج يقاتل الدولة، وجد المواطن فيه سنداً ومعيناً.. وحتى لو كان القادم عدواً.. فإنها حرب الأعداء.. فليهلك كل الظالمين بالظالمين- قال لي د.حسن حنفي.. إن ذلك يخلط الأمور خلطاً كبيراً، ويذهب تماماً بقيمة الوطنية والوطن. مثل هذا الشعور أو السلوك.. أي التحالف مع عدو خارجي، للقضاء على عدو داخلي، هو خيانة واضحة لا جدال فيها.. ولا يجوز للخيانة أن تكون وجهة نظراً

(9)

قابلت الشريف علي بن الحسين الذي كان يخطط ليكون ملكاً على العراق بعد رحيل

نظام صدام، جادلت الشريف على بن الحسين فيما سمعته من الدكتور حسن حنفى.. واجهنى معترضاً، لم يكن أمامنا شيء. لم يكن بإمكاننا أبداً إسقاط صدام من الداخل لقد فعلنا ذلك طويلاً وفشلنا، وكنا سنفشل لو بقينا، كان صدام سيورث السلطة لابنه.. ديكتاتور آخر.. باختصار.. لسنا خونة ولا عملاء، ولكننا حاولنا الثورة ضد الظلم وفشلنا، وجاء من يساعد قضيتنا ويعيد إلينا الوطن وينهى حياة للنفى والسجون للملايين العراقيين، هل نقول لهم: لا.. ابقوا مكانكم واتركونا نقاتل الديكتاتور حتى آخر عراقي عندنا!

■ وهكذا اختلف السياسى والفيلسوف من رؤية بسقوط بغداد، إلى رؤية بسقوط صدام.. ومن رؤية بقدسية الوطن إلى رؤية بقدسية للواطن.. والواقع أن السؤال خطأ.. ومن محنة الأقدار أن تطرح أمة على نفسها هذا السؤال.

(10)

لقد تذكرت ذلك كله على أثر الثلاثية التى طرحها الأمير الحسن.. محنة الطفلة، ومحنة الغزاة، ومحنة الغلاة. ولا شك أن مستقبل أمتنا رهن بالحن الثلاث.. انتصار أى منها هزيمة لمستقبلنا.. وهزيمتها جميعاً انتصار لوجودنا وانتصار لرسالتنا.. الحرية والوسطية والاستقلال.

الفصل الرابع

المؤرخون الجدد في مصر

المؤرخون الجدد في مصر

قالت لي الفنانة فاتن حمامة كلاماً كثيراً وخطيراً حول مصر التي كانت ومصر التي أصبحت. تحدثت عن الوفد والنحاس وعن الثورة وعبد الناصر وعن زمن الانكسار وزمن الانتصار.

وفاجأتني السيدة فاتن بآراء صادمة وصادقة، وقد نشرت جانباً من ذلك اللقاء الطويل في ست عشرة صفحة ضمن دورية «أحوال مصرية» التي يصدرها مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.

وقد أعاد الأديب يوسف القعيد نشر أجزاء من ذلك الحوار في صحيفة «الحياة» اللندنية، أما الأستاذ إبراهيم عيسى فقد قال لي إنه أعاد نشره في سبع صحف صُودرت في المطابع.. قبل أن تصدر الدستور.

قبل ذلك الحين وأنا أفكر في تأسيس تيار فكري جديد.. الاسم، المؤرخون الجدد، والهدف إعادة النظر، والغاية، الوطن ولا شيء غير الوطن، وهنا البداية.

قامت ثورة يوليو عام 1952 وانتهت عام 1954، أو أنها قامت عام 1952 وانتهت عام 1956.. أو أنها لا تزال قائمة حتي الآن. لقد عانت ثورة يوليو وعهد الرؤساء نجيب وعبد الناصر والسادات إلي الواجهة من جديد، وبعد أن كانت الإشادة بإنجازات الثورة أو الحفر في مخلفاتها حصراً في الفئات المثقفة، بات العوام من جملة من يعيدون النظر فيما مضى وفات.

لقد أصدرت المكتبات المصرية في الآونة الأخيرة كتباً تذكارية وأخرى فكرية عن الملك فاروق والرئيس عبد الناصر والرئيس السادات، وقد سألت عن خريطة التوزيع لهذه الكتب، وفوجئت بأن كتب «الملك فاروق» يزيد توزيعها علي أضعاف كتب الرئيسين،

وان كتب الرئيس السادات تتفوق علي كتب الرئيس عبدالناصر، وهو عكس التوقعات تماماً، إذ حظيت الثورة وقادتها باحترام كبير لعقود طويلة، وأهيل التراب علي الملك فاروق حتي لم يبق ظاهراً منه إلا أحاديث الغواني وحساء الحمام، كما لاقى الرئيس السادات هجوماً صحفياً واسعاً من قوي اليسار التي طالته في كل شيء.

الحاصل إذن أننا إزاء موجة واسعة لإعادة النظر، إعادة النظر في الثورة ذاتها، وفي كل رجالها، في المبادئ والأهداف، في الفكرة والحركة.. في كل الطريق الطويل الذي يعتقد أنصار الثورة أنه أعاد مصر إلي التاريخ، ويعتقد معارضوها أنه أخرج مصر من التاريخ.

ربما يكون مهماً في هذا المقام، أن نوجه الدعوة لعموم المؤرخين والمفكرين والصحفيين.. إلي الراضين وإلي الساخطين.. إلي الذين شهدوا أو الذين سمعوا أو الذين قرأوا، أن نبداً حركة فكرية شاملة عمادها إعادة النظر.

لقد فعلتها إسرائيل في موجة «المؤرخين الجدد»، وهم جماعة من العنيين بالتاريخ والسياسة في الحركة الصهيونية الذين أعادوا النظر في تاريخ الصهيونية وتاريخ إسرائيل، وقالوا كلاماً كبيراً وكثيراً.. أحسب أن ظاهره الرحمة وباطنه العذاب، وقد أشرت إلي ذلك تفصيلاً في كتابي «ما بعد إسرائيل».

ليكن شأن إسرائيل والحركة الصهيونية ما يكون، أما شأننا نحن فهو أحوج ما يكون إلي المراجعة، إلي حركة «المؤرخين الجدد في مصر»، إلي طرح الأسئلة في كل شيء، دون رغبة في التخوين أو التشفي أو الإحباط أو التسلية، بل الغاية هي الإفادة من طريق طويل.. أزعم أنه كان يحمل من الخطأ أكثر مما يحمل من الصواب.

لقد ساد مثلاً أن عهد ما قبل الثورة هو عهد الملك فاروق، وجري اختصار مصر كلها فيما قبل 1952 في ملذات الملك ومغامرات القصر، وهو تقييم قاصر، إذ أنه لا يمثل إقلاً من شأن الملك وخطأ من قدر القصر، بقدر ما يمثل إقلاً من شأن الوطن وخطأ من شأن مصر.

لقد كان ذلك الزمان يشهد دولة مصرية متميزة، نخبة رفيعة وشعباً عظيماً، أسماء شاهقة في كل مكان.. عاصمة تفوق باريس، وفناً وعلماً وأدباً وفكراً يمثل وضعية جيدة في سياق العالم. وإذا كان من تدمير لمجمل ذلك لأجل تدمير صورة الملك الفاسد، فإن التدمير في واقع الحال هو تدمير لجزء من التاريخ، تدمير للآباء والأجداد المباشرين، هو تمزيق جزء من سيرتنا الذاتية أو تمزيق أوراق من عمرنا الإنساني والحضاري.

لم يكن ذلك عصر الملك فاروق بل كان عصر سعد زغلول والنحاس باشا أو عصر طه حسين وطلعت حرب أو هو عصر مصطفى مشرفة وأم كلثوم، لكنه قطعاً لم يكن عصر فاروق.

لقد ساد أيضاً أن الثورة تعاضمت وتأكدت مبادئها بعد حرب السويس 1956، التي أسست لأسطورة عبدالناصر، ويعلم أبسط القراء أن ذلك كان بداية الأفول لا بداية الصعود، ففي 1958 دخلت مصر وحدة ضعيفة مع سوريا انتهت بفشل ذريع عام 1961، وفي 1962 دخلت مصر حرباً في اليمن كانت حرب استنزاف كبرى للموارد والقيم في الجيش المصري، وفي 1967 كانت أحداث يوم القيامة، ولولا حرب 1973.. مات هذا الشعب كمدأ علي ما كان.

سيقول البعض: ولماذا نبش القبور الآن؟، وما الهدف من إعادة النظر في الثورة وما قبلها وما بعدها؟ ولماذا نترك العالم يتجه إلي المستقبل علي هذا العجل ونتعثر نحن في ثوب الذكريات؟.. وظني أن الهدف من تدشين حركة المؤرخين الجدد لا يتوخي نبش القبور من أجل تمزيق ملابس الأحياء،

كما أنه لا يستهدف شق صف الحركات السياسية، المشقوقة دون عناء... وإنما الهدف، إحياء علم التاريخ وتعظيم الفائدة في علم السياسة، وتعليم الصغار أن الأشياء تتسع لأكثر من لونين وأكثر من رأيين.. وأن هذا الوطن يحتاج إلي من يدركون شخصيته ويفهمون حركته.. إلي من يقفون فوق الجغرافيا في ثبات وينظرون إلي التاريخ في هدوء.

الملك فاروق.. مصري من أسرة مصرية

يرى بعض الناس خطأ أن الملك فاروق وعائلته منذ محمد علي باشا إلي الملك أحمد فؤاد الثاني هم حكام أجنبي، والنطق الساذج الذي يعتمد عليه هذا القول هو أن محمد علي باشا هو جندي الباني، ومن ثم فإن نسله من الألبان، أما أول حاكم مصري منذ عهد الفراعنة فهو جمال عبدالناصر.

لقد أدهشني أن أقرأ ذلك في كتب عديدة، وأن يقول به مؤرخون ومفكرون وصحفيون وحزبيون، وأن يرددده عموم القراء دون فحص أو تمحيص.

البداية

يقوم مفهوم الانتماء في العالم الحديث علي أساس «الجنسية»، أي بطاقة الهوية أو جواز السفر، فالترشيح للوظائف وتولي المناصب وأداء الخدمة العسكرية وسائر شؤون الحياة تقوم علي أساس الجنسية التي ينتمي إليها المواطن.

وفي القوانين الأوروبية والأمريكية يتم منح الجنسية للأشخاص بمجرد تواجدهم بضع سنوات علي أرض البلد، ويكفي للحصول علي الجنسية البريطانية أن يقيم أي فرد خمس سنوات، وبمجرد الحصول علي الجنسية يصبح الفرد مواطناً تاماً.

وفي حالة محمد علي باشا أحد أعظم الحكام المصريين من ذوي الأصول الأجنبية، فقد كان الرجل مصرياً بموجب قوانين الجنسية في العالم الحديث، فلقد مكث في مصر أكثر من خمس سنوات قبل أن يصل إلي السلطة، أي أنه أقام ما يكفي لمنحه الجنسية المصرية قبل أن يصبح حاكماً للبلاد، وبنهاية حكمه يكون محمد علي باشا قد أقام في مصر نصف قرن متصل غير منقوص، أي ليس مجرد شخص حصل علي جواز سفر جديد، بل هو مواطن

مصري قضي في الحياة العامة في وطنه الجديد ما يزيد علي الخمسين عاما.

وإذا كان ذلك هو شأن محمد علي باشا، فإنه لاشك علي الإطلاق في كل حكام مصر من نسل محمد علي، فابنه إبراهيم باشا أعظم القادة المصريين، هو مصري لأبوين مصريين، ناهيك عن الحكام اللاحقين، عباس حلمي الأول ومحمد سعيد باشا والخديو إسماعيل وعباس حلمي الثاني والسلطان حسين كامل والسلطان أحمد فؤاد والملك فاروق الأول والملك أحمد فؤاد الثاني.. كلهم مصريون لأباء وأجداد من المصريين.

المفاجأة

لماذا فقط في مصر يجري اعتبار الأسرة المالكة أسرة أجنبية؟ هل من أجل إكساب الرئيس جمال عبدالناصر طابع الأسطورة؟ هل من قبيل التباهي بأن يكون عبدالناصر هو أول حاكم مصري منذ الفراعنة؟ أي تباه؟ وتباه لمن؟ لمصر أم لعبدالناصر؟ هذا شيء يفاخر به عبدالناصر ولا يفاخر به المصريون، لا يشرقنا أبدا أن يكون تاريخنا فقيرا كسيحا قبيحا إلي هذا الحد.

ثم إنه لو جري اعتبار الملك فاروق وأبائه وأجداده من غير المصريين فإنه يمكن اعتبار الرئيس عبدالناصر نفسه غير مصري، وبالمنطق ذاته، فقد ولد الرئيس عبدالناصر في بني مرّ لعائلة يقول أفرادها إنهم ينتمون إلي القبائل العربية القادمة من الحجاز.

إن مثل هذا السفه في التحليل لا يقول به إلا جاهل، لأنه يحرم مصر من تاريخها، سيجعل محمد علي وإبراهيم وإسماعيل وعباس من الأتراك، وجمال عبدالناصر من الحجاز.

هل أدلكم علي ما هو أكثر تأكيداً لما أقول من أن فاروق وعائلته من المصريين، إن نابليون بونابرت وهو أعظم ما أنجبت فرنسا. قائدا وزعيما هو دفعة محمد علي باشا، كلاهما ولد في عام 1769، ولد محمد علي في مقدونيا، وولد نابليون في جزيرة كورسيكا، وجزيرة كورسيكا لم تكن فرنسية في ذلك الوقت، بل ضمتها فرنسا إلي أراضيها قبيل مولد نابليون بونابرت بأشهر قليلة، ولو تقدم مولد نابليون عاما واحدا لما حصل نابليون علي الجنسية الفرنسية، ولكان من مواليد وطن آخر غير فرنسا، وحتى اليوم فإن الحركة الانفصالية في كورسيكا لا تعتبر كورسيكا جزءاً من فرنسا.

وحين كان الرئيس جاك شيراك يحضر مباراة لكرة القدم قام مشجعو الفريق

الكورسيكي بإهانة النشيد الفرنسي بالتصفير والتوبيخ، مما أثار غضب شيراك الذي اعتبر ذلك عملاً ضد الوطن.. إن نسبة نابليون إلى فرنسا كنسبة محمد علي إلى مصر، هذا من مواليد جزيرة لم تكن فرنسية، وذلك من مواليد مدينة لم تكن مصرية، وكلا الرجلين قاد وطنه الجديد إلى المجد.

هل أدلكم علي ما هو أشد وأوضح، إن العائلة المالكة السويدية من أصول فرنسية، حيث تنحدر العائلة من ضابط عينه نابليون حاكماً علي السويد، وبذا فإن العائلة المالكة المصرية تماثل تماماً العائلة المالكة السويدية، ومع هذا فإن أحدا لا يقول للملك ككارل جوستاف وهو يمنح جوائز نوبل إنه من أصل فرنسي!

أيضاً وايضاً.. فإن العائلة المالكة البلجيكية من أصل هولندي، والعائلة المالكة في موناكو من أصل إيطالي، والعائلة المالكة النرويجية من أصل دنماركي، والملكة صوفيا الإسبانية من أصل يوناني، وأما العائلة المالكة البريطانية فهي كلها من أصل ألماني قريب، والملك فاروق أكثر امتداداً وتجزراً في مصر من الملكة إليزابيث ملكة بريطانيا،

فعائلة الملكة إليزابيث هي عائلة «ساكس-كوبورغ-غوتا» الألمانية، وهي تنتسب إلي الأمير الألماني «البرت» زوج الملكة فيكتوريا، وفي الحرب العالمية الثانية كانت بريطانيا تحارب ألمانيا، وقد غيرت العائلة المالكة البريطانية اسمها أثناء الحرب من الاسم الألماني إلي اسم بريطاني هو «وند سور»، أما ولي العهد البريطاني الأمير تشارلز فهو لأم من أصل ألماني هي الملكة إليزابيث وأب يوناني هو الأمير فيليب.

.... الصافي من هذا كله.. أن الملك فاروق هو حاكم مصري من عائلة مصرية، وأن النيل من ذلك هو تيل من مصر لا من الملك، وتكريس أسطورة كون الرئيس عبدالناصر هو أول حاكم مصري علي نحو ما كتب «انتوني ناتنج» هو أمر يعظم من شأن ناصر ويحط من شأن الوطن.. إن أول ما نعتقده نحن الداعون إلي تأسيس حركة المؤرخين الجدد هو أن مصر أولاً ومصر أخيراً، ومصر ما بينهما.

عيد الاستقلال

* زرت عدة بلدان أوروبية في مناسبات مختلفة.. وكان من حظي اني حضرت احتفال عيد الاستقلال في هذه البلدان، حيث يبتهج الناس جميعاً بيوم وطني، لا اختلاف فيه ولا خلاف عليه.

فكرت في بلادنا.. لماذا لا تحتفل مصر بعيد الاستقلال؟ وجدت السؤال غريباً تماماً.. عيد الاستقلال في مصر.. انني لم اسمع في حياتي تلك العبارة الرائعة. لقد سمعت عن عيد الثورة وعيد الجلاء وأعياد النصر.. أما عيد الاستقلال فلا..

* وفي سفريات أخرى كان من حظي أن حضرت احتفالات السفارات المصرية بعيد ثورة يوليو، إنه العيد الرسمي للبلاد، وهو الاحتفال الرسمي الرئيسي الذي تقيم فيه سفاراتنا أكبر احتفالاتها، ويلقي فيه رئيس الجمهورية أهم خطبه.

وقد فكرت طويلاً في يوم 23 يوليو، وأنا واحد ممن يحترمون ويؤيدون الثورة المجيدة.. هل يصلح يوم 23 يوليو ليكون اليوم الوطني لمصر؟.. تقديري، لا، إنه في نهاية المطاف حدث سياسي داخلي يختص بتغيير نظام الحكم، هو يوم جاء نتيجة صراع بين قوي سياسية عديدة، كانت الغلبة فيه للرئيسين ناصر ونجيب ومن معهما.

لدي شكوك واسعة في صلاحية هذا اليوم لهذا الشأن العظيم، وتقديري أن اليوم الوطني لمصر ينبغي أن يكون يوم 28 فبراير من كل عام.. إنه يوم الاستقلال في مصر.

إن تصريح 28 فبراير 1922 هو الذي أنهى الحماية البريطانية علي مصر، وأعلن مصر دولة مستقلة ذات سيادة، وقد جاءت ثورة يوليو 1952 علي بلد استقل قبل ثلاثين عاماً.. وكانت فيه حكوماته وسفاراته وأحزابه ونوابه.. وفيه العلم والنشيد.

* سيقول البعض.. إن تصريح 28 فبراير هو تصريح غير مشرف، بل هو منحة من

بريطانيا، لا يليق الاحتفال به.. وهذا رأي غير صائب، ذلك أنه تصريح يشرف كل المصريين، وهو ليس منحة من المحتل، بل هو نتاج ثورة عظيمة هي ثورة 1919، ونتاج جهد نخبة وطنية رفيعة، يتصدرها زعيم عظيم هو سعد زغلول.

لقد جاء تصريح فبراير بعد أن خاض الشعب معركة الاستقلال، وذهب ممثلوه إلى مؤتمر الصلح، ولما خذلهم الرئيس ويلسون ومعه المؤتمر، عادوا للكفاح حتي تكمل بالنجاح.

* سيقول آخرون: إنها سيادة ناقصة، حيث بقيت لبريطانيا أسباب وأشكال عديدة للبقاء، وهذا قول صحيح.. ولكن نقصان السيادة لا يلغي السيادة. إن أوروبا تمتلئ الآن بالقواعد العسكرية الأمريكية، وفي اليابان يكاد الجيش الأمريكي أن يكون محتلاً.. وفي طوكيو وحدها ست قواعد عسكرية أمريكية.. لكن أحداً لم يقل إن هذه البلدان محتلة.

ثم إن الشعب المصري العظيم أكمل فيما بعد مسيرة التحرير حتي جلاء آخر جندي بريطاني، ثم إسرائيلي.

** الصافي إذن.. أن يوم 28 فبراير من كل عام هو يوم الاستقلال في مصر، فهو نتاج ثورة عظيمة، وهو أساس دستور عظيم، وحقبة زاهية من تاريخ الوطن.

إن يوم 28 فبراير هو يوم في مواجهة الاحتلال، أما يوم 23 يوليو فهو يوم في مواجهة السلطة.. ومواجهة الاحتلال أولي بالاحتفال.

بلاك ووتر الفرعونية

■ يقول السفهاء من الناس إن مصر ظلت دولة محتلة ألفى عام، وإن الشعب المصرى لم يواجه أشكال الاستعمار المتعاقبة.. وإن ما حدث أن كل استعمار جديد كان يطرد الاستعمار القديم دون أن يتدخل المصريون وكان الأمر لا يعنيهم. ويحلو للناصريين المتشددون القول بأن الرئيس جمال عبدالناصر هو أول حاكم مصرى بعد ألفى عام.. وهى الخرافة التى روجها عالميا الكاتب البريطانى «انتونى ناتنج» الذى افتتح بهذه العبارة البغيضة كتابه الشهير «ناصر».

■ لا يعلم الكثيرون أن الحقبة الأخيرة من العصر الفرعونى قد شهدت حلّ الجيش المصرى، وأصبحت مصر بلا جيش منذ ذلك العهد. كان أساس الحل ذلك الغرور والاستعلاء الذى أصاب قادة مصر فى تلك الحقبة.. حيث رأى فرعون مصر أن الشعب المصرى أعظم وأقيم من أن يكون محارباً، وأن مهمة القتال ينبغى أن يعهد بها المصريون إلى الشعوب الأدنى، أما المصريون سادة العالم فلهم أعمال الفكر والفلسفة والدين وهم إما رجال سياسة أو رجال دين أو رجال حضارة يبنون المعابد والأهرام.

لقد تعاملت مصر وقتها كما تتعامل الولايات المتحدة الآن.. حيث اعتمد المصريون على المرتزقة للدفاع عنهم، حيث إن دماء المصريين مقدسة، أما دماء المرتزقة فلا ثمن لها.. فليكن الجيش والدفاع إذن من نصيب غير المصريين الذين رأيناهم وقتها أناسا لا قيمة لهم.

والفارق الرئيسى بين فراعنة مصر وحكام واشنطن.. أن الجيش الأمريكى يعتمد على المرتزقة بدرجة هامة وفى مهمات محددة وتحت مسميات لائقة، لكن بناء الجيش الأمريكى بضباط وجنود أمريكيين هو الأصل، لكن فراعنة مصر المتأخرين قاموا بحل الجيش المصرى تماماً، وأصبح كل الجيش من الأجانب المرتزقة. فى الولايات المتحدة تعمل

شركة بلاك ووتر في تجنيد المرتزقة للدفاع عن الولايات المتحدة.. وفي مصر الفرعونية الأخيرة كانت شركة بلاك ووتر الفرعونية هي ككل الجيش.

لقد أصبحت مصر منذ ذلك الحين بلا جيش، لذا كان طبعياً أن يكون صراع الرومان والفرس والعرب على مصر صراعاً ثنائياً دون أن يكون المصريون طرفاً ثالثاً.. ذلك أن جيشين أجانبين يتصارعان في بلد بلا جيش.

إن الذين يسخرون من مصر في هذه الأثناء ويهينون الدولة والشعب ويحتقرون تاريخنا في هذه الحقبة.. لم يكلفوا أنفسهم لحظة واحدة كي يفهموا.. لماذا حدث هذا؟

بل راح هؤلاء يفسرون ذلك بصفات الصقوها بالمصريين.. فأصبح المصريون في نظرهم جبناً وراضين وراضخين.. لا همّة ولا كرامة ولا ثورة..!

عن الشعب الذى لا يثور

يقول السفهاء من الناس إن الشعب المصرى لا رجاء منه ولا رجاء فيه، وإنه شعب جبان ومستسلم ولا يمكنه أن ينهض في مواجهة الظلم. ويعاير هؤلاء السفهاء شعبنا العظيم بأن الدول الأخرى شهدت العديد من ثورات شعوبها، ومن ثم لا مقارنة بين شعوب جسورة جريئة تقوم بالثورة إذا واجهت الظلم، وبين شعب خامل راكد بارد لا تستيقظ مبادئه أبداً. لقد تأملت شعوب العالم لأنظر في هذه الأقوال الجاهلة.. فلم أجد شيئاً من ذلك، تأملت الشعب السويدى وشعوب إسكندنافيا في الدنمارك وفنلندا.. ثم تأملت إيطاليا وألمانيا وفرنسا.. ثم وجهت نظرى إلى إسبانيا واليونان والبلقان.. ثم إلى خريطة أوروبا وأمريكا وآسيا.

ثممة قراءة ساذجة لهذه الخريطة الواسعة.. أو أنها لا قراءة.. واعية حتى يتولد لدينا وجدنا الشعور بالعار على مدار الوقت.

إن المرء ليتساءل: ما هو كفاح الشعب السويدى ضد الاستبداد وتزوير الانتخابات؟ ماذا فعل الشعب الألمانى القوى في مواجهة هتلر والذين معه..؟ ما هو الصوت الذى تجرأ على هتلر في ألمانيا.. ما هو الحزب المتحضر المتحرر الجريء المغوار الذى قال لأدولف هتلر: كفى!

ما هى عظمة الشعب الإيطالى في مواجهة الحكم الفاشى؟ وما هى المظاهرات التى خاضها الإيطاليون بالملايين ضد هذه السلطة الظالمة؟ وما هو النضال العظيم الذى خاضه الشعب الأسبانى ضد فرانكو.. ومن هم الكتاب وما هى الصحف والأحزاب الذين داسوا على ديكتاتورية فرانكو؟

إلى اليمين قليلاً.. ماذا فعلت شعوب أوروبا الشرقية في مواجهة السوفيت وحلفائهم الشيوعيين الذين حولوا شرق أوروبا إلى معسكرات اعتقال واسعة؟ سيقول البعض: لقد انتفضت وتحرتت وراينا صور الشعوب وهى تحمل أعلام الحرية.. وهو

قول بسيط لا يدرك أن كل ذلك كان نتاج رجلين غيرا التاريخ.. ميخائيل جورباتشوف ورونالد ريغان.. ولولا هذا من هنا وهذا من هناك.. لما سقط الاتحاد السوفيتي.. ولو لم يكن هذا السقوط السوفيتي.. لما تحررت شعوب أوروبا الشرقية.. ولبقيت على حالتها.. مناضلون أفراد مغلوبون على أمرهم، ومغامرون أبطال لا حيلة لهم ونوبات وطنية تسحقها الدبابات السوفيتية.

إلى اليمين أكثر.. إلى الاتحاد السوفيتي نفسه.. ما هو نضال الشعب السوفيتي.. أو بالأحرى ما هو نضال الشعوب السوفيتية ضد الحكم الشيوعي الديكتاتوري؟ ما هي بطولات الروس وآسيا الوسطى أمام جرائم ستالين الذي قتل من شعبه أضعاف أضعاف كل شهداء العالم من أجل الاستقلال؟

الم يسأل أحدهم الزعيم خروشوف وهو يهاجم ستالين، أين كنت وقتها يا رفيق؟ ثم رد خروشوف، من الذي تكلم الآن؟ لم يرد أحد.. قال خروشوف، وأين أنت الآن يا رفيق؟ ثم يقول السفهاء من الناس إن الشعب المصري يتسم بالجبن والانبطاح ونفاق الحاكم والاكتفاء بلقمة العيش هو!....

في مديح التعب المصري

ذهبت في صحبة الكاتب الكبير محمود عوض، تلبية لدعوة كريمة من الدكتور أحمد الغندور، العميد الأسبق لكلية الاقتصاد والعلوم السياسية.. كانت الدعوة علي عشاء وحوار، وكانت الحصيلة فاخرة.. صالوتا ومائدة.

كان أول جلوس لي متوسطا الأخوين أمين، الفكر الكبير حسين أحمد أمين، وشقيقه الفكر الكبير جلال أمين، ثم جاء جلوسي الثاني إلي جوار د. حازم الببلاوي، ود. كمال أبوالمجد.

وفي كل مرات جلوسني، كنت مواجهًا لصورة رائعة للأديب الكبير يوسف السباعي، والد السيدة نفيسة السباعي، حرم الدكتور أحمد الغندور.

كان مستوي الصحبة أعلي كثيرًا من مستوي الأوضاع في مصر، وقد تذكرت علي الفور قول الشاعر الكبير حافظ إبراهيم: «عجيب أمر المصريين تكمن القوة في أفرادهم، ويكمن الضعف في مجموعهم»!

حين دعانا الدكتور الغندور لبدء تناول العشاء، كان الدكتور حازم الببلاوي قد بادر بسؤالنا الأستاذ محمود عوض وأنا، عما يجري في مصر.. وقد سعدت لانشغال الأستاذ محمود عوض بالإجابة، لأذهب وحينًا إلي المائدة، ذلك أنني تذكرت عشاء قديمًا في فندق شيراتون أبوظبي، وكان العشاء بدعوة من السفارة المصرية هناك.. وكان عامرًا بالطيبات من الرزق والثمرات.. وكنت جائعًا علي نحو استثنائي مشين، وبينما أنا أدلف إلي مواضع الطعام، كان الدكتور حازم الببلاوي قد بادر بالسؤال نفسه.. وقد كان حديثه ممتعًا وساحرًا، إلي الحد الذي شغلني عن الطعام.. حتي رفعت اللوائد.. ولم يبق لنا إلا نصف طبق من البصارة تم اقتسامه بيننا!

تولي الدكتور جلال أمين سلطة الحوار دون شوري، وكان أول قراراته، أعطي الكلمة لأخي حسين أحمد أمين... وعندما تطور الحوار.. قال، «لنعط الكلمة لإحدي السيدات.. تفضلتي...» ولما سال أحدنا عن منطقته في إدارة الحوار قال، «إنها زوجة أخي»!

لقد امتلأ لقاء الدكتور الغندور بالكثير من الأفكار والرؤي.. لكن ما استوقفني أكثر.. هو تحليل الدكتور حازم الببلاوي للأوضاع في مصر.. قال: إن في مصر مجتمعاً راقياً، وهناك رقياً حقيقياً في مستوى الشعب المصري، وهذا الرقي ناتج عن سبعة آلاف سنة.

وقال د. الببلاوي، إن البعض يعتبر سكون المصريين استكانة وضعفاً وانبطاحاً، ولكنه ليس كذلك علي الإطلاق.. بل هو رقي حقيقي من شعب يدرك قيمة الأمن وقيمة الاستقرار.. ومعني الدولة.. لكن سوء الحظ يجيء من أناس ليسوا جديرين بحكمه.. لدينا إذن سلطة أقل من الشعب، وليست سلطة في مستوى الشعب.

واضاف، إن المجتمع المصري - نتيجة سوء الأداء وليس تدهور الشخصية - يعيش في القرن السابع عشر.. الجامعات والهيئات والؤسسات.. مجمل مكونات المجتمع يعود للقرن الـ 17، أما السلطة السياسية فإنها تعتمد في ممارساتها وبقائها علي منجزات التكنولوجيا في القرن الحادي والعشرين.. لدينا مؤسسات أمنية بقدرات القرن الحادي والعشرين، ومؤسسات مدنية بقدرات القرن السابع عشر!

الجزء الثاني من الحضارة المصرية

■ يقول السفهاء من الناس إن الفتح العربى لمصر دون مقاومة المصريين كان دلالة جبن وانبطاح.. وتضحية بحضارة فرعونية مجيدة تحت أقدام الخيول العربية.

قلنا في السابق إنه قد تم حل الجيش المصرى في نهايات العصر الفرعونى.. ونجحت العنصرية المصرية في أن تحرم حضارتنا من جيش يدافع تحت مقولة عنصرية..، أن الحياة والمجد للمصريين وأن الدفاع والموت للخدم من الشعوب الأخرى، ونجحت العنصرية المصرية في حل الجيش والتفرغ للدين والفلسفة!

■ لم ير المصريون في الفتح العربى لمصر استعماراً للبلاد، ذلك أنه لم يكن دخولاً بالسلاح.. وإنما كان دخولاً برسالة تسبق السلاح.. ثم إن السلاح جاء موجهاً للرومان وإن الرسالة جاءت موجهة إلى المصريين.

لقد بدأ الفتح العربى الإسلامى لمصر بمثابة إهداء حضارى عظيم لبلد يعرف قيمة الكلمة ومقام الحكمة، قام العرب بتخليص المصريين من الرومان، فكان إهداء السلاح الذى جاء صديقاً لا عدواً.. ثم قام العرب بإبلاغ المصريين رسالة سمحة عذبة.. تضىء طرقاً الدنيا وثنير طريق الآخرة.. وأدرك المصريون أنهم إزاء بداية جديدة.. بداية الجزء الثانى من الحضارة المصرية.. لم يكن للجزء الأول في الحضارة المصرية مثيل.. ولا منافس.. كانت كل حضارات العالم أقل من حضارة المصريين.. وكان كل تاريخ العالم أقل من تاريخ المصريين.. وكانت كل جغرافيا العالم أقل من جغرافيا المصريين.

لقد انتهى ذلك الجزء المجيد المتفرد.. وأصبح على المصريين في الجزء الثانى من حضارتهم أن يقبلوا وجود حضارات أخرى منافسة أو غالبية.. وأن يشاركهم في وظيفتهم الحضارية الجديدة شركاء الدين الجديد.. ذلك أن دين المصريين انتقل من حدود المعابد إلي

رحاب السماوات، إذن ما معنى الثورة والمقاومة.. لم يجد المصريون في العرب المسلمين غزاة ولا محتلين وإنما طليعة تجديد حضارى.. أو أداة تنبيه لعالم عصر جديد.

مثل دخول الإسلام إلى مصر عودة الروح لحضارة منهكة.. ومثل المسلمون القادمون حلفاء حضاريين بمقولات جديدة.

لم يكن سكون المصريين إزاء المجددين العرب سكون الجبان والخائف والمستسلم الذى لا حيلة له.. بل سكون من يستعد لقيادة الحضارة الإسلامية الجديدة وقيادة القادمين انفسهم في المعارك العالمية الكبرى التى خاضتها الحضارة العربية الإسلامية في حطين وعين جالوت بقيادة مصر.

لم تكن الدولة الطولونية ولا الاخشيدية ولا الأيوبية ولا عصر المماليك.. نموذجاً للحكم الأجنبى لمصر.. كان حكام تلك الأسر ذوى أصول غير مصرية.. لكن باتوا مصريين تماماً.. واستوعبتهم مصر استيعاب دولة كبرى تعطى جنسيتها لمن يضيف أو يفيد دون وجل أو خوف.. فأصبحت الدولة الطولونية المصرية والدولة الأخشيدية المصرية مراحل في الجزء الثانى من الحضارة المصرية.

وإذا كان البعض مندهشاً من تلك الرؤية وميلاً للانسحاق أمام المقولة الوضيعة إن مصر جرى حكمها ألفى عام بلا مصريين.. فما على هذا البعض إلا أن يبحث في جنسية ملكة بريطانيا الحالية، أو ملوك السويد والدنمارك وإسبانيا الحاليين.. لقد خاضت بريطانيا الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا.. وكانت ملكة بريطانيا الألمانية من أب ألماني وكان زعيم ألمانيا نمساوياً من أب نمساوى.

عصر الاستقلال (1)

إنها المرة الوحيدة التي تعاملت فيها مع كتاب بهذا المستوى غير المتحضر.. كنت في مكتبة عامة في مدينة خليجية، ووقعت عيناي على كتاب «ناصر» مؤلفه الشهير أنتوني ناتنج، كان المؤلف وزيراً بريطانياً وهو كاتب سياسى مرموق.. وكتابه هذا هو أشهر كتاب في العالم عن الرئيس جمال عبدالناصر. إن أول سطر في الكتاب أصابني بالغثيان.. جمال عبدالناصر هو أول حاكم مصرى بعد ألفى سنة من الاستعمار.. قلت في نفسى.. يا الهى.. كل هذا الهوان أصابنا. هل ظلت مصر مستعمرة عشرين قرناً متصلة حتى جاء الرئيس عبدالناصر.. وإذا كان الأمر كذلك.. فنحن الآن إذن في مرحلة استثنائية لا تمثل مصر. لدينا وقت قصير للغاية في تجربة الاستقلال أمام مساحة عملاقة من زمن الاحتلال.

لقد شعرت بانقباض شديد.. أهذا أنا؟ أهذه بلادى؟ أهذا وطنى؟ أهذا تاريخى وأصلى وفصلى؟

قطع انقباضى وحزنى صديق لبنانى طلب أن يرى الكتاب بعد أن انتهى من تصفحه.. وما إن استدار الصديق حتى مزقت تلك الصفحة.. والصفحة التى تليها.. وجعلت الكتاب يبدأ من صفحته الخامسة.

لقد شعرت بالعار والخجل أن أقدم لصديق غير مصرى.. تاريخى المصرى غير المشرف. إن ما وجدته في كتاب «ناتنج» وجدته في كتب ومقالات عديدة تروج لتلك الخرافة.. إن مصر هى أطول المستعمرات عمراً، وإن تاريخ الاستقلال في بلادنا استثناء.. وإنه لن يصلح مصر إلا حكم الأجانب الذين وحدهم يملكون وضع «السيستم» والإدارة الرشيدة للبلاد..

لو أننى أجريت بحثاً عن هؤلاء الذين قالوا إن تاريخنا كله استعمار وإن استقلالنا محض استثناء.. وإن شعبنا لم ينهض إلا مع حاكم قادم من أرض أخرى ووطن آخر ولسان آخر، لاحتجت إلى مجلدات تضم هذه القنارة النظرية..

لقد استمتعت بمقال بديع للدكتور طه عبدالعليم، نشرته صحيفة «الأهرام» حول «خرافة نظرية أن مصر أطول المستعمرات عمراً».

اعتمد الكاتب على كتاب الدكتور جمال حمدان، «شخصية مصر» وكتاب الدكتور حسين فوزى «سندباد مصر...» وهما كتابان رائدان لمؤلفين عظيمين.

يذهب الدكتور حسين فوزى إلى أن مصر أطول الأمم تاريخاً، وهى أيضاً الأطول استقلالاً.. ومن بين 5 آلاف سنة عمر الدولة في مصر عاشت مصر دولة مستقلة أو إمبراطورية مصرية 3500 سنة، أى أن مصر عاشت 70% من تاريخها دولة مستقلة، وأنها في تاريخها الثرى العظيم عاشت أطواراً من الحضارات.. من حضارة فرعونية خالصة.. إلى حضارة مصرية يونانية إلى حضارة مصرية رومانية إلى حضارة مصرية إسلامية، ويصل الدكتور جمال حمدان بعمر الاستقلال في مصر إلى 4 آلاف سنة كاملة لم تخضع فيها مصر لى من الغزاة الأجانب.

ويقول جمال حمدان: لا توجد دولة لم تعرف الاستعمار، وهناك دول عرفت الاستعمار طوال تاريخها، وبلد مثل بريطانيا رغم أنه «بلد متطوح» وليس مركز العالم مثل مصر.. بريطانيا خضعت للغزو الأجنبى كل تاريخها حتى العصور الحديثة.. تم استعمار بريطانيا باتباع وبلا انقطاع.. وكان بعض ملوكها المستوردين لا يعرفون الإنجليزية!

ويزيد الدكتور جمال حمدان توضيحاً وتعظيماً.. أن بعض الذين احتلونا سبق لنا احتلالهم.. وأن الثورات المصرية اندلعت وغطت جميع عصور الاحتلال.. وأن مصر انفردت بزعامة المنطقة لأطول مدى ممكن.. نصف العصور الوسطى ومعظم العصور القديمة.

عصر الاستقلال (2)

عاشت مصر ثلاثة أرباع تاريخها دولة مستقلة، وهى النسبة الأعلى فى تاريخ العالم، وينقل د. طه عبد العليم، فى مقاله بالأهرام، عن د. جمال حمدان ود. حسين فوزى خلاصة بحثهما بأن مصر قد عاشت أكثر من سبعين بالمائة من تاريخها دولة مستقلة.. ثم ينقل الكاتب عن المؤرخ، فيرجريف، دهشته فى كتابه الشهير، موجز تاريخ أفريقيا، فى تاريخ كل الدول فى العالم.. ما من دولة واحدة استمرت نصف الوقت وهى متحررة من الغزو،

وقد جاءنى من الدكتور جلال الشايب - الأستاذ فى كلية الفنون الجميلة - تعقيباً إضافياً يمشى فى الطريق الذى ذهبنا فيه مع الدكتور طه عبد العليم فى نقد خرافة أن مصر أطول المستعمرات عمراً.

يذهب د. جلال الشايب إلى أن مصر قد عاشت أكثر من تاريخها الإسلامى دولة مستقلة ويوجز رؤيته فى التالى:

■ يبدأ تاريخ مصر الإسلامية عندما فتح عمرو بن العاص مصر فى عام 640م.

أصبحت مصر ولاية تابعة لمركز الخلافة فى عصر الخلفاء الراشدين، 640 - 660 م، وولاية تابعة لمركز الخلافة فى دمشق فى عصر الدولة الأموية، 660 - 750 م، وولاية تابعة لمركز الخلافة فى بغداد فى عصر الدولة العباسية، 750 - 868 م.

■ إلا أن مصر استطاعت الاستقلال بشكل نسبي فى بعض الفترات مثل العصر الطولونى، 868 - 905 م والعصر الإخشيدى، 935 - 969 م، حتى أصبحت مصر دولة مستقلة تماماً، بل إمبراطورية إقليمية مهمة تبسط سلطانها على بلاد الشام والحجاز واليمن فى العصر الفاطمى، 969 - 1171 م، وصارت القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية لا تقل شهرة ومكانة فى العالم الإسلامى عن مدينتى بغداد، عاصمة الخلافة العباسية، أو قرطبة، عاصمة

الخلافة الأموية في الأندلس.

■ وفي العصر الأيوبي، 1171 - 1250، نجح صلاح الدين الأيوبي في ضم دمشق وحلب وطرده الصليبيين من القدس.

وفي العصر المملوكي، 1250 - 1517، أصبحت مصر قوة عظمى.. حيث وصلت حدودها حتى الدولة العثمانية، كما تمكنت من الاستيلاء على جزيرة قبرص.. وبعد سقوط الخلافة على يد المغول نقلت الخلافة العباسية إلى مصر في عهد الظاهر بيبرس في عام 1260م، وانتقل مركز الثقافة الإسلامية من بغداد إلى القاهرة، عاصمة الدولة المملوكية، وصارت القاهرة بمثابة الحصن للحضارة العربية الإسلامية.

■ لكن انهيار الوضع الاقتصادي في آخر العهد المملوكي، بعد اكتشاف فاسكو دي جاما طريق رأس الرجاء الصالح، قد أدى إلى وقوع مصر فريسة سهلة للدولة العثمانية، ومن ثم عادت مرة أخرى ولاية تابعة لمركز الخلافة في إسطنبول، 1517 - 1805.

■ ولكن مصر حصلت على درجة من الاستقلال تحت حكم أسرة محمد علي منذ عام 1805 وحتى الاستعمار البريطاني في عام 1882.

■ يخلص د. جلال الشايب من كل ما سبق، من الفتح الإسلامي حتى الغزو البريطاني، إلى أن مصر قد عاشت أكثر من نصف تاريخها الإسلامي دولة مستقلة، بنسبة 56٪، وعاشت ولاية تابعة، بنسبة 44٪، وهو ما ينفي تماماً فكرة أن مصر كانت مستعمرة طوال تاريخها الإسلامي، ولم تعرف الاستقلال، إلا في عصر محمد علي فحسب.

عصر الاستقلال (3)

ذهب أعداء مصر والمصريين إلى ترويج خرافة مؤداها أن مصر عاشت معظم تاريخها تحت حكم الاستعمار، وأن عمر الاستقلال في تاريخ المصريين ضئيل للغاية وسط عصور متواصلة من حكم الأجانب.

ويكمل أعداء مصر والمصريين مقولاتهم التافهة بالقول إن عصور الاستعمار في مصر تمثل عصور الإنجاز والتعمير، وإن عصور التخريب والفسل هي في الأغلب فترات حكم المصريين لبلادهم.

في مقاله بالأهرام، نقل د. طه عبدالعليم عن الجليلين جمال حمدان وحسين فوزي خلاصة أبحاثهما بأن تلك المقولات خرافة تامة.. وأن مصر هي الدولة الأطول استقلالاً في كل العالم وعلى مر التاريخ. وأن مصر عاشت ثلاثة أرباع تاريخها دولة مستقلة وهي أعلى نسبة في تاريخ الشعوب.

وفي تعقيبه المميز قال الدكتور جلال الشايب، الأستاذ في كلية الفنون الجميلة، إن مصر عاشت أكثر من نصف تاريخها الإسلامي دولة مستقلة، وأن القول بأن مصر كانت مستعمرة طوال تاريخها الإسلامي هو خرافة أخرى.. وفي هذه السطور يكمل د. جلال الشايب في نقد خرافة «البناء في زمن الاستعمار والفسل في أزمنة الحكم الوطني». ويمكن تلخيص رؤية د. جلال الشايب في التالي،

1- الدارس للعمارة الإسلامية في مصر يكتشف أن نهضتها كانت مرتبطة دائماً باستقلالها، وفي الفترات التي كانت فيها مصر ولاية تابعة سواء للدولة الأموية أو للدولة العباسية أو للدولة العثمانية.. فإنها تتخلف معمارياً.

- 2- على مدى 228 سنة منذ فتح مصر وحتى قيام الدولة الطولونية المستقلة لم يشيد سوى جامع عمرو بن العاص الذى لم يتبق منه سوى حائط القبلة حيث شيد الجامع بشكله الحالى في عصور لاحقة. وكذلك جامع العسكر وهو غير موجود حالياً. وأما مقياس النيل في الروضة فقد شيد في العصر العباسي لأسباب تتعلق بجباية المال.
- 3- في العصر الطولوني عندما استقلت مصر عن الدولة العباسية تم تشييد جامع ابن طولون، ثالث جامع في مصر ومن أجمل المساجد الإسلامية..
- 4- في العصر الفاطمي أنشأ جوهر الصقلي مدينة القاهرة، وشيد الأسوار للدفاع عنها وأنشأ البوابات.. مثل باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة.
- 5- في العصر الفاطمي أيضاً تم تشييد الجامع الأزهر.
- 6- امتازت الدولة الأيوبية المصرية المستقلة بالعمارة الحربية، مثل القلاع والحصون والعسكرات.. وإنشاء المدارس الكبيرة، ومن بين المنشآت المعمارية تميز ضريح الإمام الشافعي.
- 7- تمثل الدولة المملوكية المصرية المستقلة العصر الذهبي لفن العمارة الإسلامية في مصر. وهي عمارة تمتاز بضخامتها.
- 8- من إبداعات سلاطين المماليك البحرية، 1250 - 1382، جامع السلطان قلاوون، وجامع ومدرسة الناصر محمد، وجامع ومدرسة السلطان حسن، الذي زاره الرئيس الأمريكى باراك أوباما في عام 2009، والذي يعتبر من أروع العماائر الإسلامية في العالم.
- 9- من إبداعات سلاطين المماليك البرجية، 1382 - 1517، جامع ومدرسة قنصوة الغوري، ضريح ومدرسة الظاهر برقوق، قلعة قايتباي بالإسكندرية.
- 10- الصافي من ذلك كله أنه حين تحكم مصر من داخل مصر يكون الصعود وحين تحكم مصر من خارج مصر يكون الهبوط.. إن عصور الاستقلال في تاريخ مصر هي عصور الازدهار في تاريخ المصريين.

جريمة رائعة (1)

لا يقف المؤرخون طويلاً لدى واقعة عظيمة وجريمة جليلة قدمها محمد علي باشا إلى مصر، لا يقفون بما يليق أمام واحدة من أروع اللذائج في التاريخ، وواحدة من أفضل المآسي الإنسانية والمآثر السياسية.

في أول مارس عام 1811، أراد محمد علي أن ينتهي من المماليك في مصر، فدعاهم إلى حفل عشاء أخير، ثم جري حصادهم واحداً وراء الآخر.. فلم يفلت منهم إلا مملوك واحد، انتهى أثره في سوريا.

إنسانياً.. لا يمكن أن يقف أحد مع مذبحه جماعية راح فيها كل من حضر، وإنسانياً لا يمكن أن يقبل أحد وقائع قتل وغدر مفاجئة تراحمت فيها الجثث فوق الخيول وتحت الأقدام، وإنسانياً لا يمكن أن يرتضي أحد أن يتحول حفل عشاء إلى حفل عزاء، تناول فيه الضيوف فاتحة شهية ونهاية حياة.

غير أنني أقف تماماً علي النقيض، من ذلك الحسن الإنساني هذه المرة، لأكون واحداً من الذين يحترمون ويقدرّون هذه المذبحة الرائعة.

إنني واحد ممن يرون أن بعض رؤي الإصلاح والتقدم لا تحتل ترف الحوار والجدل والإقناع، كما أنها لا يمكنها أن تبقي طويلاً أسيرة حرب باردة بين الرأي والرأي الآخر.

وأؤمن كذلك بأن كثيراً من مشروعات النمو في الحالة المصرية وفي الثقافة العربية قد أربكها كثرة الحوار، وصخب الإفتاء والإنشاء!

وظني أن عدداً وفيراً من نماذج التقدم قد أتت وعلت في ظروف حاسمة لا أجواء

مرتبكة وفي بيئة واضحة لا في غابة من الانتماءات والانحيازات والأيديولوجيات المتصارعة.

وفي حالة «مذبحة القلعة» كانت مصر أمام خيارين واضحين، خيار التخلف الذي يحميه «الماليك المحدثون».. وهم جيل عنصري ضعيف وفاسد وهم غير «الماليك العظام» الذين ساهموا في تاريخ بلادنا المجيد، وبين خيار التقدم الذي أتى به محمد علي تعليمًا وتفكيرًا وجيشًا وإمبراطورية، كانت المعركة صافية لا لبس فيها، بين عصابات منظمة يقودها حفنة من العبيد، وبين أمل وطني وحضاري جامع لن يبدأ إلا علي جثث تلك العصابات.

لم يكن الحوار ولا الجدل ولا موائد المفاوضات لتجدي مع عصابات ذات مصالح كبرى ومزايا عملاقة، من مال وأطيان ونفوذ ورجال، لم يكن الحوار ممكنا مع اناس يمتلكون الأرض ومن عليها، ولا يعرفون غير القتل وسفك الدماء ومؤامرات القصور والقرى من أجل زيادة ما يملكون.

كان قرار محمد علي القضاء علي الماليك واحداً من اعظم القرارات إن لم يكن اعظمها جميعاً، وإذا كان أحمد علي باشا مؤسس مصر الحديثة إنجازان يفوقان مجمل ما أنجز ومجمل ما أنجزت مصر في القرنين الأخيرين، فهما بناء الجيش والقضاء علي الماليك.

لقد أسرفت كتب التاريخ بوصف ما جرى بالمذبحة، لتجري إدانة محمد علي والتعاطف مع الماليك، وتقدير أن الصواب هو «معركة القلعة» لا «مذبحة القلعة»، فهي معركة بين محمد علي والماليك، ولكنه اختار فيها أن تكون «معركة نصف بيضاء» أي أن تسيل دماء العدو وحده في مكان أنيق ووقت محدود.

ما الذي كان سيحدث لو بقي الماليك في مصر؟

ماذا لو كان محمد علي قد انهزم ومضي الماليك معنا إلي اليوم؟

إنني إزاء «معركة القلعة» المجيدة، التي انتصر فيها التقدم علي التخلف، والمعرفة علي الجهل.. وفلاسفة النهضة علي أمراء العبيد.. لأتذكر محبياً ومقدراً ما فعله الزعيم العظيم محمد علي، في تلك الجريمة الرائعة.

جريمة رائعة (2)

دعوت في السابق إلى إعادة قراءة «منبحة القلعة»، التي أنهى فيها محمد علي باشا عصر الماليك.

وهي المنبحة التي مثلت، في تقديري، مغرقة فاصلة بين العصور الوسطى المصرية والعصر الحديث.

وقد جالت بخاطري احتمالات عدة لردود الفعل علي ما كتبت، غير أن ما تفضلت به الكاتبة الأستاذة صافي ناز كاظم، جاء خارج ما توقعت وقدرت.

* كتبت الأستاذة صافي ناز كاظم في صحيفة «البديل» تحت عنوان: «نظرية المسلماني في مشروعية الحسم بالمذابح»، مقالاً فاسياً، ذهب بعيداً في التحليل والتأويل،

1- قالت الكاتبة، «في ظل المذابح المروعة التي يرتكبها يهود أولمرت ضد الأطفال والنساء والمدنيين العزل، في ظل هذا البطش والتوحش، لا يتردد أحمد المسلماني في توثيق وتدعيم هذا الجبروت الأعمى، المستحل لدماء الأطفال والمدنيين.. يطرح نظريته الإرهابية في مشروعية الحسم بالمذابح في مقاله «جريمة رائعة، بالمصري اليوم».

* لقد ذهبت الأستاذة صافي ناز بعيداً بعيداً في ربط ما لا يربط، وخلط ما لا يختلط.. ودخلت بالتحليل إلى مناطق كانت نائية تماماً عن جغرافية الفكرة.

إن ما يجري في فلسطين جريمة تطهير عرقي وإبادة جماعية، استخدم فيها نائب وزير الدفاع الإسرائيلي مصطلح «الهولوكوست»، مما دعانا في سياق سابق للدعوة إلى تأسيس «متحف هولوكوست فلسطين في رام الله».

لكن معركة القلعة المسماة «منبحة القلعة»، هي معركة عسكرية بين محمد علي

والماليك، جاءت في سياق صراع علي السلطة، رأيت أن أقف فيها إلى جانب محمد علي العظيم، ضد هؤلاء العبيد.

لم يكن في معركة القلعة، طفل ولا امرأة، بل كانوا جميعًا من القادة السياسيين والاقتصاديين، كانوا ملاك البلاد والعباد، وأصحاب السلطة والثروة والنفوذ.

2- تعود الأستاذة صافي ناز كاظم تقول، إن منبحة القلعة دعا فيها السفاح محمد علي (باني مصر الحزينة)، الأمراء المصريين.. ليتمكن من التخلص منهم.. هذا (الأرناؤطي الماحور)... وهو رأي غريب في شأن محمد علي وشأن الماليك، فالرجل الذي يصفه عموم الوطنيين المصريين بـباني مصر الحديثة، وصفته الكاتبة بـباني مصر الحزينة، وأما العبيد الذين وصفتهم بالأمراء المصريين،

فإنني أترك الرأي هنا للكاتب الدكتور نبيل فاروق، الذي كتب في «الدستور» تحت عنوان «الماليك يقول»، كانت مصر تخضع كلها لحكم جائر ظالم مستبد، هو حكم الماليك الذين أتوا من كل بقاع الأرض كتابعين وحرس، ثم أصبحوا الحكام الفعليين يتقاسمون الثروة والقوة والنفوذ والسلطة، وعاش الشعب فقرًا ما بعده فقر، وفسادًا ما بعده فساد، وهم يزيدونه فقرًا وعذابًا، يفرضون الضرائب والجبايات لكي يزدادوا ثراء وطغيانًا.

وبقي الماليك ينتفخون من التخمّة في بلد يموت من الجوع.. وعندما جاء نابليون لاحتلال مصر، كان هؤلاء الطغاة أول من فر، وأخذ ذيله في أسنانه وطار، ولما غادر الفرنسيون، عاد غضنفرات الماليك للظهور.. يتصارعون ويتقاتلون لقهر الشعب مرة أخرى.

3 - اختتمت الأستاذة صافي ناز كاظم تقول، «صحيح يا حرام.. اللي خلف مامتش»، وهي خلاصة معيبة جاءت من مقدمات خاطئة، فما كانت دعوتي من أجل الديكتاتورية ولا المذابح الحمقاء ولا هدم الدول والأوطان.. بل كانت تقديرًا لتجربة زعيم عظيم، أخرج وطنًا كاملاً من الظلمات إلى النور، وتقديرًا لجريمة رائعة أنهت العصور الوسطى.. وبدأت العصر الحديث.

صلاح سالم.. ثائراً وتصارعاً !

لا يستحق السيد صلاح سالم، عضو مجلس قيادة ثورة يوليو، أن يطلق اسمه علي أكبر وأشهر شوارع القاهرة.. إنني أدعو إلي تغيير اسم شارع صلاح سالم الذي يمتد من الجيزة إلي مطار القاهرة، واختيار اسم آخر يتناسب وزنه واعتباره مع هذا الشارع الكبير.

لماذا لا يصبح اسم الشارع.. شارع جمال عبدالناصر، فالرئيس عبدالناصر هو قائد الثورة، ويحتل اسمه موقعا بارزا في تاريخ العالم في القرن العشرين؟ أو أن يصبح شارع طه حسين أو نجيب محفوظ.. وكلاهما قيمة مصرية خالصة، وقيمة عالية مؤكدة.. أو أن يصبح سعد زغلول أو أحمد عرابي.. وكلاهما قاد ثورة وطنية مجيدة.. تعثر عرابي وله اجر، واحتاز سعد وله اجران.. أو أن يصبح أحمدس أو إخناتون.. وكلاهما دلالة كافية علي حضارة خالدة. إن إطلاق، ثم إبقاء، اسم صلاح سالم علي هذا الشارع.. لهو دلالة فوضي في التقدير وخلل في التكريم.. وجهل كامل بحركة التاريخ.

* ولد صلاح سالم في عام 1920 في شرق السودان، تخرج في الكلية الحربية عام 1938، وانضم للضباط الأحرار قبل الثورة، ليصبح مع أخيه جمال سالم عضواً في مجلس قيادتها. وقف الي جانب عبدالناصر في الصراع مع محمد نجيب عام 1954. تولي ملف السودان وملفات أخرى، وعمل صحفياً وأصبح رئيساً للتحريض ثم نقيباً للصحفيين، وتوفي عام 1962.

* اشتهر صلاح سالم بالقدرة علي الخطابة، وأطلق عليه خطيب الثورة، وقد تقلبت علاقته بالرئيس عبدالناصر، وكان جريئاً عليه، وارتبطت العائلتان لاحقاً بعلاقة نسب، حيث تزوج حفيد الرئيس عبدالناصر من حفيدة السيد صلاح سالم.

* يحسب لصلاح سالم كونه وطنياً، عمل مع الفدائيين قبل الثورة، وفي عامي

1946 و1947 كان يشارك في جمع الذخيرة من معسكرات الجيش، من أجل المقاومة السرية ضد الإنجليز. واستطاع في حرب فلسطين عام 1948 أن يتسلل مع فدائيين آخرين إلى القوات المصرية المحاصرة في الفالوجا.. ومعه قافلة تموين.

كان صلاح سالم في هذا مثل مئات، بل آلاف، بل أكثر من عموم الوطنيين المصريين، وإذا كان هو قد خاطر بحياته، فهو يستحق بالقطع الإشارة والإشادة، لكن صلاح سالم بعد الثورة شأن آخر.

* مثل صلاح سالم حصناً من الثورة، لا إضافة لها، كان وجهها المتهور غير الناضج وغير المسؤول. ولو كانت ثورة يوليو قد مضت في طريقها، دون رجال من نوع صلاح سالم وجمال سالم وعبد الحكيم عامر، لكان لدينا مصر أخرى غير مصر اليوم. اضاع صلاح سالم السودان، ومثل في زيارته الشهيرة، التي رقص فيها شبه عار مع زعماء القبائل، نموذجاً لضعف الراسل والرسول. كانت الثورة أصغر من إدارة وطن، وكان أعضاؤها أضعف من إدارة أنفسهم.

* يقول الأستاذ محمد صلاح سالم، نجل صلاح سالم في حوار، نشرته مجلة «الشباب» في مارس 2000، لقد اختير أبي للمسؤولية عن قضية السودان، ربما بحكم ولادته بها، رغم أن معلوماته عنها لم تكن تزيد علي ما درسه في المدرسة، ويضيف، كان أبي سريع الغضب حاد الطباع... وأنه «ربما تعدي علي محمد نجيب أثناء أزمة مارس».

* لقد أشرت في كتابي «ما بعد إسرائيل» إلي أن صلاح سالم ألقى خطبة في المحلة الكبرى عام 1953 نادي فيها بالصلح والتطبيع مع إسرائيل. وقد نشرت الأهرام حواراً مع الأستاذ أحمد نافع.. قال أحمد نافع: «أجريت حواراً مثيراً مع صلاح سالم عام 1954، وكان وزيراً للإرشاد القومي، وقد قال في الحوار إن مصر علي استعداد لإعادة النظر في موقفها من حلف بغداد، فيما لو وافقت إسرائيل علي السماح لمصر بإقامة ممر بري بين غزة والأردن.. وقد صدر الأمر باعتقالي بعد نشر هذا الحوار».

وكان الأستاذ مصطفى أمين قد نقل للرئيس عبدالناصر حواراً بين الأستاذ صلاح هلال والسيد صلاح سالم، قال فيه سالم لهلال: «إن بعثة مصرية سافرت إلي روسيا لشراء سلاح، وأن أول شحنة (ميج) قد شحنت فعلاً، فاتهم عبدالناصر صلاح سالم بالخيانة وضرورة المحاسبة».

ويذكر الجميع موقف صلاح سالم في حرب 1956، حيث طالب بأن يسلم
عبدالنصر نفسه للسفارة البريطانية. ويذكر عبداللطيف البغدادي، في مذكراته، أن
«صلاح سالم ذهب إلى عبدالناصر، وأقنعه بالانسحاب من سيناء.. ولما حدثت غارة جوية
كان يصير علي أن يغادر مبنى القيادة ونختفي!»

** إلى أن يتم تغيير اسم شارع صلاح سالم.. سنواصل بحثنا في إطار مركز المؤرخين

الجلد.

أحد عشر عاماً

قامت ثورة يوليو في عام 1952، وانتهت في عام 1956، ثم توالى الأخطاء، من وحدة خاطئة مع سوريا في 1958، إلى فشل في حماية شمال الدولة من الانفصال في عام 1961، إلى حرب خاطئة في اليمن عام 1962، ثم إلى كارثة كاملة في عام 1967 يري التيار الناصري أن مجد الرئيس عبدالناصر قد تأسس عام 1956 ثم انطلق عاليا في السنوات اللاحقة، واري أن مجد جمال عبدالناصر قد بدأ عام 1952 وانتهى عام 1956، لكي تبدأ مصر حقبة رديئة امتدت أحد عشر عاماً من الأخطاء، من 1956 إلى 1967.

* أحد عشر عاماً من تخريب الجيش، بدأ بترقية اللواء عبدالحكيم عامر إلى رتبة المشير، وبعد هزيمة في سوريا وهزيمة في اليمن وهزيمة في سيناء، فوجئنا بعد 1967، بأن لدينا رجال حرب كباراً بوزن الفريق فوزي والمشير الجمسي والمشير محمد علي فهمي، وأن لدينا قادة جو بوزن حسني مبارك وقادة مدفعية بوزن عبدالحليم أبوغزالة، ولدينا فوق هؤلاء جميعاً قائد حرب عملاق بوزن الفريق سعد الدين الشاذلي، وأسطورة علم وأخلاق بوزن الفريق عبدالمنعم رياض.

* أحد عشر عاماً من تكسير الحرية، أشخاص لا قيمة لهم ولا لرؤسائهم ولا لرؤساء رؤسائهم، كان يمكنهم أن يسحقوا من شاءوا ويسجنوا من شاءوا، يرفعون ويخفضون، يمنحون ويمنعون، بهم ومعهم تحولت السياسة إلى كاميرات وحراس القيم إلى لصوص صور كل هدفهم لقطة عارية أو سرير ممتلئ!

أحد عشر عاماً من الكلام عن الاقتصاد، فقط أرقام عن الخطط وأرقام عن التصنيع المدني والعسكري، وحين أسمع السيد عزيز صدقي متحدثاً عن عصر الصناعة في هذه السنوات- لا أذهب كثيراً في التحليل والتنقيب، ولا المراجعة والتقييم. ها هي مصر وها هي كوريا وسنغافورة وماليزيا وأيرلندا. ها ما فعلنا في أحد عشر عاماً من المجد، وها ما فعل

الآخرون في أقل من عشر سنوات، هذه مصانعنا ومصانعهم، شركائنا وشركائهم، بدايتنا وبدايتهم، تكلفتنا وتكلفتهم.

* أحد عشر عاما من تكسير القيم، نهاية قيم الكفاءة والامتنياز، وحلول قيم الثقة والولاء، اختفي أهل العلم والدراية وساد السماعون للكذب الأكالون للسحت، اختفي الدارسون والعارفون وحل السكرتارية والسعاة للتلصصون وأهل الهوى!

* أحد عشر عاما من الزايدات الرخيصة، من الفاسدين الذين يناهضون الفساد، من ضعاف النفوس الذين تدربوا علي أفضل الطرق للتأثير، وأسهل السبل إلي البكاء، من الذين توصلوا إلي اعظم حيلة سياسية في وطن جريح سحق أمريكا وإسرائيل أمام الكاميرات، ثم سحق الوطن بعد أن يصمت الميكروفون وترحل العدسات!

إنني واحد ممن يقدررون الرئيس عبدالناصر لسبع سنوات، كان الرجل عظيما ما بين 1952 و1956.. ثم عاد عظيما بعد يونيو 1967.

عاش ناصر 1952 في 1956 ومات ناصر 1956، في 1967، وبعث ناصر 1967 في 1970، كانت حرب الاستنزاف هي التي صاغت لعبد الناصر هذه الجنازة التي تنبض بالحياة.

كل عام ونحن أفضل، فمصر 2007 ليست بخير!

المستير عامر وحسن نصر الله!

خاض السيد عبدالحكيم عامر خمس حروب انهزم فيها جميعاً، خاض حرب 1948 ضابطاً وانهزم، وخاض حرب 1956 قائداً وانهزم، وخاض معركة انفصال سوريا وانهزم، ثم خاض حرب اليمن وانهزم، ولم يقبل الرجل أن يخادر عالمنا قبل أن يهدينا «أم الهزائم» في حرب 1967، ثم ترك المشير مدرسة كاملة في انتصار اللسان وانكسار السلاح.

حوّل المشير عامر علوم الحرب إلى مجرد ثروة عسكرية، وحوّل الخطط والخرائط في ميادين القتال إلى محافل ومكائد لا تليق بمقام الرجال!

كان عبدالحكيم عامر مجرد ضابط عادي لا يشي بالكثير مما يلفت الانتباه أو يثير الاهتمام، ثم كانت الثورة المجيدة التي أكلت أبناءها، وتركت مصائر الوطن في أيدي عدد من الذين لا تتجاوز قدراتهم إدارة اتحاد للطلاب أو جمعية تعاونية.

ابتعد عن الواجهة أولئك الضباط الذين كانوا يعرفون ما هو أكثر من الثورة، ممن كان لهم رأي ورؤية، وإدراك للعالم الخريطة وحقائق الأشياء، وبقي في الواجهة من يجيدون لغو الحديث ولهو السلوك.

تولي عبدالحكيم عامر - الذي لا يعرف شيئاً عن الحرب والقتال، ولا يعرف شيئاً مهماً عن أي شيء آخر - قيادة الجيش المصري في حرب 1956.

كان العدوان الثلاثي على مصر في هذه الحرب مروعاً، وكانت تقوده عاصمتا القوة في العالم الحديث لندن وباريس، وكانت القاهرة خارجة للتو من جراح الثورة وآلام التحرير.

وقد أدي الوضع الدولي الجديد الذي كانت تحل فيه واشنطن وموسكو محل لندن وباريس، مضافاً إليه وسابقاً عليه موقف القيادة السياسية والمقاومة الشعبية العظيمة إلى

هزيمة العدوان وتأكيد الاستقلال الوطني.

لكن حرب 1956 قد انتهت إلى نجاح سياسي مصحوب بالفشل العسكري، وكان ذلك الفشل العسكري ذريعاً، ولم يكن عبدالحكيم عامر في أدائه يزيد علي الخطابة والدعاء!

وكان الطبيعي أن يرحل عامر غير مأسوف عليه، وأن يتولي قيادة الجيش من يعيد بناءه بعد عصور الاستعمار اللعينة، وأن يؤسس لقوة عسكرية محترمة تليق بمكانة الوطن وآمال المواطنين. لكن اللواء عبدالحكيم عامر صار مشيراً، والعسكري المتواضع الذي انهزم أصبح واحداً من مارشالات العالم الكبار!

كان بإمكان المشير عامر إذن أن يحمد الله ويشكر الظروف، ليبدأ بناء جيش وطني قوي ليستفيد من محنة 1956.

لكن المشير راح يدير جيشاً أكبر يتمدد من القاهرة إلى دمشق بمثل ما أدار به جيش 1956، وحكم المشير سوريا التي أصبحت تمثل دولة واحدة مع مصر منذ عام 1958 ثم انفصلت سوريا دون أن يطلق المشير رصاصة واحدة للدفاع عن دولة الوحدة، بل إنه هو شخصياً قد جري اعتقاله وإهانته وترحيله!

كان بإمكان المشير من جديد أن يستوعب الدرس، درس الأداء العسكري غير اللائق في حرب 1956، ثم العجز الكامل علي الإدارة العسكرية لانقسام الدولة في 1961. ولكن المارشال راح يعطينا درساً جديداً في اليمن!

مثل الأداء العسكري المصري في اليمن كارثة لا حدود لها، وبلغت خسائر جيشنا في اليمن أكبر من خسائره في حرب أكتوبر 1973.

فشل المشير في مواجهة قبائل يمنية فقيرة في الليل والسلاح الحديث، وطيلة سنوات الحرب الممتدة من عام 1962 إلى عام 1967 لم يحسن المشير من أداء قواته حتي وقعت الواقعة فجري سحب قواتنا من هناك إلى هنا.. فقد حلت ببلادنا أم الكوارث في يونيو 1967. لم يطلق المشير رصاصة ولا طائرة ولا دبابة.. لم يفعل الرجل أي شيء.. أي شيء.. وأكرر للمرة الثالثة أي شيء!

لقد تذكرت المشير عامر هذه الأيام، بينما حرب لبنان تتوالي يومياتها، وحين تابعت أداء السيد حسن نصر الله وما تضمن أدائه من إطلاق لصواريخ وإزعاج لحيفا وإصابة لقطعة

عسكرية بحرية وقتل أربعة من طاقمها، والحفاظ لأكثر من عشرة أيام من القتال علي عدم
أسر أي من مقاتليه!

تذكرت في هذه الأثناء المشير عامر الذي كان يملك جيشاً وسلاحاً وقضية،
ولكنه....!

لا رحم الله من أسسوا للهزيمة في هز الوطن، ولا سامح الله كل من تسببوا في وضعنا
الراهن.. فيمن جعلونا مجرد شهداء في الساحات ومناضلين علي الشاشات!
إن أداء السيد حسن نصرالله لا يمثل معجزة، ولكن أداء للارشال عبدالحكيم عامر كان هو
المعجزة!

المتتير عامر ليس حائط ميكي

أرسل الدكتور طارق حسن عامر نائب محافظ البنك المركزي وابن شقيق المشير عبد الحكيم عامر رداً مطولاً علي مقالتي السابق، وكنت قد كتبت مقالاً بعنوان «المشير عامر وحسن نصر الله وقلت فيه: إن المشير عامر خاض خمس حروب انهزم فيها جميعاً، خاض ضابطاً حرب 1948، ثم خاض قائداً حرب 1956، وانفصال سوريا 1961، وحرب اليمن 1962، وحرب يونيو 1967. وقلت: إن المشير عامر قد حول علوم الحرب إلي مجرد ثروة عسكرية، ثم ترك لنا مدرسة كاملة في انتصار اللسان وانكسار السلاح.

وقد تضمن رد الدكتور طارق عامر نقداً تفصيلياً لكل ما جاء في المقال، وفيما يلي النص:

إلي أحمد السلمانى.. تحية وبعد:

قرأت مقالك بعنوان «المشير عامر وحسن نصر الله ولقد وجدت أن الكتابة قد تخطت حدود النقد الموضوعي، فأخنت تكيل الاتهامات والأحكام القاسية والباطلة تقييماً لشخص المشير عامر، وإنني لم أدرك علي ماذا من معلومات أو بحوث أو دراسات استندت وأهلتك للحكم علي أداء شخصية لعبت دوراً كبيراً في تاريخ مصر الحديث.

ولا أعتقد أن خبرتك قد تؤهلك للحكم علي قدرات المشير عامر العسكرية، ولا أنت مؤرخ علي دراية بالأحداث ومن الواضح أنك حديث السن، وغالباً لم تكن قد ولدت بعد حين فقد المشير حياته في سبتمبر 1967.

وقد وجدت من واجبي أن أحيطك علماً بما لا تعرفه قبل أن تصب جام غضبك علي رجل لم تقابله في حياتك، وأصحح لك ما أخطأت في تقديره.

إن عبدالحكيم عامر ليس حائط مبكي، كلما أصابتنا مصيبة نهيل عليه التراب ونلعنه!

بداية.. المشير عبدالحكيم عامر خريج الكلية الحربية وحاصل علي شهادة كلية أركان حرب القوات المسلحة.

إن عبدالحكيم عامر لم يهزم في حرب 1948، لأنه لم يكن قائداً لتلك الحرب، فلقد هُزمت كل الدول العربية مجتمعة في هذه الحرب بالرغم من أن إسرائيل كان جيشها محدوداً جداً، ولقد نال المشير عبدالحكيم عامر نوط الشجاعة، نتيجة بلائه بلاءاً حسناً في تلك الحرب، ونال ترقية استثنائية، وأصيب وعاد إلي الجبهة بعد الإصابة بسبب العمليات العسكرية التي قادها.

لقد عرف عن عبدالحكيم عامر الرجولة والشجاعة الفائقة والوطنية والشهامة وإنكار الذات، وكان واحداً من أنبل وأشرف من أنجبتهم مصر، ونال شعبية في الجيش المصري لم ينالها قائد من قبله، وذلك لإنسانيته المتناهية في التعامل مع صغار وكبار الضباط، فهل حاربت أنت في سبيل مصر لتتطاول علي هذا الإنسان؟

لقد وصف الرئيس أنور السادات أداء المشير عامر في حرب فلسطين وقيادته للجيش ليلة الثورة بشجاعة فائقة، أنها أشبه بقصص الأساطير التي رواها لنا أجدادنا. هذا هو عبدالحكيم عامر.

وفي حرب 1956.. كانت مصر لديها جيش صغير يواجه جيوش ثلاث دول كبرى، فماذا كنت تعتقد من نصر! ولكنك إذا كنت تقرأ التاريخ لجنرالات محترمين، لكنت قرأت مقالات أحد أكثر الشخصيات احتراماً في الجيش المصري الفريق حافظ إسماعيل مساعد الرئيس السادات ومساعد المشير في حرب 1956، إن الجيش المصري أدي أداء رائعاً في حدود الظروف التي كان يمر بها، وكانت القيادة علي أعلى مستوى من المسؤولية والأداء.

وللتاريخ.. فإن صاحب قرار الانسحاب وإنقاذ الجيش في سيناء من التدمير والتطويق هو المشير عامر، حيث اتخذ هذا القرار استشعاراً منه بالخطورة رغم معارضة جميع زملائه بمن فيهم الرئيس عبدالناصر، تلك هي مواقف الرجال يا سيدي، وأنه من السذاجة الاعتقاد أن جيش مصر في ذلك الوقت كان ينتظر منه الانتصار في معركة غير متكافئة علي الإطلاق!

أما في حرب اليمن.. رجاء قراءة المراجع الدولية علي أداء الجيش المصري في هذه الأراضي الوعرة الجبلية، بالرغم من الخسائر الكبيرة، ولم يكن عبدالحكيم عامر إلا منفذاً لقرارات سياسية بالدخول في اليمن، وكانت الثورة المصرية لها فلسفتها في ذلك الوقت. إن هذا الرجل الشريف يستحق منكم أحسن من ذلك.

طارق حسن عامر

ابن شقيق الشير عامر

العُمدَةُ والجنرال!

كتبت - في السابق - مقالاً بعنوان «المشير عامر وحسن نصرالله، وانتقدت فيه مجمل مسيرة عبدالحكيم عامر ضابطاً وقائداً، ومشيراً.. وقد نشرت رد الدكتور طارق حسن عامر نائب محافظ البنك المركزي وابن شقيق المشير عامر، وهنا تعقيب من جانبي علي ما أورده ابن شقيق المشير في رسالته «المشير ليس جانيب مبكي.. والخونة تخلصوا منه لشجاعته».

البدائية

ان ما دفعني للكتابة في هذا الموضوع هو دافع وطني بحت، فليست الغاية من استحضار المشير عامر الآن هو النيل منه أو الحط من شأنه أو تشييده حائطاً للمبكي كلما حلت النوازل، ولا الغاية أيضاً هي تكريس انفعال العامة بالأداء العسكري لحزب الله وحسن نصرالله، ولا أذهب في هذا أبداً إلى المقارنة بين تجربة أخلاقية يخوضها حزب الله وبين معركة عسكرية عملاقة خاضها جيشنا الباسل في عام 1973.

وقد قلت - ومازلت أقول - إن أداء حزب الله لا يمثل معجزة، ذلك أن قياس الجماهير العربية لأداء حزب الله مقارنة بحروب عبدالحكيم عامر وحروب صدام حسين هو قياس باطل، فلم تكن هذه حروباً ولم يكن هؤلاء قادة، وإذا كانت إسرائيل في لبنان قد قتلت ألفاً وأصابت ثلاثة آلاف وشرحت مليون شخص واحتلت الشريط الجنوبي وأبادت الحرث والنسل ولم تترك جريمة إلا ارتكبتها، فإن أبسط أداء دفاعي هو ما يفعله حزب الله، إذا قصف إسرائيل بالصواريخ وإصابة بارجتين وتدمير دبابتين وقتل عدد من العسكريين الإسرائيليين، هو الحد الأدنى وليس الحد الأقصى للأداء، وإلا فما هو تقديرنا لأرواحنا وأوطاننا إذا كان ثمن قتل لبنان أقل مما فعل حزب الله؟

إن حرب 1967 كانت كارثة لا تعبر أبداً عن وضعية ولا مكانة ولا كرامة الجيش

المصري، وإن حروب صدام حسين الثلاث لم تكن تعبيرا عن وضعية ولا مكانة الجيش العراقي، إن حرب صدام الأخيرة من أم القصر الي بغداد كان أداؤه فيها أقل من أداء لصوص حديشي الإجرام أو حراس الملاهي الليلية، وأن أكبر جريمة يمكن أن نرتكبها في حق أنفسنا هو أن نعتبر ما يفعله حزب الله نوعا من المعجزة، ذلك أن ما فعله المشير عامر وصدام حسين كان هو المعجزة!

العمدة والجنرال

سوف أتجاوز ما قاله ابن شقيق المشير في رده من اتهامات لي بعدم المعرفة وضعف الاطلاع وقلة الخبرة وحداثة السن، وأذهب الي خلاصة ما قال، يقول الدكتور طارق عامر، لقد عرف عن عبدالحكيم عامر الرجولة والشجاعة والوطنية والشهامة وإنكار الذات.. وأنه نال شعبية في الجيش المصري لم ينلها قائد من قبله.. وأنه كان يتسم بالإنسانية المتناهية تجاه صغار وكبار الضباط..

وظني انه لا يوجد من يختلف مع هذا القول إذ تكاد تجمع الكتابات الخاصة بهذه المرحلة علي شهامة ومروءة ودفع المشير تجاه رجاله وتجاه كل من يصل اليه، إن أحدا لم يطعن المشير في صفاته الشخصية، فقد كان الرجل خلوقاً من بيت أصيل، كما أن أحدا لم يطعن المشير في وطنيته، وحتى الكتابات الصفراء والاتهامات الشاردة التي لم تترك أحداً دون وصمه بالخيانة والعمالة لم يجرؤ أي منها علي وصف المشير بشيء من ذلك، فالشهامة كصفة أصيلة في أخلاق المشير والوطنية كمرجع أساسي لوطنية المشير هما أمران مؤكدان تماما.

ولكن القضية ليست هنا، ذلك أن الوطنية أمر لا يثاب المرء عليه وهي ليست أساساً للمديح ولا سببا للتقدير، فالوطنية كالطعام والهواء، فلا أحد يستحق الشكر، لأنه تناول الغداء أو يتوجب الإجلال والإكبار، لأنه ظل يتنفس علي مدار اليوم بلا انقطاع!

وأما قيم الشهامة والمروءة والإنسانية فهي قيم فاخرة توجب التقدير، لكنها جميعا قيم خارج السياق، فنحن لسنا بصدد تقييم عريس يتقدم للزواج ولا شريك يرغب في التجارة ولا جار يبحث عن سكن، إن تقدير الجنرالات، لا يكون بهذا القول إن أحدا لم يحدثنا عن شهامة الماريشال مونتجمري تجاه أصدقائه، ولا رجولة إيزنهاور تجاه رفاقه، ولا المروءة الشخصية لروميل في ميادين القتال إن الحرب لا تعطي انتصاراتها لمن يتسمون بالرقعة وطيب الأصل، ولا تمنح ميادين القتال جائزة لأحسن أخلاق، بل الحروب مكر وخديعة ودهاء، وهي

فن وعلم، وهي تخطيط وتنفيذ، وهي مكان وزمان، وهي إقبال وإدبار وإقبال من جديد، وهي صواريخ وطائرات ودبابات وهي عقول وأنفس وأرواح.

الحروب جغرافيا لا مواعظ، وتغليب إرادة لا ارتفاع أصوات الحروب هي تخريب وتدمير، هي شر مطلق، والجنرالات العظام هم من يجيدون إدارة الشر وإحكام الخراب، إن الصفات التي تفضل بها الدكتاتور طارق عامر واصفاً بها عمه المشير عامر، هي صفات صادقة وصحيحة.. ولكنها صفات عمدة لا جنرال ورجل كلام لا رجل قتال، وهي تصلح حكاية للسمر لا حماية للوطن.

إن الحوار الآن بشأن «حروب المشير» ليس بكاء علي حائط قديم، بل هو إعادة نظر فيما فات تحسباً لما هو آت..

الفريق الشاذلي 1948

الفريق سعد الدين الشاذلي واحد من اعظم جنرالات الحرب المعاصرين.. خاض حرب 1948 ضابطاً في الحرس الملكي وقاد حرب 1973 رئيساً للأركان، وهو يقع في مصاف كبار العسكريين في العالم.

ولد الفريق الشاذلي في قرية شبراتنا مركز بسيون في محافظة الغربية عام 1922، كان والده من الأعيان حيث تمتلك أسرته سبعين فدانا، وابن عم والده هو عبدالسلام باشا الشاذلي مدير مديرية البحيرة.

ينتمي الفريق الشاذلي لعائلة عسكرية، وقد مات جده وهو يقاتل في حروب إسماعيل باشا في السودان، وشارك أفراد من عائلته في الثورة العربية وثورة 1919، وانقطعت صلة العائلة بالحياة العسكرية بعد انكسار الثورة العربية والاحتلال البريطاني لمصر عام 1882 لتعود الصلة بالتحاق أحد أفراد العائلة بالكلية الحربية عام 1933 ثم التحاق الفريق الشاذلي بها عام 1939، أصبح الفريق الشاذلي ضابطاً برتبة ملازم في يوليو 1940، ثم انتسب للخدمة في الحرس الملكي عام 1943.

سألت الفريق الشاذلي عن هذه المعادلة الصعبة، أن يكون ضابطاً في الحرس الملكي في ظل الاحتلال.. قال: كانت بريطانيا تحتل مصر، وكان الإنجليز موجهين، لكن سيطرتهم على الكلية الحربية لم تكن كاملة، وكانت هناك إمكانية للضباط الوطنيين لأن يعملوا في حدود المتاح، وكان هذا متاح موجوداً باستمرار.

وأما خدمتي في الحرس الملكي فلم تكن موضع اعتراض كامل في نفوسنا، فقد كان الملك هو الرمز السياسي للبلاد، ولم تكن نعرف الكثير عن فساد أو ولائه للإنجليز، وبعض الذي سمعناه فيما بعد كان يحوي درجة من المبالغة.

وبدورنا فقد كنا كضباط نعادي الإنجليز، كنا ننتقدهم ونهاجمهم دون أن نواجه بتحقيقات قاسية، وكان هناك من الضباط من يتجاوز النقد والهجوم إلى المشاركة مع التنظيمات السياسية في قتل وملاحقة الضباط الإنجليز. في هذه الأجواء جاءت حرب 1948. سألت الفريق الشاذلي عن الحرب وعن دوره فيها، قال، حين صدر قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين عام 1947 ورفض العرب، انعقد مؤتمر في أنشاص، برئاسة الملك فاروق وتقرر دخول الحرب.

يتذكر الفريق الشاذلي، كنت في هذه الأثناء ضابطاً في الحرس الملكي، وقرر الملك أن تشارك سرية من الحرس في الحرب علي أن تشكل من المتطوعين، وكنت واحداً من الذين تطوعوا ضمن هذه السرية الملكية للقتال، وكان من حظي أنني شاركت في معركتين مهمتين، معركة دير زنين ومعركة مبيت سليم.

سألت الفريق الشاذلي عن تقييمه لحرب 1948، قال، لم تكن رتبتي وقتها تسمح لي بالإلمام بالموقف العام، وما أراه أن هذه الحرب قد كشفت لنا مدى ضعف التعليم العسكري وتدهور عمليات القتال، كانت دراستنا في الكلية الحربية نظرية، كنا نخوض القتال علي الورق، إننا لم نر القنبلة اليدوية أثناء دراستنا قط، وحين تخرجنا وجدنا أنفسنا في جيوش لا تحوي غير البندقية والرشاش.

وفوق ذلك كان الاحتلال جائماً علي صدورنا، وكان الوضع الدولي في صالح إسرائيل حيث أيدت موسكو وواشنطن قيام إسرائيل منذ اللحظات الأولى، وكانتا هما مصادر التسليح في العالم، من هنا جاء اللجوء إلي السوق السوداء،

وهي سوق تباع مخلفات السلاح بغير ضمان، وكان من بين ذلك ما تم تسميته بالأسلحة الفاسدة، وقد كانت الأسلحة الفاسدة موجودة ولكنها محدودة للغاية، ولا يمكن أبداً تحميلها مسار الحرب، وبعض الأخطاء التي وقعت لم تكن نتيجة فساد الأسلحة، ولكن نتيجة عدم المعرفة العسكرية، مثل القنابل التي كنا نفاجأ بانفجارها بعد ثلاث ثوان لا بعد سبع ثوان كما كنا نعرف، وكنا نعتقد حينئذ أن القنبلة فاسدة، وهذا غير صحيح، أما علي صعيد القوات فقد كان أقصى ما حشدته الدول العربية من أربعين إلي خمسين ألف فرد بينما حشدت إسرائيل مائة ألف في جبهتها بينهم لواء يهودي قاتل إلي جانب الحلفاء في الحرب العالمية الثانية!

كان العرب لديهم سلاح طيران ولم تكن لدى إسرائيل طائرة واحدة، ولكن حين قام الطيران العربي بقصف إسرائيل تصدى له الطيران البريطاني وأسقط خمس طائرات مصرية. لقد كانت بريطانيا هي الضامن الأساسي لعدم انتصار العرب في حرب 1948! تجيء سطور هذا المقال في مناسبة حرب لبنان 2006، وهي الحرب التي تفرض علي الفكر الاستراتيجي العربي إعادة النظر في مجمل ما كان من صراع وصدام.

الفريق الشاذلي وعبد الناصر

تحدثنا عن حرب 1948، التي كانت من بين الأسباب التي دعت إلي قيام تنظيم الضباط الأحرار، سألت الفريق الشاذلي عن التنظيم وعن عبدالناصر وعن الإخوان المسلمين وعن الثورة.. قال، كان جمال عبدالناصر قائد تنظيم الضباط الأحرار، الذي تشكل من مجموعة من الخلايا السرية التي لا يعرف بعضها بعضاً، وكنت واحداً من إحداها منذ عام 1951. كنت قد تعرفت علي جمال عبدالناصر قبل تأسيسه تنظيم الضباط الأحرار، بوقت طويل، حيث كنا نساكن سوياً في عمارة واحدة في الأربعينيات، كان عبدالناصر يسكن في الدور الثالث، وكنت أسكن في الدور الثاني، ونشأت بيننا علاقات أسرية في ذلك الحين.

وفي عام 1951 كنت أعمل ضابطاً مدرساً في مدرسة الشؤون الإدارية، وكان جمال عبدالناصر يعمل هو أيضاً في نفس المدرسة، وأصبح بيننا اتصال يومي، فقد كنا نتقابل يومياً في المدرسة التي نعمل فيها، وكنا نتحدث عن كتابات إحسان عبدالقدوس وأحمد حسين كضباط معنيين بما يجري في بلدهم.

ولما وجد عبدالناصر مني هذا الحماس فأتحتني في موضوع الضباط الأحرار، وكانت المرة الأولى التي حدثني فيها عن التنظيم عام 1951، وعلي الرغم من أن علاقتي به تعود إلي الأربعينيات، فإنه لم يذكر شيئاً عن ذلك في هذه الأثناء، والأرجح - كما قال عبدالناصر لاحقاً - من تنظيم الضباط الأحرار لم ينشأ إلا بعد حرب 1948.

قبل أن يطلب مني عبدالناصر الانضمام، كنت قد سمعت عن التنظيم ربما في عام 1950، وأثناء مناقشات عبدالناصر المنفردة معي بشأن الانضمام للتنظيم، عرفت المزيد عن الفكر السياسي للضباط الأحرار، وافقت علي الانضمام، وأصبحت عضواً في إحدى خلايا الضباط الأحرار بقيادة معروف الحضري، وعرفت لاحقاً أن الحضري كان عضواً في جماعة

الإخوان المسلمين، وبالطبع فإن الحضري كان مع آخرين ضمن ضباط التنظيم الذين كانت لهم صلة بجماعة الإخوان، مثل عبدالنعم عبدالرؤوف وأبوالمكارم عبدالحى. كان أبوالمكارم صديقاً شخصياً لى، كنت أزوره ويزورنى، وكنت أعرف توجهاته، ولكنى لم اهتم بعلاقته التنظيمية بالإخوان، أما معروف الحضري فقد كان شخصية دينية وكان مندفعاً بعض الشيء، ولا يخفى فى أحاديثه انتماءاته الدينية، وقد احتفظت معه بعلاقة عادية، عمل مشترك فى خلية التنظيم دون أن يمتد ذلك إلى صداقة أو علاقة وطيدة.

كنت أعرف عدداً من أعضاء الخلية مثل حلمى السعيد، ولم تكن نعرف شيئاً عن الخلايا الأخرى فى تنظيم الضباط الأحرار، وقد بقيت فى عضويتي حتى قيام الثورة فى 23 يوليو 1952. سألت الفريق الشاذلى عن الثورة وعن دوره فيها، قال، قامت الثورة بينما أنا أتلقى دورة فى كلية أركان الحرب، ولم أكن بالتالى أملك القوة العسكرية التى يمكنها أن تساهم فى تنفيذ الخطة، لذلك لم يتم تكليفى بدور مباشر فى ليلة الثورة.

لقيت الثورة تأييداً فى الجيش، ولقيت قبولاً كاسحاً لدى الراى العام الذى كان قد تهاى منذ عام لحدث كهذا، فقد كان الشعب يتابع الأوضاع العامة المتدهورة وصولاً إلى حريق القاهرة، وجاءت حركة الجيش لتمتص غليان الشارع ثم لتحظى بتأييد شعبى واسع. يستطرد الفريق الشاذلى قائلاً: طلب منى عبدالناصر أن التحقق للعمل فى جهاز المخابرات فى أوائل عام 1953، وهو الجهاز الذى أعيد تنظيمه عام 1954، وقد اعتذرت وطلبت البقاء فى الجيش، وبعد ذلك بقليل ذهبت فى دورة تدريبية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت العلاقة بين الثورة وأمريكا جيدة إلى الحد الذى ترسل فيه ضباطاً للتدريب فيها.

وقد استفدت أثناء دراستى فى الولايات المتحدة، وكان من السهل الاندماج فى المجتمع الأمريكى، ولم يكن الاتحاد السوفيتى قد ظهر حتى هذه اللحظة فى الميدان، حيث كانت وسائل الإعلام تهاجم الشيوعية وتخلق حالة قوية من الكراهية إزاءها، وفى ظروف كهذه كنا ننظر للولايات المتحدة كدولة صديقة، وكانوا بدورهم ينادوننا كحلفاء. على الرغم من أنهم لم يسمحوا لنا بحضور بعض المحاضرات، لقد تغيرت الأمور فيما بعد وصولاً إلى تأميم القناة ثم حرب 1956.

عدت من أمريكا لتأسيس سلاح المظلات، وقد جاء العدوان الثلاثى على مصر، وأنا

قائد الكتيبة 75 مظلات، وصدرت لي الأوامر بأن تستعد الكتيبة للهبوط داخل سيناء خلف خطوط العدو، وكان من المفترض أن أقلع بالطائرات عند الفجر، حتي يتم إسقاطي مع جنودي في المطار، وفي هذه الليلة تدخلت القوات البريطانية والفرنسية وضربت المطارات، ودمرت القوات الجوية المصرية علي الأرض، بما فيها الطائرات المعدة لنقلنا إلي سيناء، ولم تعد لنا مهمة كمظلات في الحرب، وعملنا ككتيبة مشاة حتي انتهت الحرب. لقد مثلت حرب 1956 هزيمة عسكرية لمصر، ولكنها انتهت بانتصار سياسي وهزيمة قاسية للعدوان الثلاثي.

الفريق الشاذلي.. وحرب اليمن

رأى الفريق الشاذلي في حرب 1948 نصف هزيمة ونصف انتصار، وقال: إن الجيش الإسرائيلي كان قوامه نحو المائة ألف فرد، بينما كان قوام الجيوش العربية أقل من خمسين ألفاً، وقال: إن الأسلحة الفاسدة لم تكن موجودة علي نحو ما هو شائع، وأنها لم تشكل سبباً مهماً في ضعف الأداء، وأوضح أن إسرائيل لم تكن تمتلك طائرة واحدة في هذه الأثناء، وأن مصر كانت تمتلك سلاح طيران، وأن بريطانيا قد أسقطت خمس طائرات مصرية في هذه الحرب، ولولا دور بريطانيا لتغير الكثير مما جري.

ثم عرض الفريق الشاذلي لعلاقته بالرئيس عبدالناصر منذ السكن سوياً في عمارة واحدة في مصر الجديدة، ثم طلب عبدالناصر منه الانضمام للضباط الأحرار، وقال الشاذلي إن قائد الخلية التي انضم لها كان عضواً في جماعة الإخوان المسلمين، ووصف حرب 1956 بأنها كانت تمثل بالنسبة لمصر هزيمة عسكرية وانتصاراً سياسياً.

سالت الفريق الشاذلي عن رأيه في حرب اليمن ومقدمات النكسة، قال: ذهبت في بعثة إلي الاتحاد السوفيتي عام 1958، عدت بعدها إلي مهامي، ثم ذهبت إلي الكونغو قائداً لأول قوة عسكرية مصرية تشارك في مهام الأمم المتحدة، ذهبت إلي الكونغو تحت علم الأمم المتحدة، ولكن أهداف مصر كانت قائمة تحت هذا العلم، وحين اشتلت متاعبنا في الكونغو أرسلت مصر لنا شيكاً بخمسين ألف دولار تم تحويله باسمي في بنك يقع في مقر وجودي لأنفق منه دون قيود، وكان هذا يبعث الثقة في دورنا، حيث كنا نتبع الأمم المتحدة ولكننا نحمل سمعة مصر وسمعة جمال عبدالناصر، كانت مصر تقود حركة التحرر الوطني، وكان اسم جمال عبدالناصر بالغ الشهرة والذيع، كان بطلاً عربياً وأفريقياً واسماً عالمياً بامتياز.

لقد انتهت مهمتي في الكونغو بعد أن استقلت كثيراً من خلال الاحتكاك مع القوات

المسلحة الأجنبية هناك، عدت من الكونغو إلى مصر لأذهب بعد قليل ملحقاً حربياً في لندن عام 1961، حيث قضيت عامين، كنت أحضر خلالهما مناورات الجيش البريطاني وقضيت أسبوعاً علي إحدى حاملات الطائرات، وكانت لي اتصالات مع الأحزاب والقوي السياسية واتهمني اللوبي اليهودي هناك بأنني أتواصل مع شخصيات نازية، وكتبت الصحف البريطانية عن انتهاك الكولونيل الشاذلي للقوانين البريطانية.

عدت إلى القاهرة في 1964 وصدر قرار إيفادي إلى اليمن في 1965، وهناك توليت قيادة لواء، ومكثت بقواتي في اليمن أكثر من عام وعلت قبل أن تنتهي الحرب في اليمن، وبقيت قوات مصرية هناك حتي عام 1967، لقد عانينا كثيراً في اليمن ولكن وجود الجيش المصري هناك مكننا من إسقاط هذا النظام البدائي، وأدي في نهاية المطاف إلى استقلال اليمن والخليج عن بريطانيا، وينتقد البعض الوجود المصري في اليمن تحت دعوي أنه كان السبب في نكسة عام 1967، وهو انتقاد غير دقيق ويعمل علي تسطيح واختصار أسباب هزيمة 1967.

كما أن الانتقادات تمتد إلي ضخامة الإنفاق المصري في حرب اليمن واستهلاك رصيدها من الذهب، وحيث إن قضية الذهب هذه لا تتوافر بشأنها أرقام دقيقة، فإن ما سمعته من الرئيس عبدالناصر هو أنها لم تزد علي الـ 40 مليون جنيه شاملاً مجمل النفقات، وهو رقم محدود إذا ما قيس بضخامة الإنجازات، وعلي وجه العموم فإن الرئيس عبدالناصر قد رحل عام 1970 وديون مصر التي خاضت خمس حروب كانت 2 مليار دولار، وعندما توفي السادات كانت الديون قد صلت إلي 18 مليار دولار، ثم وصلت في الوقت الحاضر إلي 75 مليار دولار.

سألت الفريق الشاذلي عن مقدمات حرب 1967 قال: لم تكن الأسابيع السابقة لحرب عام 1967 توحى بأن ثمة حرباً علي الأبواب، فجزء كبير من قواتنا كان في اليمن، وكان اهتمام الرأي العام منصّباً علي ما يجري هناك، ولم يرد علي الذهن أبداً أن تكون حرب أخري مع عدو متمرس سوف تنشب بعد قليل.

لم نكن نعتقد بأنه يمكن لنا أن نفكر في خوض حربين من صنعاء إلي سيناء في وقت واحد، ذلك أن قدرات جيشنا لا تمكّن من قتال علي جبهتين، لكن شهر مايو 1967 قد شهد تصعيداً خطيراً وسريعاً علي الجبهة مع إسرائيل، وكان أهم مظاهر هذا التصعيد هو حشد القوات ودفعها إلي سيناء فيما يشبه المظاهرة العسكرية، وقد اعتقدت الغالبية منها أنها

استعراضات عسكرية لاغير، وكانت خطة الحشد مرتبكة بحيث تبدو هجومية تارة ودفاعية تارة أخرى، وقد خلقت هذه الأجواء حالة من البلبلة لدى أوساط العسكريين عما إذا كانت هناك حرب أم لا.

كنت برتبة لواء في ذلك الوقت، وقد تم انتدابي من هيئة التدريب لأكون بين القوات في سيناء، وفي النصف الثاني من مايو 1967 تم استدعائي للقيادة، وهناك أيقنت حالة التخبط وارتباك الخطط من طبيعة الأوامر التي تصدر لي، فمرة تأتي الأوامر بالتحرك جهة الشمال، ومرة الزم مكانك، ومرة تحرك إلي هذه المنطقة، وأخرى... بل إلي هذه المنطقة!

لقد قطعت سيناء ذهاباً وإياباً عدة مرات، وكانت معي كتيبة دبابات تمشي علي الجنزير ويجري استهلاكها بلا خطة أو سبب.. ثم كان الخامس من يونيو عام 1967!

1967.. الفريق الشاذلي

يحتل موقعا في إسرائيل!

سالت الفريق الشاذلي عن حرب 1967.. قال: عندما اندلعت الحرب عام 1967 كنت ضابطاً برتبة لواء وكانت مهمتي قيادة مجموعة مقتطعة من وحدات وتشكيلات مختلفة، كتيبة مشاة وكتيبة دبابات وكتيبتين من الصاعقة، وكان مجموع أفرادها حوالي 1500 رجل وكان الجميع يطلقون عليها «مجموعة الشاذلي».

وخلال الأسابيع الثلاثة السابقة علي الحرب، كلفت أولاً بمهمة في المحور الجنوبي ثم ألغيت ثم كلفت بمهمة ثانية في القطاع الشمالي ثم ألغيت ثم كلفت بالمهمة الثالثة والأخيرة وهي التمرکز جنوب المحور الأوسط وعلي مسافة 20 كيلومترا من الحدود الدولية، وذلك لمنع وتعطيل أي قوات للعدو تنطلق من مضيق اللسان والعين، وعندما أنهيت استعدادي لتنفيذ هذه المهمة الأخيرة كنت قد قطعت حوالي ألف كيلومتر من التحركات التي أرهقت الجنود وكان لها تأثير سيئ علي كفاءة المركبات والدبابات.

في يوم 4 يونيو 1967 هبطت طائرة الهليكوبتر في مركز قيادتي وبها ضابط اتصال أخطرني بأن «المشير عبدالحكيم عامر سيعقد مؤتمراً للقادة في الساعة الثامنة صباح باكر في مطار فايد وأن طائرة الهليكوبتر ستتواجد عندك الساعة السابعة صباحاً لتنقلك إلي هناك» وفي حوالي الثامنة من صباح يوم 5 يونيو وبينما كان جميع القادة الميدانيين يتجمعون في مطار فايد بعيداً عن وحداتهم وبينما كانت طائرة المشير عامر في الجو..

بدأت إسرائيل الحرب، وبدأت في قصف جميع المطارات وتدمير الطائرات وهي جاثمة علي الأرض تماماً كما حدث في عام 1956، وقررنا العودة كل منا إلي قيادته، لم أستطع العودة في طائرة الهليكوبتر بعد أن أصبحت للعدو السيطرة الجوية، فركبت مع اللواء عثمان نصار قائد الفرقة الثانية الذي أعطاني عربة أوصلتني إلي مركز قيادتي حوالي الساعة

الثانية بعد الظهر وطوال رحلة العودة، كنا نرى الطائرات الإسرائيلية وهي تجوب سماءنا ذهاباً وإياباً، دون أن يكون هناك أي ظهور لطائراتنا بما كان يوحي بحجم الكارثة التي أصابت قواتنا الجوية.

بعد الوصول إلي مركز قيادتي، حاولت الاتصال بالقيادة دون جدوي، كان الاتصال مقطوعاً بيني وبين القيادة في سيناء، بل وأيضاً بين قيادتي وبين القيادة العامة في القاهرة، فكانت المنطقة التي أتمركز فيها منطقة مفتوحة دون أي هيئات أرضية وبالتالي فإنها يمكن أن تصبح فريسة سهلة لطيران العدو، وكان مضيق، لصان، الذي يقع علي حوالي خمسة كيلومترات داخل حدود إسرائيل يوفر لي الحماية الجوية والأرضية،

فقررت التحرك شرقاً واحتلال المضيق. وقبل غروب يوم 5 يونيو كنت أتمركز بقواتي داخل المضيق وفي خلال يوم 6 يونيو حاولت الاتصال بقيادة سيناء دون جدوي ولم ننجح في الاتصال مع القيادة العامة إلا في الثالثة من بعد ظهر يوم 7 يونيو، وكانت أوامر القيادة واضحة وصريحة، انسحب فوراً.. العدو وراءك الآن.

سألت الفريق الشاذلي عن طريق العودة بعدما تأكدت الهزيمة قال، كان العدو خلال يومي 6 و 7 يونيو يرصدني باستمرار جواً وبراً، وكانت طائراته تمر فوق المضيق الذي كان علي شكل حرف «ا» دون أن يقصف قواتي التي كانت في بطن الجبل فإذا أنا خرجت من المضيق نهاراً فسوف تكون فرصة ذهبية لطيران العدو لكي يدمر قواتي وليس لدي أي أسلحة فعالة ضد طيران العدو.. ولهذا الأسباب قررت ألا أبدا الانسحاب من المضيق إلا بعد حلول الظلام.

وقد فعلتها وكنت صباح يوم 8 يونيو علي مسافة 90 كم شرق الإسماعيلية وقد فوجئ طيران العدو باختفائي من المضيق صباح يوم 8 فأخذ يبحث عني إلي أن وجدني في هذا المكان فأخذ يركز هجماته علينا واستمرت هجماته المتقطعة إلي أن نجحنا في عبور قناة السويس إلي الغرب بعد ظهر يوم 8 يونيو.

سألت الفريق الشاذلي عن تقييمه لحمل الحرب قال، لم تكن هناك حرب عام 1967 بما تعنيه كلمة حرب، كانت هناك ضربة جوية قامت إسرائيل بتوجيهها إلي قواتنا الجوية، وقد نجحت في تدميرها وتدمير وسائل دفاعنا الجوي في خلال ساعتين، ثم صدر بعد ذلك قرار من القيادة العامة بانسحاب جميع قواتنا إلي غرب القناة، فوصل هذا الأمر إلي بعض

الوحدات البرية ولم يصل إلى البعض الآخر وبلدت القوات البرية عملية انسحاب عام تحت ضغط مستمر من الطيران الإسرائيلي، وعندما توقف إطلاق النار يوم 9 يونيو بعد ستة أيام من بدء القتال، كانت القوات المسلحة المصرية قد أصيبت بهزيمة نكراء.

ورغم مرور أربعين عاماً تقريباً على هذه الهزيمة فلا تزال المسؤولية تائهة حتي الآن، فالقيادة العامة وعلى رأسها المشير عامر كانت تلقي اللوم على القيادة السياسية، على أساس أن القيادة العسكرية كانت تريد أن تبدأ الحرب ولكن جمال عبدالناصر رفض أن تكون مصر هي البادئة بالحرب، ويعترف عبدالناصر بأنه رفض أن تبدأ مصر القتال، ولكن بعد أن أكد له القائد العام أنه إذا بدأت إسرائيل القتال فإن خسائرنا في القوات الجوية ستصل إلى عشرة في المائة، فقال عبدالناصر، إنه أخطر القيادة العامة يوم 3 يونيو بأن إسرائيل ستبدأ الحرب خلال 48 ساعة وهذه الحقيقة يعترف بها أيضاً عبدالحكيم عامر..

إذن فنحن أمام حقيقتين مؤكدتين الحقيقة الأولى هي أن جمال عبدالناصر رفض أن تكون مصر هي البادئة بالقتال. والحقيقة الثانية هي أن عبدالحكيم عامر أخطر جمال عبدالناصر بأنه في حالة قيام إسرائيل ببدء القتال فإن قواتنا الجوية ستتحمل خسائر تقدر بحوالي عشرة في المائة من قدراتها القتالية، ومع كل ذلك فإنه لا يمكن إعفاء القيادة السياسية من المسؤولية على أساس القول بأن القائد العام للقوات المسلحة أخبرها بكذا فمن واجب القيادة السياسية أن تستجوب القائد العام فيما يقول، وأن تتوسع في استشاراتها لآراء الآخرين.. فإن أمن وسلامة مصر أكبر من أن يوضع في يد واحد أو اثنين أو حتي مجموعة صغيرة من المسؤولين.

ناصر 1957

■ في أكتوبر 1957 أطلق الاتحاد السوفيتي القمر الصناعي «سبوتنيك» ليبدأ عصر الفضاء رسمياً في العالم. وفي أبريل 1957 - أي قبل شهور من ذلك - كانت مصر تعلن المضي في هذا الطريق. قال الرئيس جمال عبد الناصر في أبريل 1957، «إن علينا أن نعيد بناء القوات المسلحة على ضوء تجربتنا في حرب السويس، وهناك مجالات لابد أن ندخل إليها. لابد أن نتمكن من صنع سلاحنا بما فيه الطائرات.. الطائرات قضية أكثر تعقيداً ولابد أن نتعاون فيها مع أحد.. أفكر في الهند أو يوغوسلافيا».

■ أيضاً هناك الصواريخ، هناك علماء المان يتخاطفهم العالم بمن فيهم الولايات المتحدة، وقد حاول بعضهم جس النبض معنا.

■ وقد قلت إننا نرحب بهم. هناك واحد بالذات اتصل بنا، ويظهر أنه شارك بشكل كبير في صنع «الصاروخ ف-2»، وقد وافقت على قدومه إلى هنا. ليست المسألة أن نتمكن من صنع صواريخ أو طائرات، اللهم أن هذه المجالات هي تكنولوجيا المستقبل.. ولابد أن نتيح للمصريين التعرف عليها والتخصص فيها.

■ يمضي العالم المصري د. محمد بهي الدين عرجون، في كتابه «الفضاء الخارجي واستخداماته السلمية، ليقول إن مصر كانت جادة للغاية في هذا الطريق، وإن ما أنجزناه كان مشرفاً وموضع إبهار في العالم.

■ كان الدكتور «عرجون» ضيف في برنامج «الطبعة الأولى» على قناة دريم، وقد فوجئت به يتحدث بفخر واعتزاز عن تجربة بلادنا في تصنيع الطائرات والصواريخ.. وأساس المفاجأة عندي ما قرأناه كثيراً من كتابات ساخرة تمنحك من الصواريخ المصرية «الظافر، والقاهر، ومن الطائرة المصرية «القاهرة -200، والقاهرة -300».

■ وظنى أن أغلب الكتابات العادية للرئيس عبدالناصر، إما أنها تجاهلت تماماً ذلك النطاق وانصرفت إلى قضايا تنال فيها من تجربة ناصر، أو أنها تعرضت لها بنوع من السخرية وقامت بروايتها كما تروى النكات والقفشات، أو أنها كانت تبدى الشماتة والتشفى لفشل تلك المشروعات الطموحة في نهاية المطاف.

■ وظنى أيضاً أن أغلب الكتابات المؤيدة للرئيس عبدالناصر كانت تهتف أكثر مما تعرف، وتصيح أكثر مما تستوعب، وتنفل أكثر مما تدرك!

■ إن جزءاً كبيراً من ذبول الشعبية الجارفة التى كانت للرئيس جمال عبدالناصر هو دور الناصريين أنفسهم، الذين تحولوا إلى جماعات تصفيق وزعيق.. ووصلوا في العداء للآخر السياسى إلى أقصى درجات التجريح والتخوين.. فكان أن كره عدد من الناس الرئيس عبدالناصر.. لأنهم يكرهون أنصاره ومريديه!

ناصر 1960

■ كانت وكالة الفضاء المصرية، بالإمكان.. وكانت خطى العلماء أرسخ وأبعد من خطب الساسة ومزايدات الاشتراكيين الجدد. ما حدث في مصر في مجال العلم في تلك الأثناء كان رائعاً ومشرفاً وعظيماً. اتفقت مصر مع الهند على الشراكة في صناعة الطائرات.. على أن تصنع الهند جسم الطائرة وتصنع مصر المحرك. وتأسست على ذلك مصانع الطيران بأفضل المهندسين المصريين.

■ وفى 9 يوليو 1960 أعلن الرئيس جمال عبدالناصر، يسعدنى أن أعلن الآن أن أول طائرة نفائة صنعت في مصر قد طارت بالفعل في الجو العربى عشرة أيام ولأول مرة، ثم قال الرئيس: «إن إنتاجنا منها يكفى حاجتنا وحاجة أى بلد عربى».

■ حكى لى عالم الفضاء المصرى الدكتور بهى الدين عرجون عن معالم مشرقه على طريق النهضة في مجال الطيران والصواريخ في تلك الحقبة الطموحة.. ويروى الدكتور عرجون في كتابه «الفضاء الخارجى واستخداماته السلمية، عما جرى في ذلك الأمل.

■ فى 7 مارس عام 1964.. وبعد عمل جاد ومضن تم تطوير المحرك، هـ - 200، ليصبح محركاً نفائاً لطائرة مقاتلة، القاهرة 200.. كما أمكن تطوير المحرك، هـ - 300، وتم تصنيع الطائرة المقاتلة النفائة، القاهرة - 300.. وقال رئيس الوزراء الهندى «نهر»، «اتفقت مع صديقنا ناصر على أنه إذا كان إنتاج السلاح مهماً.. فالأهم أن نكسر احتكار العلم كما كسرنا احتكار السلاح».

■ لم تكن هذه الإنجازات الضخمة من تلك النوعية التى يلو كها السياسيون ليل نهار.. بل كانت إنجازات حقيقية ومذهلة.. فقد جرى تصنيف الطائرة المصرية، القاهرة - 300، باعتبارها أحدث مقاتلة نفائة في العالم.. وبها دخلت مصانع حلوان ضمن مصانع

الطائرات العالمية..

و5 يونيو 1967 وقع العدوان على مصر، بعد شهرين من النكسة تحدث البروفيسور «فرديناند براندز»، الخبير الألماني بمصنع الطائرات، إلى مجلة «ديرشبيجل» الألمانية.. قال: «إن الطائرة كان مفروضاً أن تكون جاهزة للعمل تماماً بعد تطوير المحرك. لكن ظروف العدوان أدت للتأخير.. إننى وكل خبراء العالم نعتبر أن هذه الطائرة المقاتلة أخف وأرخص وأبسط أنواع المقاتلات في العالم.. وثمنها ثلاثة ملايين مارك».

■ وفى عام 1975 وصل خطاب مهم من مصمم الطائرات الأشهر «ويلي شميت» إلى اللواء عصام خليل، المشرف على مشاريع الطائرات والصواريخ في مصر في الستينيات.. يقول: «المتحف الألماني في ميونخ تأسس منذ مائة عام وهو رائد المتاحف الأوروبية في عرض مجالات التكنولوجيا المتقدمة، وقد استقر المتحف على عرض أحدث الإنتاج فيه.. وفى المقدمة المحرك النفاث المصرى (هـ - أ - 300)».

إن المتحف الألماني بميونخ، بمجلس إدارته وخبرائه، درس خصائص المحرك المصرى واعتبره واحداً من أفضل المحركات الحديثة في العالم..

بقى القول إن «ويلي شميت» تحمل اسمه أشهر طائرات القتال في الحرب العالمية الثانية. هى إذن شهادة عالمية رفيعة لجهد علمى مصرى، كان عالمياً قبل أن يتعثر في أحوال السياسة!

القمر الصناعي المصري 1967

■ لم أقرأ كتاباً واحداً عن صناعة الصواريخ المصرية في الستينيات إلا وكان ساخراً موجعاً وهو يتحدث عن تلك التجربة. كل ما قرأته عن الصاروخ القاهر والظافر كان مجموعة من النكات والثرثرة على تلك الصواريخ وعلى صناعتنا الفاشلة.. ولقد شعرت في بعض تلك الكتابات بنوع من الشماتة.. لهزيمة تلك الصواريخ عام 1967.

■ كم أشعر الآن بسعادة غامرة أن تلك الكتابات كانت خاطئة، وأن تلك النكت القاتلة التي أطلقناها حول «القاهر» و«الظافر» كانت نكتاً ثقيلة الظل خفيفة الوطنية.

■ قال لي عالم الفضاء المصري د. بهي الدين عرجون.. إن مشروع صناعة الصواريخ في مصر كان عظيماً.. وأنه يحق لكل مصري أن يحزن لنهاية ذلك المشروع، لكنه يحق له أن يفخر بأن بلادنا كانت بهذا المستوى العظيم.

■ ويروي الدكتور «عرجون» في كتابه «الفضاء الخارجي واستخداماته السلمية»، بدأت مصر بالتعاون مع الخبراء الألمان الذين عملوا مع «فون براون».. ضمت مصر طاقماً رفيعاً من العلماء والمهندسين المصريين إلى جوار العلماء الألمان.. وبدأوا معاً تطوير الصاروخ «ف-2» وفي 21 يوليو 1962 شهد الرئيس جمال عبدالناصر إطلاق الصاروخين «القاهر» و«الظافر».. كان مدى «القاهر» 600 كم، وكان مدى «الظافر» 350 كم. بعد ذلك تم تركيب الصاروخين معاً في مرحلتين ليكونا صاروخاً واحداً متعدد المراحل، اسمه «الرائد» مداه 1000 كم، وقد ظهر في العرض العسكري يوم 23 يوليو 1963.

■ كان من الممكن تطوير الصاروخ الرائد ليصل إلى حد خرق نظام الجاذبية الأرضية وحمل قمر صناعي إلى مدار حول الأرض..

■ إن إمعان النظر في التاريخ مهم للغاية.. كان ذلك عام 1963 ولم تكن إسرائيل

تملك صناعة صواريخ على الإطلاق!

لم يكن هناك من حل أمام إسرائيل الفاشلة سوى تدمير النجاح المصري، فكانت العمليات القذرة التي قادتها إسرائيل ضد النهضة المصرية.

بدأت إسرائيل حملة إرهاب العلماء الألمان في مصر، وكان أول المستهدفين من العلماء الألمان، العالم «ولفجينج بيلز» الذي كان يعمل مع العالم «فون براون» في الصاروخ «ف-2»، كما تم استهداف عالم الإلكترونيات والتحكم، «كلاينفختر» وقد غادر «بيلز» وزملاؤه بلادنا عام 1965.

■ في الثاني من أكتوبر عام 1967 تحلّت «بيلز» و«براون» إلى مجلة «شتيرن» الألمانية وقالوا، «كانت إسرائيل تخشى إطلاق قمر صناعي في ذلك الوقت حتى لا يحدث دوى هائل في العالم بأسره.. ويجتمع العالم العربي خلف مصر..»

■ ثمة مفاجأة مذهلة في هذا المقام.. إن عالم الصواريخ الألماني الكبير «بيلز»- الذي غادر مصر عام 1965 بسبب إرهاب إسرائيل خشية إطلاق قمر صناعي مصري- اختفى في ألمانيا عدة سنوات، ثم توصلت إليه الصين، وأقنعتة بالسفر للعمل فيها. ذهب «بيلز» إلى الصين وبدأ العمل في إنتاج صاروخ متطور. وما هي إلا سنوات قليلة حتى كانت الصين قد أطلقت أول صواريخها وبدأت في الانطلاق نحو صناعة كبرى للفضاء!!

فؤاد زكريا.. عصر عبد الناصر

* يحظي الفيلسوف الدكتور فؤاد زكريا باحترام واسع لدى أوساط العقل العربي. تخرج في جامعة القاهرة عام 1949، وحصل علي درجة الماجستير قبل أشهر من ثورة يوليو 1952. ترأس قسم الفلسفة في جامعتي عين شمس والكويت، وله خمسون كتاباً، ويكمل الخريف القادم الثمانين ربيعاً.

* قال لي الدكتور فؤاد زكريا: إذا كانت دعوة المؤرخين الجدد هي إعادة النظر في كل شيء فات، فانا أري أن ما يحتاج إلي إعادة النظر هو عهد عبد الناصر. لكن ما قبل ذلك لا يحتاج إلي إعادة، لأن الأمور كانت واضحة. ما قبل 1952 كانت فترة مهمة جداً في تاريخ مصر، وما كتب عنها يفصح عن مزاياها، ومحاولة طمس ذلك عمل خطير.

* طرحت سؤال الأستاذ عمرو خفاجي في مقاله للميز «المؤرخون الجدد.. الدعوة والادعاء... كيف انسحقت شعبية الوفد الجارفة أمام كاريزما عبد الناصر؟.. قال الفيلسوف، كانت شعبية الوفد حقيقية، وكان عبد الناصر يشعر بنوع من الغيرة من شعبية سعد زغلول ومصطفى النحاس، وهي شعبية أصيلة ونابعة من القلب، وليست نتيجة دعاية وتعبئة.

وهذا الشيء كان ينقص عبد الناصر، لكن أجهزة الدعاية سلت هذا النقص، لقد لعبت الدعاية دوراً كبيراً في تأسيس شعبية عبد الناصر.

كان دور الملوك قبل عام 1952 دوراً هامشياً، كانت القوة الحقيقية لدى سعد زغلول والوفد، وكان في الوفد تيار اجتماعي يساري كان يمثل عبد العزيز فهمي ومحمد مندور وإبراهيم طلعت، فيما كان يسمى الطليعة الوفدية. وكان من الممكن لهؤلاء أن يصححوا من المسار، وأن يعتلوا اتجاه الوفد إلي طريق تقدمي.

لكن رأت أمريكا وبريطانيا خطراً في الوفد وفي الطليعة الوفدية. ثم جاءت الثورة التي قطعت الطريق. وجاءت معها أجهزة الدعاية التي صنعت شعبية عبد الناصر واجتهدت في طمس ما قبل عام 1952.

* قلتُ للدكتور فؤاد زكريا.. لكن حرب 1956 كان لها دور كبير في صنع شعبية الرئيس عبد الناصر.. قال، لقد انتهت حرب السويس بنتائج أخفيت عن الشعب كله، وهي السماح لإسرائيل بعبور سفنها من المضائق، وهذا كان شرط إسرائيل، وشرط الجلاء، وهذا الشرط أخفي عن الشعب المصري، ولم نكتشفه إلا بعد حرب 1967.

ثم جاءت بعد ذلك حرب اليمن التي تسببت في غياب الجزء الأكبر من الجيش المصري هناك، وفي ظل غياب الجيش في اليمن قام عبد الناصر باستفزاز إسرائيل بإغلاق مضائق.. فعرفنا وقتئذ أن عبور المضائق كان مسموحاً به لإسرائيل.

لقد استفز عبد الناصر إسرائيل في ظل غياب الجيش.. فكانت 1967. وهي جريمة المسؤول عنها تركيبة النظام السياسي كله، ولا شك عندي أن عبد الناصر كان أكثر مسؤولية عن هزيمة 1967 من مسؤولية الجيش، عبد الناصر هو الذي استفز إسرائيل بطريقة كان يمكن تجنبها ودخل الحرب دون استعداد عسكري للحرب.

وبعد ذلك أصبحت الأمنية التي ينادي بها هي العودة إلى نفس الوضع الذي كان قائماً في 4 يونيو 1967.. وهذه ليست سياسة، هذه حماقة. أن يكون المطلوب بعد الحرب هو إزالة آثار العدوان، هذا أمر غريب، لأن آثار العدوان هذه كانت مزالة قبل 5 يونيو 1967!

* قلتُ للدكتور فؤاد زكريا.. هل تغفر حرب الاستنزاف بعضاً مما سبق؟ قال، لا أدري أي نوع من الاستنزاف قد وقع، ولن وقع هذا الاستنزاف. أنا لا أرى فيها حرب استنزاف. ما هو الإنجاز الذي حققناه في حرب الاستنزاف؟ قلت، يمكن اعتبار الإنجاز هو وقف المزيد من الهجوم الإسرائيلي. فتقليل الخسائر هو نوع من الإنجاز. قال، تقليل الخسائر ووقف المزيد من الهجوم ليس إنجازاً.

* قلتُ للدكتور فؤاد زكريا.. لكن وفاة الرئيس عبد الناصر وخروج الناس حزناً عليه ربما يمثل قراءة أخرى لسنوات الثورة والحرب.. قال، خروج الناس هذا لا يفسر من جهة السياسة، بل يفسر من الجهة النفسية، كان عبد الناصر يملأ أشياء عديدة.

كانت الدعاية تؤكد أن عبد الناصر هو الذي يقوم بكل شيء.. ثم يجد الناس أنه
فجأة يختفي.. لقد شعر الناس بفراغ كبير جدًا، مثل الابن الذي يفقد أباه.. إنه اليتيم المفاجئ،
يتيم قاسٍ.. لأن الرجل الذي كان يملأ كل شيء قد غاب إلى الأبد.

فؤاد زكريا.. عصر أنور السادات

.. قال لي الفيلسوف الدكتور فؤاد زكريا، كان السادات فاشستياً، كان فاشستياً قبل الثورة، وبقي فاشستياً بعدها. ولم يكن ديمقراطياً في أي وقت، لكنه كان يريد أن يعطي لعهد شخصية مستقلة عن عهد عبدالناصر. الليبرالية كانت أمراً مفروضاً عليه، لأنه غير الاتجاه من الشرق إلى الغرب، إلى أمريكا.. ولكي يرضي أمريكا كان لابد من بعض الإجراءات التي ينظر لها باعتبارها، ليبرالية.. أما فكر السادات وتكوينه فهو فاشستي تماماً.. يعادي الليبرالية واليسار.. معاً.

.. يذهب الدكتور فؤاد زكريا بعد ذلك في معرض تعليقه علي فكرة «المؤرخون الجدد، إلى الحديث عن حرب أكتوبر والفريق الشاذلي والأستاذ هيكل.

يقول الفيلسوف، كانت حرب أكتوبر حرباً عظيمة ومجيدة، لكن حصار الجيش الثالث وتهديد ثلاثين ألف جندي مصري باللوت عطشاً قد عجل لاحقاً بمسار التسوية. لقد أوشك الإنجاز العظيم في أكتوبر أن يتحول إلى كارثة، وقد حاول السادات أن يتفاهم مع إسرائيل من أجل حماية الإنجاز.

كان يمكن للثغرة أن تؤدي إلى كارثة أبشع من كارثة عام 1967.

وفي تقديري.. كان الفريق الشاذلي عموماً أفضل من السادات في رؤيته لإدارة الحرب، كان الشاذلي يريد حرباً كاملة، أما السادات فقد كانت عينه علي المفاوضات، لذلك كانت تعليماته قبل الحرب هي الوصول إلي 10 كم فقط شرق القناة.

وعموماً فإن العبور وحسن أداء الجيش كانا كافيين في رأي السادات للوصول إلي المفاوضات، وبالنسبة لأمريكا وإسرائيل كانت الثغرة وحصار الجيش الثالث، كافيين

للوصول إلى مفاوضات. في هذا السياق يمكن القول إن اتفاقية كامب ديفيد كانت حتمية لا مفر منها.

سألت الفيلسوف عن الأستاذ هيكل وخريف الغضب، قال: هيكل صحفي كبير، ومهني بارع، وكان يعطي المعلومات لعبد الناصر الذي كان ضابطاً محدوداً يحتاج إلى شخص يقرأ الإنجليزية، وبهذه الطريقة استطاع هيكل أن يوجه عبد الناصر إلى أشياء كثيرة. هيكل ليس مؤرخاً، ولكنه محرر جلسات كان يسجل الوقائع أثناء وجوده.

لقد كتب هيكل، خريف الغضب، عن زمن السادات، ويعني به خريف الاعتقالات التي قام بها السادات، وأنا رددت علي ذلك وقلت: إن عمر الغضب بدأ قبل ذلك بكثير. لقد حل علينا الغضب منذ أصبح لهيكل كلمة عليا في شؤون البلاد.

فاتن حمامة.. حزب الوفد

.. كان مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام بصدد إصدار دورية «أحوال مصرية»، وهي مجلة فصلية تعني بالشأن العام في مصر، قال لي الدكتور محمد السيد سعيد، لماذا لا نفكر في باب ثابت يقدم «شهادات» علي ما يجري في مصر؟

قلت، هذا رائع، واقترحت أن يكون جزء من هذه الشهادات لشخصيات لها قدرها ووزنها، ولكنها ليست غارقة في العمل السياسي، أي أنها تملك وجهات نظر بئر غير مشتبكة مع هذا التيار أو ذلك، فمن شأن تلك العفوية أن تعطي لنا من القول ما يرمم ما تساقط من الآخرين.. ذاكرة وضميراً.

.. وكانت فاتن - ذلك أنها حسب تعبير الأستاذ خيرى شلبي «أول دم حقيقي يؤرخ للمزاج المصري الخاص علي شاشة السينما المصرية».. وهي حسب الأستاذ سمير فريد «رمز مكافئ لسيد درويش في الموسيقى ومحمود مختار في النحت وأم كلثوم في الغناء».

.. قابلت السيدة فاتن حمامة في منزلها في عمارة ليهون في الزمالك، واستغرق الحوار بيننا ساعات عدة في مرات ثلاث. ونشرت مجلة «أحوال مصرية» الجزء الأكبر من الحوار، وعننا نقلت صحف ومجلات عديدة، واعتمد الدكتور وحيد عبدالمجيد الحوار مرجعاً في كتابه «الوطنية والتكفير السياسي».

.. جاءت فاتن بنت أحمد أفندي حمامة من الطبقة الوسطي المصرية التي ولدت مع الثورة العربية عام 1881 واكتملت مع ثورة 1919.

ولدت فاتن في بيت يعني بالسياسة والحياة العامة، وشاركت الطالبة فاتن حمامة في المظاهرات ضد الاحتلال البريطاني.

سألت السيدة فاتن حمامة عن البدايات، عن الوفد والسياسة.. قالت: لقد عشت حياتي فنانة تهتم بالإحساس والإبداع أكثر مما تهتم بالتطور السياسي والاقتصادي لمصر. إنني لم أخرج في السياسة ولم أدرس السياسة ولكني عشت السياسة.. عاشت حولي السياسة.

لم أشارك بالطبع في صنعها، كما لم أكن دائماً قريبة من أصحابها، ولكني عشت الحياة التي لا تخلو من السياسة.. وقد عملت نتائج وخلاصات وآراء مما عشت وليس مما تعلمت.

قلت للسيدة فاتن حمامة، نحن جيل كامل بدأ يعيد النظر في السيرة والمسيرة.. ما الذي جري في بلادنا.. من ثورة 1919 إلى ثورة 1952.. ثم إلى الحاضر الذي يحمل الكثير من آثار الثورتين..

قالت، لقد ولدت في عام 1931.. وبدأ فانا لم أعاصر ثورة 1919، ولكني كنت أسمع عنها في المنزل وأنا صغيرة، وقد توفي سعد زغلول قبل أن أولد، وعاصرت من بعده النحاس باشا ومكرم عبيد وقيادات الوفد الأخرى، وليس بإمكانني أن أبدي رأياً في الثورة فضلاً عن أن أقوم بتقييمها.

إنني لم أستوعب وقتها هذه الأحداث الكبرى، وأنا لا أستطيع أن أتحدث عن هذه الحقبة بوضوح ومسؤولية، ولكنني عرفت بمرور الوقت.. أن سعد زغلول كان زعيماً عظيماً وأن مصر كلها قد التفت حوله بصدق وحب، وبعد سعد زغلول كانت هناك شخصيات ممتازة من رجال الوفد وقيادات ما قبل الثورة.

يجب ألا نحاسب هذا العهد بالجملة، كان هناك أشخاص علي علم وخبرة، وقد كنت رغم صغري وقتها أحس بهم.. كان هناك علي ماهر والنقراشي وإبراهيم عبد الهادي والنحاس باشا ومكرم عبيد، كانوا قادة متميزين في تفكيرهم ورؤاهم وفي نمط حياتهم وإدارتهم للأمور.

.. ثم مضت السيدة فاتن حمامة تقول: «البيت الذي تربيت فيه لم تكن له ميول وفدية. لم يكن والدي، أحمد أفندي حمامة، متحمساً للوفد، بل كانت عائلتي تميل إلى إبراهيم عبد الهادي، ومما كنت أسمع في منزلنا نشأت ضد الوفد، كنت أكره الوفد».

في تقديري لم تكن فاتن حمامة تكره الوفد علي نحو ما قد يعتقد القارئ، فقد

كانت فاتن وعائلة حمامة من السعديين، وهم يمثلون انشقاقاً علي الوفد، واختلافاً مع النحاس، لذا فهم يعودون باسمهم إلي سعد باشا وليس النحاس باشا.

وكان إبراهيم عبدالهادي هو زعيم السعديين وقد تولي رئاسة الحكومة، وهو من وقع اتفاقية الهدنة المعروفة باتفاقية رودس عام 1949، وفاتن علي ذلك هي من العائلة الوفدية الكبيرة التي أسسها سعد زغلول، ولكنها اختارت لاحقاً جانب السعديين لا جانب النحاس وسراج الدين.

وقد تشربت فاتن حمامة علي نحو بريء كراهية الوفد لصالح السعديين وإبراهيم عبدالهادي وليس ضد المبادئ السياسية العامة للوفد. وتظهر هذه البراءة فيما قالت له لي حول شعورها بالضيق من حزب الوفد لأن أخاها كان ضابطاً في الإسماعيلية،

وكان يمكن له أن يموت حينما طلب الوفد منه ومن زملائه أن يتصدوا ببنادق هزيمة لدبابات الإنجليز، وهو الموقف البطولي العظيم للشرطة المصرية في 25 يناير 1952 حيث خاضت الشرطة نضالاً مجيداً ضد الإنجليز. وهو عيد الشرطة إلي الآن.

وكان شقيق فاتن حمامة ضمن هؤلاء الأبطال الذين تصدوا لدبابات الإنجليز، لكن فاتن السعدية كانت تخشي علي أخيها، وتري في الوفد سبباً في هذا الصدام

قالت فاتن، لقد نما عندي الشعور بكراهية الوفد والرغبة في الثورة عليه، قلت لفاتن حمامة، هل تضمنت هذه الكراهية ما كان يثار حول علاقة الوفد بالقصر.. قالت، لم أكن وقتها أفكر في كلام كبير، كهذا، إنني لم أكن يوماً قريبة من القصر، وكنت بشكل طبيعي أكره رجال القصر مما كنت أسمع، لأن الشائعات كانت تملأ الدنيا من حولهم، كانت شائعات كثيرة، ولكنني الآن ربما أكون أقل كراهية لهم، أنا أحلل الأمور بعقليتي لا بما سمعت من شائعات، ورأيي أنه كانت هناك إيجابيات، ولم يكن كل شيء سيئاً.

فاتن حمامة.. عبد الناصر والسادات

.. قلتُ للسيدة فاتن حمامة، إذن أنت كنت من السعديين الذين خرجوا من عباءة الوفد.. ماذا إذن عن فاتن حمامة 1952؟ كيف وجدت الثورة والثائرين؟.. قالت فاتن، استقبلتُ الثورة بالفرح الشديد، صدقناها وخطونا وراءها، كنا نحب محمد نجيب عند قيام الثورة، لقد قدموه لنا بوجهه الطيب السمح.

كنا مع محمد نجيب، ولكن عندما ظهر عبدالناصر غطي عليه وعلينا.. عبدالناصر كانت لديه كاريزما قوية.. وعندما وقع حادث المنشية عام 1954.. التف الناس من حوله وتأكدت زعامته، وقد قرأت مؤخراً في كتاب أن جماعة الإخوان المسلمين كانت وراء الحادث.

لقد شاركتُ في الدعاية للثورة، ذهبتُ مع الفنانين بقطار الرحمة لجمع أموال للمحتاجين، كنا متحمسين ونفعل ذلك بحب وصدق، زرت الصعيد وبحري لأجل هذا الغرض، وقدمتُ أفلام الثورة.

.. في عام 1956.. كانت الحرب علي مصر، ودخلت الثورة والدولة في امتحان عصيب، تقول السيدة فاتن حمامة، كان انطباعي وقتها أن بلدي تواجه ثلاثة جيوش (بريطانيا وفرنسا وإسرائيل) وكأي مصري كنتُ متحمسة لأقصى درجة، كنت مؤمنة تماماً بالثورة العظيمة.. ولكنني في داخلي لم آخذ العدوان الثلاثي هذا علي محمل الجد.. لم أتصور وقتها أن الثورة يمكن أن تفشل أو تحتل مصر مرة أخرى، لقد منحتنا الثورة ثقة كبيرة في أنفسنا وفي إمكان تحقيق النصر علي أي عدو، لذا لم أكن خائفة عام 1956.

.. إلي النكسة.. تقول فاتن، كان يوم 5 يونيو 1967.. أسوأ الأعوام علي امتداد العمر، لا أستطيع أن أحكي مشاعري، فالحزن والانكسار وحجم الدمار الذي لحق بأنفسنا وذواتنا بلا حدود، لقد أصبتُ بالذهول، لم أصدق ما حدث، شعرت بانتي لم أعد أنا.. كل شيء تحطم في داخلي.. تحطم كبريائي واهتزت ثقتي في كل شيء، لم يكن ممكناً أن أتحدث عن وطني أو

أحلامي.. كنت خارج مصر.. وزالت الضربة حتي أنني لم أعد أعرف ذاتي.. ما الذي يملكه مواطن مصري في الخارج في هذه اللحظة؟.. الدموع.. الحزن.. الإحباط، كراهية كل ما هو موجود.. الثورة والدولة والهزيمة.

هل تصدق أننا كنا نغير جنسيتنا، نعم كنا نفعل ذلك، لقد اختفيت من حراسة المنزل شهراً كاملاً حتي لا أراها.. وعندما كنت أقابل الناس بعد ذلك، كنت أقول، أنا تركية! وكان المصريون كلهم كذلك.. الأسمر يقول أنا هندي، والأبيض يقول أنا تركي.

هل تعرف معني ذلك، إنه الانهيار التام.. أن تخفي جنسيتك.. أن تفقد المعني، لم تكن هزيمتنا هي هزيمة جيش في معركة.. بل هزيمة الوطن داخل أنفسنا.. هزيمة الخلايا داخل أجسادنا.

.. تواصل السيدة فاتن حمامة، إن وفاة الرئيس عبدالناصر لم تغط علي الهزيمة، لقد بقيت الهزيمة إلي أن محاها أنور السادات، لكن قبل الهزيمة دعني أحدثك عن الوفاة.. كنت علي خلاف الناس جميعاً، كنت حزينة لأن إسرائيل هي التي أسقطته، وكنت أود أن يسقط بإيدينا لا بيد إسرائيل، كانت هناك أخطاء كبيرة وكان جهاز المخابرات يحكم كل شيء، لم تكن هناك حرية ولا حقوق إنسان، وقد أنهى السادات عصر عبدالناصر والروس وإسرائيل في مصر.

يكفي السادات أنه طرد الروس واليهود، طرد الروس عام 1971 وبذا أنهى نصف الاحتلال، وأعد خطة عظيمة لحرب أكتوبر.. كان تخطيطاً سليماً وكان هناك تكتم شديد، وعندما كنت في الإسكندرية وقتها ورأيت حركة الجنود والمركبات لم أفهم شيئاً ولم يكن هناك أحد يعرف أي شيء.. ولما سألت، هذه الدبابات التي تتحرك كثيرة..

فما الحكاية؟ قالوا لا شيء.. وثاني يوم كانت الحرب، كان هناك جنود بقوا في الخنادق عدة سنوات، وكان السادات يقول دائماً عبارة أذكرها.. «حتي ينقشع الضباب..» وقد انقشع الضباب بالفعل.. وأصبحت عيوننا صافية، وعاد للوطن الجريح اعتباره.

يوم 6 أكتوبر 1973 نزلنا سريعاً باتجاه «الهلal الأحمر» في شارع رمسيس، في 1967 كان الكثيرون يخطبون وفي 1973 كنا نعرف مهامنا جيداً.

هند رستم.. ما وراء الفن

.. قالت لي السيدة هند رستم، «أنا لا أفهم في السياسة، ولا أحب الفلسفة، ولم يكن لي دور في أي لحظة».

زرت السيدة هند رستم في منزلها بالزمالك، في السياق نفسه الذي قابلت فيه السيدة فاتن حمامة، كان الغرض محاولة فهم ما الذي جرى في مصر، من قبل شخصيات لم تكن منغمسة في الحياة السياسية، وكانت تسمع وتري أكثر مما تروي وتحكي وقد نشرت أجزاء مطولة من لقائي بالسيدة هند في دورية «أحوال مصرية» التي يصدرها مركز الدراسات بالأهرام.

تجيد السيدة هند رستم اللغة الإنجليزية وركوب الخيل، أدت فريضة الحج عام 1960، وحازت علي لقب أحسن ممثلة عام 1975، وهي زوجة الطبيب الرموق د. محمد فياض أحد أشهر الأطباء في مصر.

التقت هند رستم بالأستاذ عباس محمود العقاد، وظلت صديقة لأسرة الأديب الكبير إحسان عبد القدوس، وتحفظ بطابعها الارستقراطي في حياتها الخاصة..

قالت لي هند رستم، «ليس لدينا شباب.. لدينا شباب عجوز، يوجد الكثير من أولادنا أنهوا دراساتهم وجلسوا في بيوتهم بلا عمل، أصبحنا نسمع عن كارثة المخدرات، إنها في كل مكان وبأسعار متفاوتة ترضي كل الإمكانيات.. هذا مخيف. من تقبيل اليد والقيام وقوفاً للكبار، إلي ذبح الأم من أجل شقة.. أنا شديدة الخوف من هذا التحول..

وهنا فإنني أفضّل بث الروح الدينية لدى الشباب. إننا متدينون بالوراثة فقط، أنا اسمي هند حسين رستم، مسلمة، وهذا اسمه جورج حتا، مسيحي، لكننا لا نعمل بهذه الأديان العظيمة.. لا يوجد لدينا توازن بين الحرية والأخلاق، ولطالما لا يوجد انضباط في الأخلاق

يكون من الضروري اللجوء إلى الدين.

سالت السيدة هند رستم.. منذ متى بدأ هذا الانكسار؟، قالت، منذ بدأ تطبيق الاشتراكية في مصر، حدث ذلك بعد التأميم، صار الفرد يحصل على مقابل، سواء عمل أو لم يعمل، نشأت اللامبالاة في القطاعات العامة، وتفاقت الأمور إلى حلة الفوضى.. لقد تغيرت شخصية المصري مع هذه الظروف، المصري الحالي ليس هو المصري.

الصفات الرائعة للمصريين لا تظهر الآن إلا عند الشدة.. كانت الاشتراكية وراء ما جري.. أنا ضد الشيوعية، لا أطيقها ولا أطيق الحديث عنها، لا تطلب مني الموت من أجل غيري.. لكي أموت أنا وغيري!

هند رستم.. عن الإقطاع والمخابرات

.. قالت لي السيدة هند رستم، إن الإقطاع لم يكن موجودا، وأن «كرابيج الفلاحين خرافة، ونفت تماما أن تكون المخابرات العامة في عهد الرئيس عبدالناصر قد تعرضت لأي فنانة، وقالت، إذا كان الأمر كذلك لماذا لم يطلب مني أحد؟.. وقالت إن الثورة كرمت الفن، وأنها التقت الرئيس عبدالناصر.

.. سألت السيدة هند عن الإقطاع وعن الريف المصري قبل ثورة يوليو 1952 قالت، كان الريف أكثر رخاء من الآن، كان لديه اللبن والطيور والحيوانات، يأكل منها ويبيع، كان الزواج فيه سهلا، وكانت «السيف»، للصوغات الذهبية - واسعة الانتشار وبكثافة، كان الكثيرون من الفلاحين يعيشون عيشة كريمة عكس ما يقال الآن، كان عندنا أرض وكان يعمل بها فلاحون، وهكذا كان جيراننا.

.. لم أر في حياتي واحدا «ماسك كرباج وبيجري ورا فلاح، بل بالعكس، لما كان واحد يموت من الفلاحين كان واحد من كبار العائلة يسافر بنفسه لتقديم واجب العزاء، إن أسطورة «الكرابيج» هذه لا أساس لها، والذي رأيته بعيني ولسته بيدي يخالف هذه الأكاذيب التي يروجها البعض، كان عندنا أرض في «نوي قليوبية وأرض في «دمنهو»، بحيرة،

ومازالت لنا أرض هناك، ولم أر في حياتي هذا الكلام، الفلاح حينما كان يأتي إلينا كان يلقي كل ترحيب واحترام، إنني أتحدث عن عموم الفلاحين الذين لا يملكون أرضا، أتحدث عن الذين كانوا ينقون الدودة أو اللطع من الأرض، أتحدث عن صغار الفلاحين، كانوا جميعا يرحبون بأصحاب الأرض، ولو أنهم كانوا يكرهونهم ما كانوا فعلوا ذلك، بل كانوا يتبارون في إعداد الطعام الذي يحبه أصحاب الأرض تكريما لهم.. هذا ما رأيته، كانت بجوارنا عزبة شاكر باشا،

وكانت أمامنا عزبة الحدادين ووراءنا عزبة جلال، في كل هذه الأماكن لم أسمع عن ضرب فلان أو وضع فلان علي شجرة، كان الفلاح - علي عكس هذه الخرافات - يأتي لابسا جلابية بثمن البدلة التي ترتديها.. كانت الحنة الزفرة زي الفل، الفلاح عندنا يمتلك كبرياء شديداً.. شديداً جداً.. ويقولون كان يهان ويضرب بالقلم! من يجروء علي ذلك؟ هذه خرافات.

.. سألت السيدة هند رستم عن ثورة يوليو قالت: رأيت الرئيس عبدالناصر مرة واحدة في حياتي، عندما عملنا لهم فيلم «رد قلبي» كان يحب أن يري الفيلم في «ستوديو مصر»، مدام آسيا دعت جميع الفنانين، وذهبنا وسلمنا عليه، وكان جميع أعضاء مجلس قيادة الثورة موجودين، وبرغم أنني عندما سلمت عليه كان متبسطاً معنا.. فإني كنت أخاف من عبدالناصر خوفاً حقيقياً.

الفن قبل الثورة كان الناس يعتبرونه ساحة للأراجوزات، كانوا ينظرون للفنانين نظرة متدنية، والثورة عندما جاءت أعادت الاعتبار للفنان، أصبح الفن عملاً محترماً والفنان إنساناً كريماً.. عبدالناصر عمل قيمة للفن وللنفس وهذا حقه بلا جدال.

.. المخابرات والفنانات.. قالت هند، لقد شنعوا علي الثورة، وخوفونا من موضوع «زائر الفجر»، والاعتقالات، كنت أخاف من الثورة من جراء ما أسمع، لكنني وهذه شهادتي.. لم أر هذا أبداً، ولم أسمع عنه فيمن أعرف.

الدولة لم تقم بابتزاز الفنانات، بالعكس.. لقد كرمتني الدولة وسافرت لأمثالها في براغ وبلجراد وأمستردام، ومرة كنت في تشيكوسلوفاكيا مع فريد شوقي واحتجنا نقوداً لأن بدل السفر لم يكن يكفي، وقد سهلت لنا الحكومة المصرية ذلك حتي لا نتعرض لخرج الاحتياج ونحن نمثل بلادنا.

إنني أندesh الآن لأن بعض الفنانات تقول، إن أجهزة المخابرات كانت تضغط عليها للعمل معها، إن هذا لم يحدث مطلقاً، ولم أسمع عنه بالمرّة إلا من بعض الفنانات اللاتي تحدثن فقط في السنوات الأخيرة.. إذا كانت المخابرات قد ضغطت علي الفنانات للعمل معها.. لماذا لم يطلب مني أحد.. وأنا هند رستم؟!

هند رستم.. عن الشيوعية والإخوان

.. قالت لي السيدة هند رستم: أنا ضد الحرب، وضد مجانية التعليم، وضد الشيوعية ومع الحوار مع جماعة الإخوان المسلمين.

تقول هند، حين زرت أوروبا الشرقية في الخمسينيات وجدتُها فقيرة.. رأيت طابور الجمعية لأول مرة في حياتي، في البداية كنتُ أتصور أنه طابور سينما علي فيلم جماهيري، لكنني عرفت أنه طابور جمعية.. وقتها قلت: يعني إيه جمعية؟..

لم يأتني إحساس وأنا هناك بأن الشيوعية سوف تنتهي، كنت صغيرة علي هذا التوقع، لكن بعد ذلك كنتُ أفكر في إمكانية أن يستمر الناس في معيشة اشتراكية بهذا الشكل.. هذا صعب، لا توجد منافسة ولا ملكية، وأنا لو معي، جنيته، لن أزيده، لأنه سيزيد لغيري وليس لي.. لماذا أزيده إذن.. ما هو الحافز؟ ولماذا اتعب روحي.. لا يجوز أن أكافح وانت تنجّب من يحصل علي عائد كفاحي!

.. وتقول هند، أنا ضد مجانية التعليم.. إذا أنا خرّجت مائة أو مائتي متفوق هذا أفضل من آلاف يجلسون بلا عمل. في المجانية أنت لا تتعب ولا تنافس، وتظل راكداً كسولاً حتي تتخرج.. ثم تكون المشكلة. لقد أخطأت الثورة حين أقرت مجانية التعليم الجامعي.

.. سألت هند عن الحرب والسلام قالت: أنا أكره الحرب، وبالنسبة لنا فقد صارت لدينا سفارة في إسرائيل وسفارة لهم هنا، وأخذنا كل أرضنا.. أخذناها بعزّة وكرامة وشرف، أخذناها بحرب، حرب لا مثيل لها، إذن فقد عاد الحق لنا.

بعد 1967 كنت في إنجلترا أنا وزوجي د. فياض، كنا واقفين علي محطة أوتوبيس وأنا أتحدث معه. وفجأة دخل علينا رجل أنيق وسألنا: من أين أنتم؟.. قلنا: من مصر.. وجاءت حكاية الحرب، وقال الرجل، أنا حاربت في العلمين، وكان الأتوبيس قد وصل.. وقف علي

سلم الأتوبيس وقال، أرجوكم أن تحاربوا.. خسارة مصر... هذا موقف لا ينسي.

.. في 1967 كان الإعلام الرسمي يقول لنا: لقد ضربنا له طيارة، 14 طيارة، 20 طيارة.. كانوا معدورين، لم يكن هدفهم هو الكذب، بل كانوا يحاولون ألا يصدّمونا نفسياً، كان هذا الكذب إيجابياً، وكان له دور مهم، في عدم تلقي الكارثة مرة واحدة.

في 1973 انقطع الحزن، كنت في نفس الشقة في الزمالك، كانت فرحتنا بلا حدود لقد نقلنا السادات إلي الأمام، وحتى اعتقالاته الأخيرة قبل اغتياله كان يستهدف منها حفظ الدولة.

.. سألت السيدة هند رستم عن الحركات الإسلامية وأقبال الشباب عليها قالت، هؤلاء أولادنا، يجب سماعهم والحوار معهم، إنهم أبناء البلد، لو لم نسمعهم فمن يسمعهم؟ هم مصريون غاضبون.. يجب أن نعرف لماذا هم غاضبون؟ ولماذا يحمل بعضهم السلاح؟.. لقد واجهت الدولة الذين مارسوا العنف بقوة خشية أن يؤدي الدين إلي الفوضى.. ولكن الآن هدات الأمور، ويجب أن نفهم ما الذي يجري؟

.... إذن فقد قالت السيدة فاتن حمادة إنها نشأت معادية للوفد ومنتمية إلي تيار السعديين مثل أبيها أحمد أفندي حمادة ولكن هند رستم نشأت وفدية لأب وفدي هو ضابط البوليس حسين رستم. قالت فاتن، عملت أفلام الثورة وأمنت بها، لكنني كرهت ما يجري لاحقاً، وقالت، تمنيت لو كان سقوط عبد الناصر بأيدينا لا بيد إسرائيل، وقالت هند، لا صحة لخرافة الإقطاع وكرابيج الفلاحين،

وقالت، إن الكذب الإعلامي في 1967 كان إيجابياً، وأن المخابرات لم تضغط علي أي فنانة.. فاتن وهند قالتا شهادة مهمة حول زمن فانت.. هي جزء من إعادة النظر في ماض لا يزال حاضراً.

الشيخ كشك.. عبد الناصر والسادات

كان الشيخ عبد الحميد كشك أجمل صوت في الخطابة الدينية، كان يملك صوتاً خصباً يانعاً ممتعاً، وقد بلغت روعة أدائه إلي الحد الذي جعله نجماً شهيراً في عالم الكاسيت، وكان الناس يسمعونهم كما يسمعون عبد الحليم.. ليس بالضرورة أن يكونوا منتبهين لما يقول ولا متفقيين مع ما يري.

وكان رحمه الله خفيف الظل لطيف الحكي، ساخراً موحجاً، مخطئاً ومتجاوزاً.. لكنه ساحر علي الدوام.

ولد الشيخ كشك في شبراخيت بالبحيرة عام 1933، وبدأ رحلته في الخطابة مبكراً ومشاعباً.. فأول خطبة ألقاها في مسجد البلدة كانت في التاسعة من عمره وكانت عن «تحريم الرشوة، وإهمال المرضى في المستشفيات» فقام مدير المستشفى بالشكوي منه إلي مأمور المركز!

.. يتخذ الشيخ كشك موقفاً معادياً للنحاس وعبد الناصر والسادات معاً، وهو إذ يتهم النحاس باشا ومكرم عبيد بالوصولية، وبأن الصداقة بينهما كانت بلا جذور، لذا انقلبت إلي عداء سافر، ويرى أن الوصولية نفسها هي ما حكمت علاقة عبد الناصر بالمشير عامر.. فإنه لا يزيد في نقد النحاس عن ذلك، ولكنه يذهب في نقد عبد الناصر إلي أبعد من الخيال!

.. يقول الشيخ كشك: «كان في المعتقل معنا رجال شاركوا في حرب 1948، وقد أرسلوا إلي الرئيس عبد الناصر يقولون: نعدكم بقتال مخلص ضد إسرائيل، ثم نعود بعدها إلي السجن، فإن لنا الشهادة فمن الله، فقال عبد الناصر: إن الهزيمة علي أيدي اليهود خير من النصر علي أيدي هؤلاء!»

وهو قول غريب لم يذهب إليه أحد من المعاصرين، ولكن الشيخ كشك يمضي قائلاً،

قبل النكسة قالت أم كلثوم ،الحفلة القادمة في تل أبيب..

وحين مرت إحدى السفن الأمريكية في قناة السويس قبيل النكسة بإيام، وكانت سفينة حربية ضخمة نشرت الصحف يومها صورة امرأة من منطقة القناة، ترفع حذاءها عالياً بيدها تشير إلى بحارة السفينة كأنها تهددهم بسلاح ذري!

ونقل الشيخ كشك عن موشيه ديان قوله: «بينما كنت أتدرب علي حرب الأدغال في فيتنام كان المشير ورجاله مشغولين بحل مشاكل الأندية الرياضية»!

وينتهي الشيخ للقول «إن حرب 1967 ليست حرب الأيام الستة، بل هي حرب الـ 19 دقيقة.. لقد تم ضرب الطيران في ثلث الساعة وانتهت الحرب»!

ويذكر الشيخ كشك أنه في عام 1966، جاءه مندوب يقول: إن المشير عامر يعلم أن لك شعبية ومحبة في قلوب الناس، وهو يطلب منك أن تحل دم سيد قطب، ومن معه، ونريد أن نسمع هذه الفتوي في الخطبة القادمة!

ويروي عن زميل في السجن كانوا قد اعتقلوا أبناءه جميعاً، فأرسل التماساً يطلب إبقاء أحد أبنائه ليقوم علي خدمته في بيته، فجاءه الرد: إن سيادة المشير يقول لك: بل أنت الذي تذهب إليهم في السجن ليقوموا علي خدمتك هناك!

وحول حرب اليمن يقول الشيخ كشك: إن مصر اضاعت أربعة آلاف مليون دولار في هذه الحرب، وفي مصر أربعة آلاف قرية، ولو أن كل قرية قد تلقت مليون دولار لصلح حالها! ثم يصل الشيخ كشك إلي تفسير ديني غريب لعصر عبدالناصر فيقول: كانت سجون 1954 هي السبب في هزيمة 1956، وكانت سجون 1956 سبب هزيمة 1967..!

.. يواصل الشيخ كشك: «ولي السادات حكم مصر بعد أن هلك سلفه، وقد كان امتداداً لمن كان قبله، كان عبدالناصر يجاهر بالظلم وجاء السادات ليقتن الظلم»!

ويضيف الشيخ كشك: «إن السادات قال في خطبة له: و«انتو عارفين الشيخ كشك بيعمل إيه... ولم يقل أنا باعمل إيه»!

و«حين قتل السادات ونحن في السجن هللنا وكبرنا حتي اهتزت جنبات السجن»!

..لقد خرج الشيخ كشك من السجن عام 1982، وكان خروجه من السجن إلي

البيت، وقد كتب مذكراته عام 1986، ومنها السطور السابقة.

.. تمثل شهادة الشيخ كشك : علي الرغم من كونها شهادة انفعالية - نموذجاً
لادعوت إليه سابقاً في سياق حركة المؤرخين الجدد، من إمكانية الخروج من خريطة الرأي
المعتاد، كل من هو مع الوفد ضد الثورة، وكل من هو مع عبدالناصر ضد السادات.. فهذا هو
الشيخ كشك ضد الجميع.. النحاس وعبدالناصر والسادات.

.. رحم الله الشيخ كشك.. كان خطيباً عظيماً، مفكراً محدوداً، سياسياً ضعيفاً..
إنساناً بلا حدود!

خرافة الوثائق!

اتصل بي الكاتب الأستاذ عادل حمودة، معلقاً علي دعوتي لتأسيس «حركة المؤرخين الجدد»، كانت الدعوة قد مرت بمقال نظري بدأت به الدعوة، ثم مرت الفكرة بشهادات رصينة من وزن الفيلسوف الكبير فؤاد زكريا وعميد المؤرخين يونان لبیب رزق، كما مرت بشهادات بريئة للسيدة فاتن حمامة والسيدة هند رستم، وتفضل كثيرون بالتعليق، وقد أعجبني ما تفضل به الأستاذ أسامة غريب في مقاله في المصري اليوم.

جاء حديث الأستاذ عادل حمودة انقلابياً تماماً، ضد المؤرخين القدامى والمؤرخين الجدد بل ضد فكرة التاريخ وعلم التاريخ.

قال لي الأستاذ عادل حمودة: لا يوجد لدينا مؤرخون قدامى حتي يكون لدينا "مؤرخون جدد"، بل لا يوجد أصلاً ما يسمى «علم التاريخ»، حيث لا يوجد تاريخ خارج انحيازات السياسة، هو تاريخ من وجهة نظر سياسية في فترة كانت هناك إهانة لتجربة محمد علي وسعد زغلول، جرت إهانتهم باعتبارهما تجارب برجوازية وكانت كلمة «برجوازية» - حتي بالمعني الليبرالي - كلمة كريهة.

إن إعادة النظر في التاريخ لا تعني بالضرورة تصويب أخطاء بل هي إعادة نظر حسب من ينظر، وحسب توقيت النظر، لقد اعتبرنا الخديو إسماعيل في الماضي سيئاً، ولما وجدنا محافظ القاهرة بالغ السوء قلنا، أين أيام الخديو إسماعيل؟

إن التاريخ مثل الدين يعاد تفسيره كل مرة حسب من يعيد النظر، في الزمن الاشتراكي أخرجنا «أبو ذر الغفاري»، وحين كان الإلحاد شائعاً أخرجنا نظرية «العلمانية في الدين»، ولما ساد التطرف كان «الجهاد هو الفريضة الغائبة».

* انتقد الأستاذ عادل حمودة شهادتي فاتن حمامة وهند رستم، وقال إنها شهادة

مجروحة وشهادة مجهولة. ثم تحدث عن دور الوثائق في كتابة التاريخ قال: من أين يستقي المؤرخون الجدد مصادرهم؟ هل من صحيفة الأهرام، أم من صحف المعارضة؟ كيف ستكون مصر مبارك لو اعتمد المؤرخ علي الأهرام أو الدستور كمصادر للبحث؟

ما هي الوثيقة؟ إنها قد تكون عبارة عن تقرير أمني رفعه زميل لك في الأهرام إلي أجهزة الأمن...، «نما إلي علمي ميله إلي كنا...»

الوثيقة لا تعني بالضرورة أنها صحيحة.. افترض أن شخصا «غيبيا» في السفارة الأمريكية قال: إنك علي علاقة بأستراليا يجيء بعد ذلك من يقول إن وثيقة أمريكية تكشف عن علاقتك بأستراليا، الكاتب الكويتي محمد الرميحي قال ذات مرة وأنا مع إبراهيم المعلم، إن هيكल تقاضي أموالا من السفارة الأمريكية هل هذا كلام؟ هل يمكن بعد 50 سنة أن احاكم أحدا علي كلام فارغ اسمه «الوثائق» وهو لا يستطيع الدفاع عن نفسه؟».

أذهب إلي الجامعة وأدرس رسائل الدكتوراه في التاريخ ستجد فهارسها من الصحف والمجلات والمصادر الأجنبية كالسفارة الأمريكية، والمؤكد أن السفارة الأمريكية والسفارات الأجنبية عموما فيها كتبة تقارير لهم ميول وانحيازات، ولديهم أخطاء وحقائق. في هذه الحالة لا توجد لدينا وثائق ولا تاريخ.

تفضل الدكتور محمد أبو الغار الطبيب والمثقف البارز بتعقيب جاء فيه: «إن فكرة المؤرخين الجدد تستحق التحية والتفكير، ذلك أن تقديم وجهة نظر جديدة وربما مغايرة في بعض الأحداث التاريخية التي يتفق عليها جمهور المؤرخين، سوف يخلق حيوية في النقاش والحوار، وقد يؤدي ذلك إلي ظهور أفكار وآراء جديدة في موضوعات يكون شرحها بطريقة مغايرة، فيه نوع من الاعتداء علي مقدسات تاريخية لا تقبل إعادة التقييم».

ثم تفضل استاذنا الدكتور أبو الغار فأشار إلي كتابي «خريف الثورة» الصادر عن دار ميريت للنشر وقال: «إن الكتاب يمثل دراسة جديدة من نوعها في التاريخ الحديث للبلاد العربية».

ثم طالب د. أبو الغار في رسالة كبار المؤرخين المصريين بأن يدلوا برأيهم في فكرة المؤرخين الجدد.

**** وما أختتم به هو أن رؤية الأستاذ عادل حمودة بشأن التاريخ والمؤرخين هي رؤية مهمة، وما تفضل به حول «خرافة الوثائق» أوافق عليه كثيرا، فما أكثر أوراق القمامة التي تنشر تحت بند الوثائق والأرشيف.**

لقد اعتاد بعض الكتاب أن يثيروا الفزع في قلوب القراء باسم الوثائق، واعتادت الصحف المصرية مؤخرا أن تنشر كتابات ركيكة لصحفيين إسرائيليين ورجال استخبارات إسرائيلية لا قيمة لهم ولا لما يقولون تحت عناوين «نحن نكشف.. ونحن ننشر.. ونحن ننفرد» إن أشهر كتاب يتناقله القراء العرب وسط قناعة كبرى بأنه كتاب عظيم هو كتاب «لعبة الأمم» لمايلز كوبلاند.. وهو كتاب تأفه المؤلف ساذج.. لكنها «أسطورة الوثائق»!

من عميد المؤرخين إلى المؤرخين الجدد

.. تفضل الدكتور يونان لبیب رزق عمید المؤرخین المصریین بالاتصال بی معلقاً علی دعوتی بشأن «المؤرخین الجدد»، کما تفضل الأساتذة الأفاضل سمیر فريد وعمرو خفاجي وفريدة الشوباشي وسعيد الشحات وناصر طاحون.. فی مقالات خمسة فی «المصري الیوم»، وصحیفة «العربی» بالتعلیق علی ما نشرت.

.. قال لی الدكتور یونان لبیب رزق: إن هذه الحركة قد بدأت بالفعل، فقد دعاني المهندس إبراهیم المعلم إلی بحث سبل التعاون مع دار الشروق.. وبعد وقت من الدعوة، أسسنا فی «دار الشروق» مرکز الدراسات التاریخیة، ومهمة المركز بالضبط هی ما تدعو إلیه، ای إعادة النظر فی تاریخ مصر الحدیث والمعاصر خارج النظرة الأحادیة التي سيطرت علی كتابة التاریخ لعقود طویلة.. وقد شكّلنا مجموعة من أساتذة التاریخ المشهود لهم بالكفاءة والامتیاز،

وأصدرنا عن دار الشروق (11) کتاباً تحت عنوان «سلسلة التاریخ: الجانب الآخر، إعادة قراءة للتاریخ...» وهي فی مجملها كتب جادة رصينة وجدیة فی الموضوع والضمون، ویعمل علی انتظام السلسلة أربعة من المؤرخین المیزین هم: د.أحمد زکریا، د.حمادة إسماعیل، د.لطیفة سالم، د.محمد عفیفی.

.. ویقول د.یونان: إننا لا نزال نقرأ التاریخ بشكل أحادی، بمعنی أن هناك بطلاً وخائناً، وهناك استعمار وحركة وطنیة.. لكننا فی مرکز الدراسات التاریخیة نستهدف إعادة تقدیم بعض الشخصیات وبعض الأحداث بطریقة جدیة، فالملك فؤاد یعرفه الناس أنه مجرد ملك مستبد، لكن الحقیقة تقول إنه فی عهده تم إنشاء «بنك مصر» و«مجمع اللغة

العربية، ومصر للطيران، ومعهد الموسيقى العربية، ومدينة بورفؤاد، وفي كتاب الدكتور لطيفة سالم «فاروق الأول وعرش مصر.. بزوغ واعد.. وأقول حزين» تقدم المؤرخة المعروفة رؤية جديدة للملك فاروق، وتفرق بين الجزء الأول من عهد فاروق والجزء الثاني منه، وتري أن نصف فاروق الأول يختلف كثيراً عن نصف فاروق الآخر.

.. وينتهي د. يونان للقول: إن من يقول إن التاريخ كُتب بشكل صحيح يكون مخطئاً. وحول من يكتب التاريخ قال: هناك فرق بين المؤرخ المحترف والمؤرخ الهاوي.. وإن كان المؤرخ الهاوي له جمهور أكبر من المؤرخ المحترف.. إن عبدالرحمن الرافعي وهو «هاوٍ» أشهر كثيراً من شفيق غربال مؤسس المدرسة العلمية المصرية في كتابة التاريخ.

.. وهكذا يأتي كلام عميد المؤرخين غير بعيد عما ذهب إليه الأستاذ سمير فريد من أن هذه الحركة قد بدأت في مصر فعلاً، وأن الهدف من الحركة المصرية -عكس حركة المؤرخين الجدد في إسرائيل- هو إعادة الاعتبار لفترات تم إهدار الكثير من إيجابياتها بعد ثورة يوليو 1952.

.. واذكر في هذا المقام أن الأستاذ سمير فريد قد شرفني قبل أشهر قليلة ضيفاً علي الصالون الثقافي الذي أقيم في منزلي، وأن ما قاله الأستاذ سمير في هذا الصالون كان في مجمله ضمن موجة إعادة النظر هذه، إذ قدم رؤية تمثل «غير المعتاد» في قراءة ما كان من أحداث وأشخاص.

.. في هذا السياق أود القول.. إن حركة المؤرخين الجدد، وقد وجدت الآن لها مدناً في مركز الدراسات التاريخية، إنها تنطلق من خارج الأيديولوجيا، وهي بالتالي تحرث الأرض الميتة من جديد، وهي إذ تحرث فإنها لا تعلم تماماً ما الذي يخرج معها صالحاً أو طالحاً، ولكن الحرث يستهدف يقيناً إعادة الاعتبار إلي الوطن الأم.. إلي مصر.

وإذ تسعى حركة المؤرخين الجدد إلي ذلك، فهي لا تري في الملك فاروق ولا الرئيس عبدالناصر ولا السادات.. نفس ما رآه المؤرخون القدماء، وهي أيضاً لا تري في الوفد والإخوان واليسار، وفي ثورة 1919 و ثورة 1952 نفس ما رآته أقلام فضلت راحة الانحياز وسهولة التقديس أو التدينيس..

وقد كان الغرض من نشر آراء سياسية تخص الماضي علي لسان السيدتين فائق حمامة وهند رستم، ليس كما تفضلت الأستاذة فريدة الشوباشي باعتبارهما نموذجين

للمؤرخين الجدد، ولا لما تفضل به الأستاذ سعيد الشحات باعتبار ذلك توطئة لهدم كثير مما جري بعد 1952 لحساب ما قبل 1952،

ولا لما رآه الأستاذ ناصر طاحون من أن الهدف هو عبدالناصر، وأن الغرض ربما تعلق بالإساءة للزعيم صورة وسيرة.. إنما يقف الهدف عند الخروج علي النمط المعتاد في البحث والتحليل والنظر في شهادته لأشخاص لم يعملوا بالسياسة وتتسم آراؤهم بدرجة واضحة من براءة القول وبراءة الذاكرة.

.. إن حركة المؤرخين الجدد.. إنما تستهدف القضاء علي الأيديولوجيا وسذاجة الحرب الأهلية الفكرية في بلادنا.. حتي لا تصبح مصر كاورشاليم فترمي أبناءها بالحجارة!

من المؤرخين الجدد إلى عميد المؤرخين

قبل عام بدأنا الدعوة إلى تأسيس حركة المؤرخين الجدد في مصر، وبدأت الدعوة بمقال افتتاحي نشرته بـ «المصري اليوم»، ثم مرت الدعوة بمقالات وردود، وتوسطتها معارك تحمل خليطاً من الرضا والغضب، كان ظني في البداية أننا إذ ندعو إلى حركة تقع في نطاق الفكر التاريخي أو فلسفة التاريخ أو الفلسفة السياسية.. وهي نطاقات في مجملها تبتعد قليلاً عن مدرسة علم التاريخ في النهج والغاية، كان ظني أن ذلك سيجعل مما نري ونرغب موضع إنكار من مدرسة التاريخ المصرية، لكن عميد المؤرخين المصريين د. يونس لبيب رزق، كان رقيقاً وودوداً بلا حدود.

قال لي الأستاذ أحمد الزيادي، مدير «دار الشروق»، إن الدكتور يونس لبيب رزق لحضور اجتماع المؤرخين المصريين الثلاثاء المقبل، ثم جاء الاتصال من المؤرخ الكبير يحمل دفة الأستاذ ورصانة العالم ونبل الإنسان.

قال لي الدكتور يونس لبيب رزق، إنني أتابع ما تنشر حول حركة المؤرخين الجدد، وإنني معجب بالفكرة وبما تسلك وتهدف، وإن كنا نحن قد بدأنا في مركز الدراسات التاريخية في دار الشروق سلسلة كتب ودراسات تمثل، في مجملها، إعادة نظر في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، وفيها أعدنا النظر في سير الأشخاص والأحداث، وابتعدنا عما كان معتاداً من أحادية الرؤية.. هذا صواب وهذا خطأ، هذا بطل وهذا خائن، إذ نعتمد في دراساتنا الجديدة على مصادر وضوابط تفتح آفاقاً أوسع للفهم والحياد.

كان عميد المؤرخين د. يوانان لببيب رزق يقود نخبة من المؤرخين المصريين الالامعين في إطار عمل فكري عملاق مثلته الكتب التي صدرت وتقارب العشرين كتاباً، كما تمثله الخطط التي وضعت وهي تزيد عما تم وأنجز.

ولقد تشرفت بحضور عدد من الاجتماعات، التي كان ينتظم فيها نخبة المؤرخين مع عميدهم في العاشرة من صباح الثلاثاء، وكان في كل مرة التقية فيها بشوشاً ودوداً.. كان يدرك أن واجبه يتجاوز الجامعة وقاعات الدرس ورسائل البحث، إلى احتضان أفكار وآراء قادمة من علوم أخرى وخبرات أخرى، حتي لو خالفت المعتاد في علم التاريخ.

كان يدرك أن التاريخ يستهدف الحقيقة، وأن الحقيقة تستهدف الإفادة.. تكراراً أو تعديلاً أو إلغاء.. وأن الحقيقة وما تهدف لا ينبغي لها أن تكون عملاً أيديولوجياً.. أو عقائدياً.. أو مذهبياً، ينتظره المؤمنون بما يؤمنون لا بما يكتشفون.

ذات الثلاثاء، لم يجرى عميد المؤرخين إلى اجتماعه الدائم، غاب الرجل العظيم إلى الأبد، رحل واحد من أفضل رجالات الفكر والبحث في مصر، قبل عام نشرت رسالته إلينا . في حركة المؤرخين الجدد . واليوم نعيد الرسالة إليه.. رسالة حب ودعاء، رسالة إكبار واحترام، رسالة وعد لا ننساه.. رحم الله عميد المؤرخين د. يوانان لببيب رزق، وألهمنا جميعاً الذاكرة والوفاء.

ارتباك

دعوت - ولا زلت أدعو - إلي تأسيس حركة المؤرخين الجُند في مصر.. وهنا بعض الحيرة.

* تأملت طويلاً ما كتبه الأستاذ محمد حسنين هيكل في حقل التاريخ.. وكنت ألجأ إلي كتاباته ملتصقاً بالرائي كلما ضاقت العلوم.. او متقصياً العلوم حين يختلط الرائي، فوجدته - في حالات عديدة - شاهداً حين يجب ان يكون قاضياً، وقاضياً حين يجب ان يكون شاهداً، وغائباً حين تتعقد القضايا وترتبك الأحكام وتتبدل مواقع الادعاء والاثهام.

وبعد مشروع طويل وصل به هيكل مكانة مرموقة، وجدته - في عبارات عاجلة خجولة - يتحدث بإعجاب عن الرئيس السادات، وداعياً إلي إعادة الاعتبار إليه.. لأنه كان سابقاً لزمانه، وانقذ مصر من مصير مجهول. وهو قول لم يعد إليه مرة أخرى، ولما نشرته الصحف نقلاً عنه، وهو يحاضر في معهد الإدارة العليا بالإسكندرية.. لم يعلق ولم يوضح.

* وقد مررت علي ما كتبه لطفي الخولي.. فوجدته يقول في خاتمة حياته ما لم يقله في حياته كلها.. من اليسار إلي اليمين ومن الزايدة علي الحرب إلي الزايدة علي السلام!

* ثم وجدت الأستاذ محمد سيد أحمد يتقدم طواعية معزفاً بالارتباك.. يقول، في كتابي «بعد أن تسكت المدافع... وقفت ضد التيار وكنت أري أن المصالحة ممكنة، وكان الكل وقتها يرون السلام مستحيلاً، وبعد عشرين عاماً رأيت في كتابي (سلام ام سراب)، أن التعامل مع إسرائيل من الداخل صعب، والحل هو تغيير موازين القوى عن طريق التعامل مع إسرائيل من الخارج. رأيت في الكتاب الأول أن الخلل في موازين القوى لا يفضي بعملية التفاوض إلي سلام معيب، ورأيت العكس في الكتاب الثاني».

* وفيما قبل رأي سياسيون ضرورة القتال ورأي مثقفون تقديم البناء، ثم كانت

نكسة 7691.. وخسر القتال، وانتكس البناء، ورأي السياسيون ضرورة البناء ورأي المثقفون حتمية القتال، إلي أن جاء انتصار عظيم أهمل السياسيون فيه بطولات العسكريين وآراء المثقفين!

و حين زار السادات القدس طالباً السلام غضب المثقفون، وعندما زار مثقفو حركة «كوبنهاجن القدس» تحت دعوي السلام غضب السياسيون!

* إن المرء لتأخذ الحيرة فيما يجري بين حماس وإسرائيل. وكثيراً ما يغلب الشعور بأنه لم يكن أمام حماس غير ما فعلت، وأنه في ظروف تعمل فيها واشطن ضدنا بوضوح، ولا تجد أوروبا غير تصريحات ومبعوثين.. بينما إسرائيل تمضي من مذبحه إلي أخرى.. فليس الحل غير ما فعلت حماس.. من تفجيرات واغتيالات، وإلحاق خسائر في الأرواح والأموال.. وضرب السياحة والاستثمارات.. وجعل إسرائيل هدفاً، وكل إسرائيل ساحة حرب.

* وتارة يغلب النظر علي أن ما يجري كان خاطئاً بالجملة.. فقد توالي الشهداء والجرحي من المعتقلين، وخسرنا مدناً وبلدات ومخيمات، خسرنا مقومات دولة بكاملها. من وطن بات وطلان وسلطة بات سلطتان.. من رئيس راح مسموماً.. إلي شرطة خسر منها من قاوم وبقي منها من تعاون!

* وتارة أخرى يجنح المرء إلي رأي ثالث فيه من القتال وفيه من السلام. ولا يخرج المرء من تلك الآراء المتعاقبة برأي خاتم وتصور حاسم، ففي أقل من ساعة قد يميل إلي الرأي الأول.. ثم يميل إلي الثاني ثم الثالث...

المؤرخون الجدد من جديد (1)

2009 قال لى الأديب الكبير بهاء طاهر، كان رفاعة الطهطاوى هو فيلسوف عصر محمد على، وأنه لولا الطهطاوى لكان محمد على مجرد ديكتاتور، وأن تميز التجربة السياسية لمحمد على أساسها تميز التجربة الفكرية لرفاعة الطهطاوى.

كان الطهطاوى هو العقل السياسى الحاكم الذى جعل من النهضة الشاملة مشروعاً للدولة المصرية، ولقد استمر ذلك الوضع الخلاق فيما بعد عقوداً طويلة.. فقد كان الإمام محمد عبده مستشاراً للزعيم أحمد عرابى، وكان الأستاذ عباس محمود العقاد هو فيلسوف عصر سعد زغلول بمثل ما أصبح عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين هو فيلسوف عصر النحاس باشا.

لقد فكرت في طبيعة تلك الثنائيات العملاقة التى صنعت عصر النهضة المصرى.. رفاعة الطهطاوى + محمد على، والإمام محمد عبده + أحمد عرابى، والأستاذ العقاد + سعد زغلول، والدكتور طه حسين + مصطفى النحاس.

كان تنبيه بهاء طاهر لهذه العادلة البسيطة العميقة بداية سؤال عن الطريق وعن المصير.. ما الذى جرى فى مصر؟ الذى جرى كان بسيطاً وخطيراً.. تراجعت الفلسفة لصالح الصحافة، وتراجع الفكر لحساب الإعلام.. وغاب الفكرون والنظرون وأصحاب الرؤى الكبرى لصالح مثقفى اليوميات وحائزى الأخبار وجامعى القمامة الاجتماعية من أرباب القيل والقال.

لم يعد فى السلطة مفكر واحد، ولا قريب منها مفكر واحد.. وبعد أن كان سعد زغلول يجلس فى انتظار العقاد، أو ينتظر مصطفى النحاس وصول طه حسين.. شاهدت بنفسى عشرة مفكرين ينتظرون رئيس تحرير لا يؤمن بالقراءة ولا بالكتابة ساعتين كاملتين ليمنحهم عشر دقائق!

الذى جرى هو توحش السلطة وانكسار الفكرة.. هو صعود الكاميرا وهبوط الكتاب..
هو استعلاء المنصب وانبطاح الفكر.

كان تونى بليز يفخر بأن مفكراً بوزن أنتونى جيننز إلى جواره.. ولا يزال أوباما يردد
أن مفكراً بوزن جوزيف ناى يقف وراء أفكاره.. وفى مصر سمعت أحد الوزراء يقول، لا أريد
تنظيراً.. لا أريد تعقيداً.. الفلسفة هذه هى التى أضاعت بلانكا!

المؤرخون الجدد من جديد (2)

لماذا يقف الناصريون ضد الرئيس السادات على طول الخط؟

ولماذا يقف الساداتيون ضد الرئيس عبدالناصر على طول الخط؟..

لقد أدت هذه المباراة الفقيرة بين الفريقين على امتداد العقود الماضية، إلى إضعاف الفكر السياسى المصرى، كما أدت إلى ضعف المنابر الفكرية والسياسية التى لم تزد على كونها نشرات إعلامية بانسة تروج لهذا المشروع أو ذاك.. ولقد أتت أجيال سياسية على هذه المباراة فاخذت تنحاز يمينا ويسارا.

وجاء ذلك الانحياز مريحا لهذه الأجيال، إذ لا يتطلب الأمر أن تكون ناصريا أو ساداتيا، أن تكون مثقفا بما يكفى، إذ يكفيك أن تردد عبارات محدودة في مديح من تحب ونقد من تكره لتكون من ذوى الرأى والرؤية.

وقد أدت تلك المعادلة البسيطة إلى خلق حالة من «توازن الضعف».

ناصريون لا يستطيعون الدفاع عن المشروع الوطنى للرئيس عبدالناصر، وساداتيون لا يستطيعون الدفاع عن المشروع الوطنى للرئيس السادات، وأصبح أغلب الأعضاء في الجبهتين أقرب إلى مشجعين رياضيين منهم إلى مؤيدين سياسيين.

الأمر نفسه ينسحب على ذلك الاستقطاب الحاد بين أنصار الثورة وأنصار ما قبلها..

بين أولئك الذين يعتبرون الثورة مجرد انقلاب عسكرى قام به ضباط مغامرون قطعوا طريق مصر إلى النهضة، وبين أولئك الذين يعتبرون الثورة ميلاداً لشعب كان قبلها من الحفاة العراة!

وتقديرى أن أفضل ما يمكن أن تقدمه حركة المؤرخين الجدد لبلادنا هو تجاوز هذه

البساطة السياسية في التفكير.. وإعادة الكثافة والاتساع للعقل السياسى المصرى.. وإنهاء حقبة التفسير الكروى للتاريخ.

تلك الحقبة التى تعاملت مع الاجتهادات الوطنية بمنطق الأندية الرياضية!

المؤرخون الجدد من جديد (3)

الانحياز ارتياح، والوسطية قطعة من العذاب.. أن تكون واحدًا من جمهور يعرف متى يصفق ولن يصفق، ومتى يعادى ومن يعادى.. فأنت محظوظ بالولاء.. لا جهد ولا اجتهد.

أما إن اخترت أن تكون متاملاً ومتعمقاً.. أن تكون وسطياً في الرأي والرؤية.. أن تنظر إلى السياسة والسياسة عبر ميكروسكوب رباعي الأبعاد.. فأنت واحد ممن أصابهم عناء الاعتدال.. وتقديرى أن ثمة أبعاداً عشرة تمثل بؤس الوسطية وصعوبات البحث البارد لحركة المؤرخين الجدد.

* الوسطية لا وسط لها، فهي تنزاح مع حركة التاريخ وانحناءات الزمن.. ومن بؤس الوسطية أنها لا تملك إطاراً حاداً ولا سوراً واقياً، ويصعب تحديدها على نحو جامع مانع على قول أهل النطق، فهي مساحة ممتدة تصل ما بين الانبطاح والانفلات، وما بين الفوضى والجمود.

* ومن بؤسها أيضاً أنها تميل إلى تغليب المصالح، وحيث إن المصالح صائبة وخاطئة.. فإن الوسطية تزداد ترهلاً حتى إن أطرافها لتتال من الشفافية والفساد سواء بسواء.

* ومن بؤسها - ثالثاً - أنها تميل للاعتدال الأخلاقي، فإذا هي غير كافية للذين يريدون للأخلاق أن تكون عذاباً وعقاباً، وهي غير جذابة للذين يقدمون متعة الحياة ورغد السلوك.

* ومن بؤسها - رابعاً - أنها تقيم صلحاً رقيقاً مع الروح، فإذا هي موضع تسفيه من غلاة العقل، وموضع تكفير من غلاة الدين.

* ومن بؤسها - خامساً - أنها تفسح مجالاً متوازناً لمقولات من الماضي وأفكار من

المستقبل، فإذا هي رجعية للذين تمتزج تطلعاتهم بالأحلام، وهي ابتداء للذين يجدون في السلف زادًا لا يحتاج إلى مزيد.

* ومن يؤسها - سادسًا - أنها تقبل التفاوض والتراجع بمثل ما تقبل الإقدام والثبات، وهي في ذلك تصطدم مع رؤى الذين يظنون أنهم يملكون عين اليقين.

* ومن يؤسها - سابعًا - أنها تقول الشيء وبعضًا من نقيضه، فكل سياسى له وعليه، وكل سياسة فيها ما يتطلب الاتباع وفيها ما يوجب الإقلاع.

وهنا تصطدم مع الذين يرون مشهدًا وحيثًا من الصورة.. أو جانبًا واحدًا من الحال.

* ومن يؤسها - ثامنًا - أنها تستهدف التطوير لا التثوير، وتمشى بين الجميع سعيًا وراء ما يمكن أن يكون جيدًا وواقعيًا، وهي في ذلك غير مقبولة للذين يمسكون بزمam الأمور ولا للذين يجوبون الطرقات عسى أن يمسكوا بطرف من الزمام.

* ومن يؤسها - تاسعًا - أنها واقعية في شؤون الخارج، وتعتمد «الممكن» أساسًا. وهي تتابع يوميات العالم.. وهنا تصطدم مع الذين يريدون تحويل «الممكن» إلى التبعية الكاملة، ومع الذين يطيحون ب«الممكن» إلى حتمية القتال.

* ومن يؤسها - عاشرًا - أنها تقوم في عمادها على فكرة «التوازن»، وهي أكثر الأفكار صعوبة وارتباكًا، وهي في التطبيق عمل شاق بين أطراف ليس بينها لقاء.

هنا جوانب من يؤس الوسطية.. وهنا صعوبة الطريق الذى ينتظر حركة المؤرخين

الجدد.

1967.. هزيمة عادية (1)

■ إن أكبر هزيمة الحققتها إسرائيل ببلادنا هي ترسيخ الاعتقاد بأن هزيمة 1967 كانت أسطورية، وأنها هزيمة لا سابق لها في تاريخ الحروب ولا سير الشعوب، وأن إسرائيل الكبرى سحقت مصر الصغرى في أيام.

لقد بذلت إسرائيل نصف الجهد في تأكيد الأسطورة، أما نصف الجهد الآخر فقد تكفل به عدد وفير من المصريين.. بعضهم كان معادياً للثورة، وبعضهم كان معادياً للرئيس، وبعضهم كان معادياً للمشير، وبعضهم لم يكن معادياً لأحد، ولكنه انهار تحت وطأة ما يرى.

وقد تكفل الجهدان معاً، جهد إسرائيل واجتهاد مثقفينا بفقدان الثقة في كل شيء، في الوطن والجيش والشعب، في كل ما يسمع ويقرأ ويتابع.. أصبحت كل نزعة وطنية ضرباً من البلاغة، وكل جرأة وطنية فاصلاً من الخطابة، وكل رؤية وطنية تحاصرها كل نهايات المؤامرة.

■ وبعد مرور عقود على هزيمة 1967، لاتزال الصحافة المصرية تنهل رؤيتها للوضع في مصر ومستقبل السلطة في القاهرة وخريطة التوتر والضعف في بلادنا من الصحافة الإسرائيلية التي باتت مصدراً يومياً لمعرفة المصريين!

■ لقد بذل بعض مثقفينا كل الجهد ليؤكدوا لشعبنا أن 5 يونيو 1967 هي آخر الحروب، وأنه لا قيامة بعدها، وأن كل المحاولات التالية لها كانت جهوداً ناقصة واستعراضات محدودة!

وهكذا صاغت إسرائيل أسطورتها في سحق مصر والمصريين في 1967، ثم واصلت الصحافة والسياسة هنا ما بدأت إسرائيل.. وكلما نسيت إسرائيل قام البعض هنا بتذكيرها بالأسطورة، وكلما تراخت إسرائيل في وصف جيشها العادي، كان هناك من يواصلون

الوصف لجيشها الذي لا يقهر ومخابراتها التي لا تهزم.. نجحت إسرائيل فيما أرادت.. أطلقت الأسطورة وسلامتها لمن اخلصوا للخرافة واحسنوا الاستخدام.

■ ولأننى من جيل يقدم الوطنية على الأيديولوجيا، ويقدم الأدوار على الأبطال، ويضع العرفة فوق الأساطير، أجبنى اليوم - وبعد 42 سنة من هزيمة 1967 - أرى فيما جرى، هزيمة عادية.

1967.. هزيمة عادية (2)

لم تحظ الطلعات الجوية المصرية في حرب 1967 بما يليق من التحليل والتكريم.. لقد جرى تصوير الأمر كأن إسرائيل إمبراطورية كبرى، وأن الجيش المصري جرى مسحه من الوجود في ساعات.

وتحفل الكتابات العسكرية الرصينة بنماذج باهرة لطيارين مصريين أدركوا جيداً حجم المأساة.. وشاهدوا بعيونهم آثار الخراب الذي سببه سلاح الجو الإسرائيلي في الطائرات والممرات، ولكنهم مع ذلك انطلقوا بطائراتهم في أعمال بطولية لا مثيل لها. لقد قامت القوات الجوية المصرية بعدد كبير من الطلعات الجوية في يوم 5 يونيو وما بعده.

كانت هذه الطلعات أقرب إلى الأساطير، ذلك أن الضباط الذين قاموا بها، كانوا يدركون أن جيشهم قد انهزم، وأن أرضهم قد احتلت، وأن قاداتهم قد أصابهم الضرع بعد الفشل. كان الأبطال المصريون في 1967 أكثر جسارة من نجوم العسكرية الألمانية والبريطانية في الحرب العالمية الثانية.

إن عشرين طياراً مصرياً انطلقوا بطائراتهم في أسبوع النكسة عام 1967، وهم يدركون تماماً أنها عمليات استشهادية، كانوا يعلمون أنهم يحاربون وسط الهزيمة، ويقاتلون بلا مطارات ولا ممرات ولا غطاء.. ومع ذلك انطلق العشرون طياراً بعشرين طائرة في عملية تشبه عملية بيرل هاربر، التي نفذها الجيش الياباني في الحرب العالمية الثانية، حيث الانطلاق والقتال مع اليقين الكامل بالموت. ولقد استشهد في هذه الطلعة 19 طياراً ليعود من تلك النخبة من الأبطال طيار واحد.

ولقد حكى لى الفريق سعد الدين الشاذلى، رئيس الأركان في حرب أكتوبر، ما كان من شأنه وشان مجموعة الشاذلى في حرب 1967. حدثنى الفريق الشاذلى عن وجوده مع

أكثر من ألف من ضباط وجنود الجيش داخل إسرائيل بخمسة كيلومترات.. أى أن مجموعة الشاذلى تقدمت في حرب 1967 لتحتل مواقع في إسرائيل، ثم قدمت نموذجاً بارعاً في كيفية الانسحاب بأقل الخسائر فيما بعد.

لقد تشرفت - بالتوازي مع هذه السلسلة - بإطلاق مبادرة من خلال برنامج «الطبعة الأولى» على قناة «دريم» تستهدف توثيق وإعلان بطولات يونيو 1967.. وها أنا أكرر المبادرة عبر صحيفة «المصرى اليوم».. وإنى لأمل أن يتفضل أصحاب هذه البطولات أو عائلاتهم أو شهود بطولاتهم أو القراء الذين تابعوا عبر مراجع ومصادر لم تعد متاحة.. أن يتكرموا بإرسال تعليقاتهم، واعداء إياهم بالاحتفاء والاحتفال.

إن الهدف من إحياء بطولات 1967 ليس فحسب هدفاً وطنياً يعيد الثقة لشعبنا في بلادنا، ويرفع رؤوس أجيال باتت تقرّ للجهلاء وعملاء يحدّثونهم عن انكسار مصر في حرب أكتوبر 1973 وعن بطولات إسرائيل في النغرة، وعظمة قادتها في الدفرسوار.. بل الهدف أيضاً هو إحياء الحقيقة وإزالة الغبار عن أناس حاولوا إضاءة ظلمة يونيو بما قدموا من أرواح وأجساد.. فالشرف لنا ولهم أن نعيد إليهم الاعتبار ونعيد إلينا الاحترام..

1967.. هزيمة عادية (3)

■ لم تكن حرب 1967 حدثاً تاريخياً فاصلاً، كما لم تكن نصراً اسطورياً على النحو الذى ارتآه الفكر الإسرائيلى وارتضاه الفكر العربى، بل إن النتيجة النهائية للحرب، وهى احتلال سيناء حتى قناة السويس، ليست بالنتيجة التى كانت تستدعى كل هذا الانهيار النفسى فى بلادنا، لقد بدأ الأمر وكأننا أمة لا تعرف ما يكفى عن الجغرافيا أو التاريخ.

ذلك لأن الحروب بطبيعتها هى هزائم وانتصارات وتعادلات.. وإن الأمم العظيمة والدول الماحدة هى تلك التى تحسن إدارة الانكسار بمثل ما تحسن إدارة الانتصار.

قبل عشرين عاماً من حرب 1967، كانت الحرب العالمية الثانية قد وضعت أوزارها قبل قليل، وكان من وقائع هذه الحرب ما يزيد عشرات المرات على ما جرى فى 1967.. إن امبراطورية استعمارية راسخة مثل فرنسا جرى اكتساحها فى أيام، واحتلت ألمانيا قلب فرنسا فى باريس بأسهل مما احتلت إسرائيل أطراف مصر فى سيناء، بل لقد وجدت ألمانيا فى فرنسا حاكماً عميلاً، وحكومة عميلة، ونظاماً سياسياً كاملاً سقط خائناً تحت أقدام الاحتلال، أما إسرائيل فقد وجدت فى سيناء مقاومة عظيمة ووجدت فى جيشنا، الذى أخطأ قاداته فى السياسة والإدارة، بطولات مذهلة وثباتاً مستحيلاً.

ثم إن هذا الجيش الذى اضطرت له أخطاء الساسة إلى الانسحاب لم يأخذ ساعة واحدة للارتياح حتى بدأ حرب الاستنزاف المجيدة بعد أيام من الهزيمة.

إن دولة مثل بولندا اكتسحها الجيش الألمانى فى يوم واحد، وإمبراطورية عملاقة مثل الاتحاد السوفيتى غزاها الألمان وتمكنوا منها زمناً مهماً حتى ولوا الأدبار، ثم إن دولاً مثل كوريا والصين دخلها الجيش اليابانى كاسحاً الأرض وماسحاً ما فوقها ليسقط الملايين دون مقاومة مشرفة.

ان امبراطورية ثالثة مثل بريطانيا كانت على وشك الهزيمة.. واختفت معالم لندن تحت قنابل هتلر.. ولولا دخول الولايات المتحدة الأمريكية لخرجت بريطانيا وفرنسا من التاريخ!

فى كل الحروب الحديثة كانت الدول تنهار والعواصم تتساقط والعملاء يصعدون.. وتأخذ الأوطان قروناً أو عقوداً حتى تنهض من جديد.

وفى حرب 1967.. لم تتفكك الدولة ولم تسقط العاصمة ولم يحكم الاحتلال، بل جرى احتلال جزء ثمين من أرض الوطن.. لم يمر على احتلاله أسبوع واحد حتى بدأت حرب التحرير من الاستنزاف وحتى أكتوبر.

لم تكن مصر فى أى من الحروب الثلاث 1967 والاستنزاف و1973 تحارب إسرائيل وحدها.. بل كانت تحارب الطائرات الأمريكية والدبابات الأمريكية والذخائر الأمريكية والأقمار الأمريكية والكوادر السياسية والعسكرية الأمريكية.

كان فى أمريكا من يقف ضد جنوح إسرائيل، ومن يجد الغيرة الوطنية من صعود اللوبى الصهيونى فى واشنطن، ومن يخشى انفلات المنطقة والعالم.. لكن كان هناك من يرى فى إسرائيل امتداداً للتراب الأمريكى.

■ لم تكن مصر تحارب إسرائيل وحدها.. بل كانت تحارب إسرائيل ونصف الولايات المتحدة.. معاً.

الفصل الخامس

انتقااص وأحداث

أبي *

في مصر.. انسحب الذين يعلمون وتقدم النين لا يعلمون، طردت العملة الرديئة العملة الجيدة.

استياس الموهوبون وعلت جراحة الجهل، بات ذوو الإمكانيات يفضلون الانزواء والابتعاد، إذا سألت شخصاً موهوباً.. لماذا أنت في مكانك هذا.. لماذا وضعك الوظيفي علي هذا الحال؟.. سوف تسمع عشرات الإجابات اليائسة، أحدهم سيقول، لقد بذلت ما في وسعي واضطهدوني، وسيقول ثانٍ، إنهم لم يفهموا حجم قدراتي لأنهم محدودون.

وسيقول ثالث، إنهم حاصروني حتي أغادر وقد غادرت، وسيقول رابع، إنها الكرامة يا أخي.. سأترك كل شيء ولا أرفع سماعة الهاتف لأتصل بأحد.

والحادث.. أن أحداً لن يتصل، بل إن هؤلاء الذين بيدهم أمر الاختيار سيكونون أكثر سعادة بانسحاب الموهوبين، ها هو نصر بلا حرب، نصر من تحالف عديمي الموهبة علي الذين يعلمون، لن يتصل أحد بمن ينتظر رنين هاتف العدالة، ولن يتصل أحد بمن ينتظر رنين هاتف الإبداع.. فلا هاتف للقيم أو هاتف للمبادئ أو هاتف للوطن يمكن أن يتحرك تلقاء نفسه الي الرقم المطلوب.

كان أبي رحمه الله رجل دين ورعاً، كان يتلو القرآن سراً وجهرأ أثناء الليل وأطراف النهار، وكان يحفظ ألفية ابن مالك وعيون التراث ويكاد يتلو أمهات الكتب من الاستيعاب والإخلاص، ولكنه لم يفعل شيئاً غير ذلك..

كان يعتقد أن هاتفاً من السماء سيأتيه ويبلغه ما يريد، كان يثق في أن الحياة لا

* نشر هذا المقال في ديسمبر عام 2006

يمكنها ان تمضي علي هذا النحو، وأن قواعد اللعبة لا يمكنها أن تسير بغير منطق، وكنت كلما جادلته في ذلك يقول، إنني أومن تماماً بأن ما نفعل من أسباب سيؤدي حتماً إلي نتائج، وما نسلك من طريق سيؤدي قطعاً إلي غاية.

قلت لأبي ذات مرة، وماذا لو لم يحدث أي شيء؟ ماذا لو كنت تنتظر وهما اسمه العدالة وخرافة اسمها الإصلاح.. ماذا لو استمر اللامنطق يحكم حياتنا، ليسود الجاهلون ويموت العارفون.. يعلو الذين لا يعلمون ويشقى الذين يعلمون.. ماذا لو كانت نهاية هذا العناء هي الموت، ونهاية هذا الصبر هي إسدال الستار لا مفتاح الفرج؟!

لم اكن بالضرورة في عمري المبكر اعرف تماماً ما الذي كان يريده أبي.. ربما كان يريد الثراء بعد سنين طوال قضتها الأسرة في بساطة متعبة، وربما اختار أبي فكرة الزهد من الفكر الصوفي ليغطي علي فشلنا في إدارة شؤون الدنيا، ربما كان يخشي فشل الرهان في حياة رغدة فاختر احتياطاً إيمانياً يعين علي نوائب الأيام.

وربما كان أبي يريد مكانة ونفوذاً، ذلك أنه كان أكبر من حياته وكان أقدر من مساره وكان أعظم من أدائه.. مثل كثير من أبناء جيله الموهوبين..

كانت المسافة بعيدة.. بعيدة بين ما كان وما ينبغي، بين الحياة الدنيا التي عاشوها والحياة العليا التي عاشها رفاق العمر.. وربما كانت حجة الزهد، بمثابة تهيئة النفس للإخفاق.. وكان الاختيار كان إرادياً من الحياة الأخرى إلي الحياة الآخرة!

وربما كان أبي قضي معظم حياته عضواً في جماعة الإخوان المسلمين يعني بهاتف السماء.. وصول الإخوان إلي السلطة، وأذكر مرة زارنا فيها الشيخ أحمد البس مؤلف كتاب الإخوان المسلمون في ريف مصر، وعضو مجلس الشعب عن الجماعة ما بين عامي 1987 - 1990، قال الشيخ لأبي، لا تقلق يا شيخ محمد، لقد هانت، وإن فرج الله قريب. والأغلب أن الأستاذ البس كان يعني بفرج الله تسلم السلطة، وقد دهشت لأن أبي ربما كان في انتظار هذا الفرج!

وربما لم يكن في انتظار ذلك، وهو مجرد خطاب مجاملات اعتاد الإخوان ترديده في المناسبات واللمعات.

وربما كان أبي يعني بهاتف السماء إصلاح حال البلاد والعباد علي نحو ما يامل اهل السياسة، فقد مرّ بمرحلة حب أولي للنحاس باشا، ثم حب ثانٍ للحركة المباركة ثم حب ناقص للزعيم الخالد، ثم حب جريح للرئيس المؤمن!

وكان أبي مثل عدد من الإخوان المسلمين يقول بكفر الرئيس عبدالناصر، وقال لي: لقد كنت مخطئاً حين بكيت لوفاته ثم زرت في قبره، وقد جادلت أبي كثيراً في ذلك.. ولكنه ظل معتقداً بكفر عبدالناصر حتي قبل وفاته بقليل.

لقد مضت الأيام والسنون ولا شيء يحدث، لا نحن أصبحنا أثرياء، ولا أبي صار موسراً ونافذاً، ولا الإخوان وصلوا إلي السلطة، ولا تطور حال البلاد والعباد.

وفي مرة زاره متصوفة سمعت بعضهم يحدث الآخر باقتراب زمن المهدي ونهاية العالم.. وقد استشعرت من حديث ضيوف أبي أن الساعة غداً أو بعد غد، وأن في صحبة أبي وحده ألف مهدي ينتظر!

دارت الحياة دورة كاملة.. ومات أبي عن قليل وستين عاماً، وقد اهتزت أركان لوفاته، ليس فقط لجلال الموت وحنان الميت، ولكن أيضاً لأن طارق السماء لم يجرى، وكان كل انتظار أبي في لا شيء. ظل أبي يشكو عديداً وطويلاً ثم ها هو قد رحل بشكواه إلي الله!

اشعر اليوم بقصص كثيرة تشابه قصة أبي، ملايين الموهوبين المخلصين الذين لا يفعلون شيئاً غير الانتظار، وملايين الجهلة التافهين الذين اندفعوا ينهلون ما بقي من الوطن.. شرفاء بلا طاقة ولا سند.. وجهلاء لا ينتظرون رنين الهاتف!

عمرو خالد والمخابرات البريطانية (1)

لا أعرف الكثير عن الأستاذ عمرو خالد.. ولكنني أجد الرجل حاضراً في دردشات هائلة ما بين معجب ومعترض.. ويقول أصدقاء لي يعرفون عمرو خالد إنه رجل مهذب، وإن لديه من المعرفة ما يكفي لما يقول.

البداية

عدت من زيارة إلى المملكة الغربية وفي صحبتي عدد من الصحف والمجلات الصادرة هناك، وكان من بينها صحيفة «حصاد الأيام، الغربية عدد منتصف ديسمبر 2006.

وقد أبرزت الصحيفة موضوعاً ساخناً بعنوان «المخابرات البريطانية تفضل عمرو خالد»، وقالت إنها تنقل هذا التقرير عن صحيفة «الصندي تايمز، البريطانية.

يقول التقرير،

«تعتزم المخابرات البريطانية شن حملة لكسب قلوب وعقول المتشددین وأنصار القاعدة الوجودین فی بريطانيا، بهدف منع وقوع عمليات إرهابية...» وسوف تعتمد المخابرات البريطانية على أنمة معتدلين لتنفيذ الخطة، ومن بین هؤلاء الأنمة الداعية المصري عمرو خالد... وسوف يتلقى عمرو خالد أموالاً من الحكومة البريطانية بموجب هذه الخطة... والهدف من الخطة منع الإرهاب من خلال معالجة الأسباب الأساسية. والحد من اتجاهات الشباب المسلم تجاه تنظيم القاعدة.

لم تكتف الصحيفة الغربية بما نقلته عن الصندي تايمز وإنما علقت قائلة، «من المعروف أن عمرو خالد علي صلة قوية بعدد من حكام الدول العربية الحليفة لأمريكا وبريطانيا وهو لا يتطرق في برامجہ إلى القضايا العربية والإسلامية، وإنما يكتفي بقضايا

مثل الانفتاح علي الآخر.. وهي القضايا التي تسعى المخابرات البريطانية إلي الترويج لها والتشجيع عليها بين المسلمين..

ما يخصّ عمرو

لدينا في هذا الشأن أمران أساسيان، أمر يخصّ الأستاذ عمرو خالد وأمر يخصّ صورة الإسلام في العالم، وما يخصّ عمرو في هذا المقام يحتمل عدة وجوه.. إما أن تكون الصحيفة المغربية قد حرّفت ما جاء في الصنداي تايمز، أو تكون الصنداي تايمز نفسها غير دقيقة فيما نشرت، أو أن تكون المصادر التي أعطت هذه المعلومات الصحفية إلي الصنداي تايمز مصادر مغرّضة تستهدف النيل من مكانة بعض الشخصيات الإسلامية. أو يكون إذن الاحتمال الأخير..

وهو صحة كل ما نشر.. أي أن المخابرات البريطانية ستعطي عمرو خالد وآخرين مبالغ مالية لقاء مساعدة الحكومة البريطانية في مواجهة التطرف الإسلامي. وما اعتقده أن عمرو خالد شخص عاقل وحسن السمعة ويتسم بالاعتدال والاتزان، وإذا كان الخبر صحيحًا فمن المؤكد أن لديه وجهة نظر في ذلك، ولو كان الخبر خاطئًا فقد كفي الله المؤمنين القتال.

وفي الحالتين.. أي أن يكون الخبر صحيحًا أو كاذبًا يتوجب علي السيد عمرو خالد أن يعلن عن موقفه، وأن يكون الإعلان واضحًا لا لبس فيه.. هل الخبر صحيح أم خطأ؟ وإذا كان خطأ فعليه أن يرسل بدوره ردًا إلي الصنداي تايمز لأن الخبر - في تقديري - يسيء إلي مكانته ويلحق الضرر بسمعته الأدبية، وإذا كان صحيحًا فهي فرصة للداعية الشاب لكي يشرح لنا وجهة نظره في هذه الشبهات بل هذا اليقين المروّع.

وما يخصّنا

نأتي إذا إلي صورة الإسلام ومكانة المسلمين، ولا أدري ما هذا «الكلام الفارغ» الذي كتبه الصحيفة المغربية، من يقول بأن محاولة كسب عقول وقلوب المتشددین وأنصار القاعدة إلي الإسلام المعتدل هو هدف للمخابرات البريطانية، ومن يقول بأن منع الإرهاب من خلال معالجة أسبابه الأساسية والحد من اتجاه الشباب المسلم نحو التطرف هو شأن استخباراتي بريطاني،

ومن يقول بأن اهتمام الأستاذ عمرو خالد بقضايا الانفتاح علي الآخر يقع ضمن جدول أعمال المخابرات البريطانية، ومن يقول بأن قيمة التسامح والانفتاح علي الآخر هي من

القضايا التي تسعى المخابرات البريطانية إلى الترويج لها والتشجيع عليها بين المسلمين، من يقول كل هذا الهراء؟!

.... إن هذه الأهداف هي بالأساس أهدافنا نحن لا أهداف المخابرات البريطانية، هي محنتنا نحن، هي أزمئنا، هي كارئنا.. هي التحدىاء التي تواجهنا والأهداف التي نبتغيها.

لقد هزمئنا التطرف الإسلامئ ومسلمين قبل أن يصيب واشنطن أو نيويورك أو لندن أو مدريد ببعض جراح هنا وهناك. أصاب جهلاء المسلمين حفنة أبراج ومحطاء ومطاعم خارج العالم الإسلامئ، ولكنهم كمن ألقى قنابل نووية على العالم الإسلامئ، كأنهم اعتبدوا بمطواة على قطار يمضي هناك، ولكنهم أطلقوا الرصاص على رؤوسنا ونحن نيام. تضررت لندن ونيويورك وانهار وضع المسلمين وتدهورت صورة الإسلام!

الأزمة أزمئنا والمصيبة مصيبتنا، فماذا لو جاءت المخابرات البريطانية أو الفرنسية أو الأمريكية أو حتى المخابرات النيبالية وقالت بهذه الأهداف التي أشرنا إليها، أي كسب قلوب وعقول المتشددين وأنصار القاعدة، بهدف منع وقوع عمليات إرهابية، هل يعني ذلك أن نفعل العكس حتى لا يكون أداؤنا مجرد تنفيذ للأهداف الغربية؟ ماذا لو اعتلى رئيس المخابرات الإسرائيلية «الموساد» منصة في مؤتمر صحفي،

وقال: «علي مصر أن تحافظ على علاقة جيدة بين المسلمين والمسيحيين، وعليها مقاومة نشاط تنظيم القاعدة في أرضها، وكسب الرأي العام من خلال إقرار النهج الديمقراطي وتعزيز الحريات، ومنح المعارضة فرصًا حقيقية للمشاركة السياسية، ودعم علاقة الأجيال الجديدة بالعالم من خلال توسيع فرص البعثاء والتعليم في الخارج».. هل يعني ذلك أن من يسعى إلى تنفيذ هذه الأجئدة هو منفذ لخطط الموساد في مصر؟!

كان ينبغي علينا لو أننا في وضع رائع أن نقاتل بأنفسنا الخارجين على هذا الدين، كان ينبغي أن تكون معركة الإرهاب هي معركة المسلمين أنفسهم مع الإرهاب.

كان ينبغي أن نخوض نحن الحرب ضد «الفئة الباغية»، ولكن أن يتصدّر للقتال آخرون لديهم مطاعم وأغراض ومصالح ولديهم فوق ذلك رؤئ دينية ومذهبية حاكمة وكريهة ضد الإسلام وضد المسلمين، فهذا لا يعني أن الموقف قد تبدل وأن الخطأ صار صوابًا.

في كلمة واحدة.. لدينا رؤئنا لبلادنا وديننا أفئئ قال بها الآخرون تركناها؟.. لا والله لن يكون.

عمرو خالد والمخابرات البريطانية (2)

اتصل بي الأستاذ عمرو خالد شارحاً وموضحاً ما أثير حول تقرير نشرته صحيفة «الصنڊاي تايمز» البريطانية، بشأن صورة الإسلام في الغرب.

وكننت قد نشرت مقالاً بعنوان «عمرو خالد والمخابرات البريطانية»، قلت فيه إن صحفاً عربية نقلت عن «الصنڊاي تايمز» تقريراً للمخابرات البريطانية، يتضمن التقرير تصوراً لحالة الإسلام في الغرب، ولكيفية مجابهة التطرف الديني ونشاط تنظيم القاعدة،

وقال التقرير، إنه ينبغي الاستعانة بالدعاية عمرو خالد، لمحاولة ترميم العلاقة بين مسلمي الغرب وبين البلدان التي يقيمون فيها، ولكن التقرير أشار إلى أن الأستاذ عمرو خالد قد يحصل علي أموال نتيجة القيام بهذه المهمة.

وقد أثار المقال تعليقات وردوداً أكتفي منها بما تفضل به الأستاذ عمرو خالد، حيث إن توضيحه جاء وافياً وكافياً.

توضيح من عمرو خالد

نفى الأستاذ عمرو خالد أن تكون صحيفة «الصنڊاي تايمز» قد نشرت هذا الكلام مؤخراً، وقال، إن واقعة النشر هذه قديمة، كان الاحتفاء وقتها بإعادة النشر مواكباً لغيابي عن مصر، وأما إعادة النشر الآن.. فلا أعرف له معنى غير الإثارة الصحفية، ومحاولة النيل من الدور الذي أقوم به، لاسيما أن هذا الموضوع قد انتهى بما قمت به من رد وتوضيح.

ونفي عمرو خالد أن يكون قد أعطي محاضرات في هذا الإطار، نظير مبالغ مالية. وقال، هذا لم يحدث إطلاقاً.. والكل يعرف من يمكنه أن يقبل هذا ومن لا تسمح له قيمه وأخلاقيات بقبول مثل هذه العروض.. وأضاف: إن المخابرات البريطانية أذكى من أن تفعل هذا معي.

.. سألت الأستاذ عمرو خالد، إذن ما الحكاية؟.. ماذا حدث وماذا فعلت؟.. قال، نشرت «الصنداي تايمز» منذ ثلاث سنوات تقريراً يقول، «لم يعد أمام الحكومة البريطانية من حل سوي عمرو خالد... وقالت إنه لابد لبريطانيا من الاستعانة به في خوض معركتها ضد الإرهاب، فهو الوحيد القادر علي ذلك»، ونسبت الصحيفة البريطانية هذا الكلام إلي تقرير رسمي للحكومة البريطانية.

بعدها مباشرة أجري الأستاذ عماد الدين أديب معي لقاء علي قناة الأوربت، ونشر مضمون اللقاء في عدد من الصحف.. وكان هذا الحوار كافياً لإنهاء هذه الزوبعة، لقد طرحت في هذا الحوار ثلاث نقاط أعيدها الآن لكي أوضح من جديد،

.. النقطة الأولى.. نحن كمسلمين نعاني معاناة شديدة من أن وسائل الإعلام الغربية تعرض الإسلام بشكل مشوه، كما أنها تقدم أناساً سيئين، باعتبارهم صورة الإسلام والمسلمين. وعلي ذلك، وحرصاً علي صورة ديننا وصورة المسلمين، يتوجب علينا إحلال الصواب محل الخطأ، ولو أعطيت لنا الفرصة لذلك، أي لتوضيح صورة الإسلام، لكانت فرصة عظيمة.. لا ينبغي أن نتردد فيها، ذلك أن هذا الأمر هو هدف الإسلام ورسالة المسلمين.

.. النقطة الثانية.. تتعلق بفقہ الدعوة، فالداعية لا ينبغي أن يشغله عرض الدنيا أو أن يشتري، وفي هذا المقام تحضرنى قصة هي شارحة لما أريد توضيحه، كان هناك حاكم وعالم، رغب الحاكم في تطويع العالم واستخدامه، فذهب إلي المسجد حيث يتعبد العالم،

ودخل المسجد إلي حيث العالم ثم قال له، هل لك من حاجة فأقضيها لك، فرد العالم علي الحاكم، إنني أستحي أن أكون في بيته وأسال غيره، خرج الحاكم ينتظر عند باب المسجد، ولما خرج العالم عاد الحاكم ليسأله، هل لك من حاجة فأقضيها لك؟..

قال العالم، حاجة من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟.. قال الحاكم، بل حاجة من حوائج الدنيا، قال العالم، إنني لا أسألك من يملكها.. أفأسألك من لا يملكها؟..

هذه القصة حدثت وقائعها في الدولة العباسية، وقد حكيتها في الغرب، لأدلل علي قيم الدعوة في الإسلام، وأنا أقولها بوضوح: نحن قوم لا نشترى.

.. النقطة الثالثة.. تخص التعاون بين المسلمين وغير المسلمين، وفي هذا فانا موافقي ثابتة، قبل ما نشرته «الصنداي تايمز» وبعد النشر، إنني أقبل التعاون فيما يفيد الإسلام

والمسلمين، والتعاون لا يعني أبداً أن تفرض علي ثقافتك ورؤيتك ومصالحك، وإلا أصبح هيمنة لا تعاوناً. التعاون والتعايش ليس أن تأخذ أرضي وتستولي علي حقوقي، ثم تطلب التعايش، ليس أن تفرض ثقافة أو نمطاً أو نموذجاً معيناً تحت دعوي «التعاون والتعايش».

ما بعد التوضيح

إنني اعتبر رد الأستاذ عمرو خالد علي ما نشر راقياً وكافياً، كما أعتبر ما قاله يمثل نقطة نهاية السطر في هذا الموضوع، وما أعود للتأكيد عليه في هذا المقام.. هو أن مقتضيات الوظيفة الحضارية للإسلام، والدور الحضاري للمسلمين، إنما تتطلب خوض معركة التطرف وحماية الدين من الذين اختطفوه وآذوه،

وسواء تردد هنا أو هناك، أن دولاً أو صحفاً أو أجهزة قالت عن هوي أو غرض قولاً سديداً في هذا الشأن، فلا يمنعنا من قولة الحق وارتداد سبيله إن قال به آخرون ممن نخالف ونعارض، ولو أننا بعاقبة حضارية لكانت الحرب علي الإرهاب هي حربنا نحن لا حرب الآخرين، فالصمت علي اختطاف الدين خطيئة، والارتباك بشأن الخاطفين جريمة، ولا يغفر التاريخ لمن يفهم متأخراً.

مذكرات رجل عظيم

قال لي سامح الصريطي إن فاروق الفيشاوي يريد أن يتحدث إليك، كنا سويا في حفل عشاء، وكنت قد استسلمت إلى مذاق الطعام وجاذبية اللاتفكير، قبل أن يقطعهما الفيشاوي قائلا: لقد انتهيت من قراءة مذكرات الدكتور عبدالوهاب المسيري، وأريد منك أن تنقل تحياتي له وإعجابي به.. وكل ما أرجوه أن تجد وقتا لديه يجمعنا معه.

كان الطلب في ذلك العشاء العجزمي مدهشا، فنان يقدم لي فنانا تاركا فنانة، ليحدثني عن مذكرات فكرية وفلسفية رصينة!

والواقع أن ذلك ليس مدهشا، ذلك أن المسيري هو ذلك تماما، هو ذلك الرجل الذي يمكنه أن يخطف كل الأضواء في لحظة واحدة، بل ويخطفها في غيابه بقدر ما يخطفها في حضوره هو الفيلسوف العالم.. الفكر الباحث.. المناضل المسؤول. هو الأستاذ بامتياز، الإنسان بما يزيد.

للذين يعرفون الدكتور عبدالوهاب المسيري والذين لا يعرفون، لا تجعلوا مكتباتهم خالية من هذا الكتاب، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار، وهو كتاب يحوي مشاهد ثرية ورائعة من السيرة غير الذاتية للمفكر الكبير.

والدكتور المسيري بلديات العالم الكبير الدكتور أحمد زويل، كلاهما ولد في دمنهور، وتخرج في جامعة الإسكندرية ودرس في الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد سعدت حين أهداني الدكتور المسيري مذكراته لأهديها بدوري إلى الدكتور زويل، وغلبني العجب كيف يكون هذا حال وطني فيه من فيه ممن يملأون البصر ويضيئون البصيرة، وفيه من فيه من يبدعون الفشل ويخلصون الخطيئة! عودة إلى مذكرات المسيري، فقد ترددت فيما يمكن الإشارة إليه والاقتباس منه في هذا العمل

الفريد. وقد اخترت أن نقرأ معا بعضا مما روي السيري، ففيه وحده دون تعديل أو تحوير ما يشبع ويغني من جوع.

يقول السيري، «كانت الثالثة ظهرا عند جامع ابن طولون في الأسبوع الأخير من رمضان، ظل السائق الذي يقف ورائي بسيارته يضغط علي الكلاكس ويطلب أن أتقدم، عجلة قدام والني أي مسافة صغيرة جدا تعادل مدار عجلة واحدة فقت له، كلنا واقفون، فلم أتحرك هذه المسافة الصغيرة؟ فأجاب، «عشان تسديني شوية أمل»، لقد تدهور الأمر تماما مع حفيدي، الذي وقع ضحية الجريمة المنظمة التي تسمى أعياد الميلاد، فإذا كان عدد زملائه في الفصل 25، هنا يعني أنه يحضر 25 عيد ميلاد ويحضر 25 لعبة لزملائه، وهم بدورهم يفعلون الشيء نفسه، وفي عيد ميلاده يصله عدد مخيف من اللعب، يغرق فيها تماما!

♦ في الولايات المتحدة، كنت في سن الأربعين، وكانت إحدى عاداتي أن أجري في الحدائق في المدينة الجامعية لأخفف من حدة التوتر الذهني ولأزيد من لياقتي البدنية. وبينما كنت أعدو، وجدت بعض الشباب في سيارة يقول في سخرية، «أذهب واحرق نفسك»، فلم أفهم ما يقولون، خاصة أن الشباب في المنطقة التي كنا نعيش فيها كانوا مهذبين للغاية، وحينما استفسرت أخبروني أنني في مثل هذه السن لابد أن أعاني مما يسمى أزمة منتصف العمر، «بالإنجليزية Midlife Crisis، التي تعني أن ما تبقي من عمري أقل مما فات، وأنه لا يوجد مجال للتجريب والخطأ، فدهشت كثيرا لأنني لم أكن قد بدأت حياتي الفكرية بعد!

♦ في مصر.. بلغت تكاليف أحد الأفراح مليوني جنيه، وبعد شهرين بلغت تكاليف فرح آخر سبعة ملايين جنيه، أزهار من إندونيسيا، لحم غزال من سويسرا... في الوقت الذي لا نعرف أن أحد هؤلاء الرأسماليين الجدد قد تبرع بمثل هذه المبالغ لإنشاء مستشفى أو لدعم إحدى الجامعات.. وقد ظهرت أخيرا ظاهرة «مخرج الأفراح» وهو شخص مهمته تحويل الفرح الخاص إلى استعراض عام، وفي فرح أحد الأثرياء في الإسكندرية قام بتوزيع فيلم فيديو علي المدعوين عن حياته الرومانسية مع عروسه قبل الزواج!

♦ بروتوكولات حكماء صهيون.. وثيقة مزيفة، إن ترويج البروتوكولات يثبت روح الهزيمة ويقوض روح الجهاد، وإن الإصرار علي أن اليهودية عبارة عن مجموعة من الصفات الثابتة التي يتوارثها اليهود جيلا بعد جيل يتناقض وتعاليم الإسلام التي تذهب إلي أن

الرديلة مثل الاستقامة مسألة اختيار وليست مسألة ميراث.

♦ كثير من الأبحاث الجامعية الآن ليست «بحوثا» علي الإطلاق، فهي في كثير من الأحيان عبارة عن المادة البحثية الأرشفية بعد تصنيفها سطحيا، وبعد ترتيبها بطريقة لا تستند إلي منطق!»

♦ لعل هؤلاء لم يسمعوا تعليق الشيخ محمد عبده حين قيل له إن فلانا قد حفظ البخاري. فقال: «لقد أضيف إلي البخاري نسخة جديدة!»

نصف عبدالوهاب المسيري..

كان كافياً

قال لي صديقي الدكتور ياسر علوي، يمكن أن نلتقي غداً في المساء، قلت له، ولم لا يكون في الصباح؟.. قال لي في استعلاء هادئ، لأنني سوف ألتقي الدكتور عبدالوهاب المسيري في الصباح.

ياسر علوي أكاديمي وبلوماسي مميز، وهو واحد من نخبة الجيل الجديد، الذي عزز من أركان المدرسة السيرية.

لقد ظللت لسنوات طويلة أتمنى صحة السيري، وآمل أن أكون واحداً من القربين منه.. المستمعين إليه.. المحاورين له.. المتعلمين منه.

وقد تفضلت مذيعة الجزيرة الأستاذة «سوزان حربي» بترتيب اللقاء الأول بيننا، وكانت سوزان في تلك الأثناء تعمل بدأب علي جمع تراث السيري من حوارات متفرقة زماناً ومكاناً بين دفتي كتاب واحد.

قابلت أستاذنا المسيري.. فوجدت فضاء شاسعاً من النبل والخلق.. من العذوبة والبهجة.. من المعرفة والدأب.. كان للسيري فيلسوفاً وإنساناً علي قدم المساواة من الفكرة إلي النكته.. ومن السياسة إلي الحضارة ومن الموسيقى إلي الإيمان.

لم يكن المسيري مفكراً ولا فيلسوفاً ولا صاحب موسوعة ولا صاحب كتب وأبحاث ومقالات ولا رائد مدرسة وأستاذ أجيال وعنوان نضال.. لو لم يكن أي شأن من ذلك.. لكفاه ما

عليه من صفات الحب والأبوة.. حناناً ودفئاً.. نصحاً وإرشاداً.. تشجيعاً ومديحاً.. ظهراً وسنداً..
لطفاً وكرماً.

كان نصف عبدالوهاب المسيري يكفي ويزيد، ولكننا كنا محظوظين، وطناً
ومواطنين، أن ذلك الرجل عاش بيننا ذات يوم.

إنني لأشعر بفخر وزهو، ذلك أن استاذنا المسيري تفضل علي ذات يوم وكتب مقدمة
كتابي «خريف الثورة»، الذي أصدرته دار ميريت قبل سنوات. وإنني لأعتبر مقدمته الرائعة
بمثابة إرث ثمين.. كلما هزمتني الوحشة.. وغلبني الحنين.. اتجهت إليها.

كما أنه تفضل مرة أخرى وكان ضيفي في الصالون الثقافي الذي أقيم في منزلي
بالقاهرة، وحضر مع ضيوفي أربع ساعات كاملة.. في حديث بديع ورصين.

كان الأمل أن يتحول مشروع المسيري بشأن إسرائيل وما قبلها وما بعدها، إلى رؤية
وخطط وقرارات.

كان الأمل أن تكون الموسوعة التي اشتهر عنوانها ومات مضمونها أساس مدرسة
سياسية واستراتيجية.. تتحدث في البدائل والخيارات، وكان الأمل أن تتحول أعمال المسيري
إلى وجهة نظر وطن في لحظة صراع، وأن تكون مقولاته أضواء كاشفة لمواقع الخصم
ومواضع الحركة.

رحل المسيري ليرفع عن كاهلنا عبء التفكير وثقل الضمير.

رحل الدكتور عبد الوهاب المسيري، وإسرائيل تتدرب علي عبور القناة.. ومصر
غارقة في انتخابات نادي الزمالة.

حفل عزاء

كان العمر لحظات، صار أقل، وكانت الحياة اجتماعاً واسعاً يمتلئ عن آخره بجدول أعمال كثيف، صارت الحياة مجرد تمهيد لاجتماع لا ينعقد، وأهداف لا تكتمل وجدول أعمال يجري ترحيل أغلبه إلى دار أخرى وأخرى!

واذكر أنني التقيت السياسي الفلسطيني فيصل الحسيني، وكان المسؤول عن ملف القدس، في السلطة الوطنية الفلسطينية، كان الرجل مشحوناً إزاء ما يجري في الأراضي المحتلة، وراح يتحدث بمرارة كيف أن إسرائيل لا يمكن الثقة بها ولا حتي الحوار معها، وكيف أنها تعمل ليل نهار من أجل القضاء علي الوجود العربي في القدس، ثم في غير القدس، وكيف.. وكيف.

كانت الشكوي مريرة والحزن عظيماً، ثم قال الحسيني، إنني لن أصمت، سوف نشكو إلي العالم ونكشفهم في كل مكان، سوف نفعل.. ونفعل، وبعد فترة من اللقاء عاد الرجل إلي بارئه يحمل الكثير من الاحباط والأكثر من الرجاء، وقتها كتبت عن الحسيني الذي قابلت ولن أقابل، فيصل الحسيني.. الشكوي إلي الله..

مثل فيصل الحسيني كان أحمد عبدالله رزّه قد راح يشكو في الندوات والمؤتمرات، ثم في الإذاعات والشاشات، وبينهما في الحوار والعواصم.. ولما زالت الشكوي بحيث لا تكفيها كاميرا ولا يشبعها كتاب.. راح يشكو إلي الله!

كانت شكوي الحسيني من عدو جاء وقتل واخذ، وأما شكوي رزّه فمن وطن لم يقتل ولم ياخذ، ولكنه صار قاسياً علي من فيه، شديداً بالخلصين رحيماً بالفاسدين! وقد سمعت الدكتور رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب السابق يقول، كل ما نخشاه أن يصبح هذا الوطن كاورشاليم فيرمي أبناءه بالحجارة!

اذن فمن هو الراحل العظيم أحمد عبدالله رزة؟.. هو واحد من ألمع وأفضل علماء الاجتماع السياسي في مصر، تخرج في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية وحصل علي الدكتوراه من جامعة كامبريدج وهو أيضاً صاحب كتابين من أبرز ما أنتجت مدرسة العلوم السياسية المصرية هما، «الطلبة والسياسة في مصر»

«الجيش والديمقراطية في مصر»، وهو ثالثاً محاضر عالمي من طراز رفيع حاضر في معظم جامعات العالم الكبرى من اليابان إلي الولايات المتحدة، وهو رابعاً نجم نجوم حركة الطلاب في جيل السبعينيات، حيث كان محرضاً وخطيباً ومنظراً وزعيماً، وقد وصلت مهاراته في ذلك إلي الحد الذي أخرج النظام.

وغازظ القيادة السياسية في عام 1972، حيث انتقده الرئيس السادات بالاسم محملاً إياه مسؤولية الإزعاج السياسي في الجامعات.. التي خرجت في أكثر من مائة ألف يطالبون بالحرب. وهو خامساً مؤسس مركز الجيل الذي مثل نموذجا خديماً خالصاً، خالياً من الفخامة والإبهار ورافضاً.. دون مزايدة

. للمنح والمعونات، وهو سادساً الإنسان اللافئ الرائع البشوش والحكاه والبالغ الخلق. ولكن أحمد عبدالله رزة الذي هو كل ذلك ويزيد، لم يجد مكاناً في أي من الجامعات أو مراكز الأبحاث، ذلك «الكامبريدجي» ذو الثقافة العالمية الرفيعة، ذلك المحاضر من طوكيو إلي هارفارد، مات وخانة الوظيفة في بطاقته.. لا يعمل!

قال لي ضياء رشوان، كانت لدي صعوبة في أن أعرفه للناس، وكان المؤسف ألا يعرفه الكثيرون إلا بأنه والد الفنانة بشري!

وقال جمال عبدالجواد، كان بالنسبة لنا رمزا، وكنا في عين الصيرة نتطلع إليه، فقد بدأ حياته ملء السمع والبصر، وأكملها لا يبتغي منها شيئاً لنفسه، كانت حياته من أجل الآخرين، لكن الآخرين لم يفعلوا لأجله شيئاً!

كان أحمد عبدالله دائم المناداة بالديمقراطية، ولكن الديمقراطية هي التي خذلتها حين رشح نفسه للانتخابات البرلمانية، فقد حصل العالم الذي قضى حياته من أجل كل من حوله علي مئات الأصوات، لم تقف معه الجماهير التي عمل لأجلها، لو أنها لم تذهب لكانت

مأساة، لأنه كان عليها أن تذهب وترد الجميل وتصنع المستقبل، ولكنها تجاوزت المأساة.. إذ ذهبت لتختار غيره ولتمنحه خذلاناً واضحاً وفشلاً بيناً، فقد أعطته أصواتاً لا تليق بانتخابات عائلية أو انتخابات طلابية في مدرسة ثانوية!

راح أحمد عبدالله وقد أطبقت عليه دنيا السياسة.. سلطة وشعباً، نخبة وجمهوراً، راح مرة في غياب الديمقراطية، ثم ثانية في حضورها، اختارت السلطة غيره، حين كان يشرفها أن تكون معه، واختار الشعب غيره حين كانت حاجته أن يكون معه، خذله الذين عمل ضدهم والذين عمل لأجلهم، الذين استعد لهم بالعلم والذين استعد لهم بالعمل، اجتمع عليه جموع الظالمين والمظلومين!

ذهب الرجل الذي حرك أكثر من مائة ألف من أجل الحرب، ثم فشل في تحريك شارع واحد للتصويت من أجل الحياة، ذهب من حصل على الدكتوراة في كامبريدج دون أن تقبله أي من جامعات الدولة أو جامعات الثروة أو جامعات ربات البيوت!

مضي من يحسن الحديث للذين لا يجيدون النطق.

ومن يحسن الكتابة للذين لا يتجاوزون كتابة أسمائهم وأرصدتهم. ومن يفهم في السياسة والاقتصاد ليترك الساحة لقصار القامة عديمي القامات، مضي من يعرف أين نحن من العالم وأين العالم منا ليترك الأمر لشيوخ الحارات وخفراء القري وبائعي الكمبيوتر!

حين ذهبت لوداعه الأخير في مسجد السيدة نفيسة، وصلت قبل الظهر بكثير فوجدت جثماناً ينزل من سيارة إسعاف، فحملت مع الحاملين قارئاً وداعياً، ولما انتهت الصلاة وجدت بلال فضل، حاملاً للنعش ذاته وغائباً عما حوله، ولكنه لم يكن أحمد عبدالله، لكن شخصاً آخر!

أما الراحل الكبير فكان أصدقاؤه قد أسرعوا به عند الصباح. يا إلهي.. لم نجد الفرصة لنعتذر إليه.. حملاً ودعاءً ووداعاً، كانت صلاتنا عن بعد، ودعاؤنا عن بعد، مثل حياته وأهدافه.. كانت كلها عن بعد!

كان عزاء أحمد عبدالله في الحامدية الشاذلية أشبه بحفل سياسي حزين.. ذهبنا نعزي أنفسنا في أنفسنا، ذهبنا نقول للسياسة في مصر، البقاء لله!

مات الفيلسوف

كنت لازل طالباً في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وكان من حظي أنى تلقيت تدريباً مبكراً في مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.. لم تكن نحن المتدربين أو غير المعينين نحظى بالتقدير الكافى.. وفى كثير من الأحوال لم تكن نحظى بأى تقدير.

وسط أجواء نفسية وفكرية غير مثالية، فاجانى أحدهم بقوله: صباح الخير يا أستاذ أحمد، لم تكن تحية الصباح معتادة في ذلك المكان البارد، ولم تكن صفة أستاذ لتتوجه إلى طالب متدرب بأى حال.

كان صاحب التحية هو الفيلسوف السياسى المصرى الدكتور محمد السيد سعيد، ومن تلك اللحظة الدافئة بايعته أباً وأخاً وأستاذاً.

مرت سنوات طويلة على تلك المباينة القلبية للدكتور محمد السيد سعيد.. لم يخذلنا فيها قط.. لم يفقد من الأبوة سطوراً واحداً، ولا من الأخوة موقفاً واحداً، ولا من الأستاذية رأياً واحداً.

عاش الفيلسوف السياسى محمد السيد سعيد سيّداً وسعيداً.. سعيداً بنا وسيّداً علينا.

كان أساس السعادة لديه ذلك الإيمان الكبير بإمكانية النهضة، والأمل الواسع في إنجاز مشروع حضارى.. كان محمد السيد سعيد مؤمناً إلى حد اليقين بأنه بالإمكان أبداع مما كان، وإن مصر إذ شهدت في حالات كثيرة نهاية السياسة لم تشهد في أى لحظة نهاية الإنسان.

وكان أساس السعادة ذلك الحب الفياض الذى يرهقنا حرجاً وخجلاً أن قلباً بهذا الاتساع يعيش بيننا.. لقد وجدت ذلك الحب في شقيقه المبدع الرائع سيد سعيد، وفى ابنه الودود الخلاق مروان، وفى زوجته الجليلة الصابرة نور الهدى زكى، وفى زيارات القادمين

إليه من بورسعيد، وفي عيون كل الذين وجدوا في مكتبه في الطابق الحادى عشر بالأهرام منزلاً وموتلاً.

وكان أساس السيادة لديه أنه تجاوز بالعلم كل منصب.. لم يقل غير ما يريد.. خرج من السجن دون أن يدخل رغد الحياة.. لم يكن أسيراً عند أحد.. ولا حتى أسيراً عند نفسه.. كان فقط أسير الأمل والوطن.

لقد اختار الفيلسوف محمد السيد سعيد أن يبدأ نضالاً أوسع باتجاه الأمل.. فكانت صحيفة البديل، التى توقفت قبل أن يتوقف، وانتهزمت قبل أن ينهزم وكان القدر قاسياً، حيث تأكلت أحلامه مع تأكل خلاياه.. لا أمل ولا وطن.. عاش تحالف عديمى الموهبة ومات الفيلسوف.

مصطفى مشرفة.. مصر سابقاً (1)

وسط القضايا الصغرى التي تشغل «مصر الآن».. أحدثكم اليوم عن «مصر سابقاً»، عن العالم الجليل د. مصطفى مشرفة.

قال لي الدكتور أحمد زويل، «كان مصطفى مشرفة عالماً عظيماً، وكان علي مستوى حركة العلم في العالم.. ومن المؤكد أن اسم مصطفى مشرفة يدعو للفخر والزهو».

لا تعرف الأجيال الجديدة ذلك النموذج العظيم في تاريخنا المعاصر، فقد طغت السياسة علي الثقافة، وطغت الصحافة علي السياسة.. وطغى الجميع علي مقام العلم ومقامات العلماء. احتل أشباه الناس وصغار البشر ما كان ينبغي أن يكون للذين يعلمون، والذين يعملون!

* ولد العالم الكبير د. مصطفى باشا مشرفة في دمياط عام 1898، وتوفي في القاهرة عام 1950، وما بين الشروق والغروب، قطع د. مشرفة مسيرة مذهلة. كان مشرفة أول الشهادة الابتدائية في القطر المصري، وثاني القطر في الثانوية العامة «البكالوريا». تخرج في مدرسة المعلمين العليا 1917، وحصل علي البكالوريوس في الرياضيات من جامعة لندن عام 1920، ثم حصل علي دكتوراه العلوم، ليصبح العالم الحادي عشر علي مستوى العالم، الذي حاز دكتوراه العلوم، ثم ليصبح عضواً في الجمعية الملكية البريطانية، وواصل أبحاثه تحت إشراف أستاذه السير «ريتشاردسون»، أكبر علماء الطبيعة في عصره.

يقول د. محمد الجوادي، في كتابه «مشرفة بين الذرة والذروة»، إن د. مشرفة تقدم بأوراقه إلي الجامعة المصرية عام 1925، ليصبح أستاذاً في كلية العلوم، ولكنه كان في السابعة والعشرين من عمره، فتم تعيينه أستاذاً مساعداً، وكان عميد الكلية «بينجام» أقل درجة علمية منه!.. عمل مشرفة بعد ذلك أستاذاً للرياضيات التطبيقية، ثم وكيلاً لكلية العلوم، ليصبح أول عميد مصري لكلية العلوم.

* حين تولي د. مشرفة عمادة كلية العلوم جعلها عالية، واشترط للترقية إلي أستاذ مساعد الحصول علي درجة دكتوراه العلوم.. أي أن أي أستاذ مساعد هو بالضرورة ذو مستوي علمي عالي، ثم استأنف مشرفة إرسال البعثات العلمية للخارج. ينقل د. الجوادي عن د. محمود حافظ أن مشرفة قال له، وهو في سبيله إلي البعثة، «اجتهد، فإنما نعدك لتكون عالم الحشرات الأول في مصر»، وقد كان!

* كان مشرفة يدعو كبار العلماء للمحاضرة في مصر، وحين كان البروفيسور «ساها» - وهو عالم هندي بارز حاصل علي جائزة نوبل - في طريقه لإنجلترا ماراً بمصر، ما أن علم مشرفة بالخبر حتي أخذ يبحث عنه حتي وجده في أحد الفنادق، فدعاه إلي إلقاء محاضرة في كلية العلوم.

وفي عام 1949 أقامت كلية العلوم معرضاً للطاقة الذرية، بعد أن حصل علي موافقة جمعية علماء الذرة الإنجليز علي إعارة المعرض.

* اختارت الحكومة الأمريكية مشرفة عضواً في اللجنة الدولية للأبحاث الذرية، ثم دعت جامعة برنستون لإلقاء سلسلة محاضرات عن الذرة، وكانت جامعة برنستون آنذاك تضم أعظم العلماء: أينشتاين وليدز ويوجين.. وهم الأعمدة الرئيسية الثلاثة في مشروع مانهاتن للذرة، الذي أقامه أيزنهاور عام 1939.

* في عام 1932 نشر مشرفة بحثه العظيم «هل يمكن اعتبار الإشعاع والمادة صورتين لحالة كونية واحدة؟». واثبت أنهما كذلك، وبذلك أصبحت قاعدة، «المادة والطاقة صورتان لشيء واحد، هي: «المادة والطاقة والإشعاع صور ثلاث لشيء واحد»، وبهذا البحث الذي لقي استقبالا علمياً كبيراً، أضاف مشرفة مفهوماً جديداً للعلم.

* نشر مشرفة بحثاً في مجلة «NATURE» العالمية المرموقة، وفي عام 1937 نشر بحثاً مهماً عن معادلة ماكسويل والسرعة المتغيرة للضوء. أما بحثه المثير فقد نشره عام 1948 عن «نقص المادة... وقبل وفاته بثلاثة أشهر نشر بحثاً مميزاً بعنوان «النقص في كتلة نواة الذرة».

* يقول الكاتب الأستاذ مصطفى أمين، في مقدمته لكتاب الدكتور الجوادي، «عرفت الدكتور مصطفى مشرفة سياسياً وشاعراً وفيلسوفاً وأديباً.. قبل أن أعرفه عالماً.. كنت أحس معه بأنني في حضرة دائرة معارف من عدة أجزاء، كل جزء متخصص في فن من الفنون، أو

علم من العلوم...، كان رأي مشرفة أن تكون الجامعة مستقلة تمام الاستقلال، لا ترضخ
لسلطان ولا لوزير، وكان يضيق بتدخل الوزارة في شؤون الجامعة، وكان يقول لي: «إن تدخل
الحكومة في الجامعة يحولها إلى مدرسة ثانوية!...»، وكان يرى أن العلم إذا فقد حريته
واستقلاله اضمحل ومات، ولهذا يجب أن يكون العلم في خدمة الشعب، لا في خدمة الحكومة..

**** ها قد فهمنا ما نحن فيه.. الجامعة المصرية 2007.. لا علم ولا حرية!**

مصطفى مشرفة.. مصر سابقاً (2)

قال أينشتين حين علم بخبر وفاة العالم المصري الكبير د. مصطفى مشرفة، «كلاً.. لا تقولوا إن مشرفة مات.. إنها خسارة جسيمة..» وقد نعت الإذاعة في أمريكا مشرفة علي أنه «واحد من الذين يعرفون أسرار الذرة..» ويقول د. محمد الجوادى في كتابه الرائع «مشرفة بين الذرة والذروة، إن شقيق مشرفة كان في أمريكا ولم يعلم بنبا وفاة أخيه إلا من الإذاعة قبل أن يصله الخبر من مصر.

توفي العالم الكبير في 16 يناير عام 1950، واتشحت جامعة القاهرة كلها للمرة الأولى بالسواد، صلي عليه شيخ الأزهر، وخطب في حفل تأبينه د. طه حسين.

كان مشرفة باشا صديقاً لطه حسين وأحمد لطفي السيد وتوفيق الحكيم، وكان صديقاً لمصطفى النحاس وأحمد ماهر ومكرم عبيد. وينقل الجوادى عن توفيق الحكيم رأياً يمثل خلاصة «نجاح مشرفة وفشل مصر، يقول الحكيم في رسالة له عام 1934، بعد أن التقى مشرفة، «كيف أمكن أن يوجد لدينا عالم مصري من هذا الطراز؟ يظهر أن مصر في ذلك العهد قد نهضت وهي خبلي برجال ما كان أن يظن أن في إمكانها إنجابهم في هذه الفترة..»

وما يقوله الأستاذ الحكيم بالغ الدقة، «كيف أمكن أن يوجد لدينا عالم مصري من هذا الطراز؟..»

* إن أول مقال نشره مصطفى مشرفة كان في الأهرام في 18/4/1925 بعنوان «البحث العلمي.. أهميته وطرق تشجيعه»، وكان ثاني مقال في 6/5/1925 بعنوان «الجامعة والبحث العلمي»، أرجو أن نلاحظ معا تاريخي النشر، ثم انظر إلي مقاله هذا، في يونيو 1942 نشر مشرفة مقالاً في مجلة الشؤون الاجتماعية «الحياة العلمية في مصر بعد ربع قرن.. تخيل في عام 1942 مشرفة يحدثنا وهو محبط عن حصاد العلم في مصر خلال خمسة وعشرين

عاما ليس هذا فقط... هناك ما هو أهم وأخطر.

انظر إلي مقال مصطفى مشرفة في مجلة المصور في 1948/1/23 ،ماذا أعدت مصر للحرب الذرية المقبلة... إن مشرفة يتحدث عن حرب ذرية، وعن استعداد مصر لحرب ذرية، في وقت لم تكن فيه أوروبا تعرف جيدا طبيعة الحرب الذرية ولا صناعة القنبلة الذرية.. ولا أود أن أذكركم بالصراع الجاري الآن علي أرض المفاعل النووي السلمي الفقير والمستورد... والتي أوشكت أن تكون قرية سياحية!

وأما مقاله في 1948/3/2 في صحيفة «الزمان» فقد كان عنوانه «مصر واستخدامات الطاقة الشمسية». يقول الكاتب الكبير مصطفى أمين في مقدمته لكتاب الجوادي: «كان الدكتور مشرفة أول من طالب بدراسة مشروع استنباط الطاقة من حرارة الشمس، وعرض الدكتور مشرفة اقتراحه هذا علي بعض ولاة الأمر، فابتسموا ساخرين، وبعد أن خرج من المقابلة نظروا إلي بعضهم البعض، ثم قالوا: الدكتور مصطفى مشرفة فقد عقله!.. إنه يريد أن نستعمل أشعة شمس مكان البترول!..»

وفي 1949/8/18 كتب مشرفة مقالا مذهلا في الأهرام بعنوان «الوقاية من القنابل الذرية».

* لقد كان لدينا رجل يعرف آخر العلم في عصره، ينشر في كبريات مجلات العلم في العالم، يحظى باحترام كبار علماء عصره، بمن فيهم أينشتاين، يتحدث قبل أن يعرف العالم عن طموحات مصر النووية العسكرية!

يا للفجوة الهائلة بينه وبيننا، بين علم مشرفة وجهل جميع الحكومات، بين رجل يسبق العلم والعالم وبين ساسة وصحفيين حافظوا علي مواقفنا خارج التاريخ!

* قبل أن يعرف الرئيس الأمريكي نفسه حقائق أو مخاطر القنبلة الذرية، يقول مصطفى مشرفة باشا، «التقيت بدولة النقراشي باشا عام 1939 - لاحظ التاريخ جيدا عام 1939- وكان معنا الدكتور فارس نمر باشا، ودار الحديث حول الأحداث الدولية التي سبقت قيام الحرب، فقلت إن العمل الذي قام به (هاهن وأشراسمان) بقسمة ذرة اليورانيوم- خلق الذرة- عن طريق تعريضها لنيوترونات بطيئة كان أهم حدث في أخبار العام. وقد حمل كلامي علي أنه مغالاة في تقدير دور العلم والعلماء!»

يقول الدكتور مشرفة في كتابه «مطالعات علمية» الذي صدر عام 1943 في الفصل

الخاص بتركيب الذرة، إن الطاقة الكامنة في ذرات جرام واحد من المادة العادية تكفي لتحريك قطار وزنه مئات الأطنان حول الكرة الأرضية بأسرها.

* ويقول الدكتور مشرفة في كتابه «الذرة والقنابل الذرية»، في 6 أغسطس 1945، ألقى الجيش الأمريكي قنبلة علي قاعدة الجيش الياباني في هيروشيما، وهي قنبلة ذرية تزيد قوتها علي قوة عشرين ألف طن من أشد أنواع الديناميت.. وقتل من كانوا خارج المنازل حرقا، وقتل من كانوا داخلها بسبب الضغط والحرارة التي لا يمكن أن توصف شدتها، وفي 9 أغسطس 1945 أقيت قنبلة ذرية ثانية علي الميناء الكبير نجازاكي، وقد محت هذه القنبلة من الوجود أكثر من ميلين مربعين من نجازاكي، ودمرت جميع الأهداف الحربية في المدينة..

* ويقول الدكتور يسري الجمل.. طابور الصباح جزء أساسي من العملية التعليمية.

** خسارة مصر.. ألف خسارة!!

مدرسة عاطف عبيد السياسية (1)

تنفرد صحيفة «أخبار اليوم» بنشر سلسلة من المقالات التافهة لرئيس وزراء مصر الأسبق د. عاطف عبيد، وقد وصل دولة الرئيس عاطف عبيد الآن إلي المقال السادس، في الجزء الثاني، ضمن رؤية كاملة من الكلام الفارغ.

لا أحد يعرف لماذا يكتب عاطف عبيد، وكلنا قد شهد الرجل وزيراً ورئيساً، لا يعرف الكثير عن علم الإدارة، ولا القليل عن علم الاقتصاد، ولا الأقل عن علم السياسة.. إنه تقريباً لا يجيد معرفة أي شيء.

ولكن الدكتور عاطف عبيد، الذي لم يعرفه أحد قارئاً ولا كاتباً، قد اختار لسلسلة مقالاته في «أخبار اليوم»، عنواناً رصيناً: «شهادة للتاريخ.. سنوات حكم الرئيس مبارك».

ويبدأ د. عبيد مقالاته عادة بعبارة «تبين الوثائق»، ويستخدم في المقال الواحد قرابة المراجع العشرة، حتي ليظن القارئ أنه إزاء عمل فكري وأكاديمي يوجب الخشوع.

ولا أظن أحداً من القراء أو الكتاب قد تمكنت منه فضيلة الصبر، فقرأ مقالاً واحداً أو حتي فقرة واحدة، وظني أن القارئ الوحيد هو مسؤول التصحيح في الصحيفة.

إن المرء يشعر بالحزن الشديد، وهو يجد مكانة رئيس الوزراء في مصر تتراجع إلي الحد الذي يصبح فيه رئيس الحكومة مجرد رجل، أقصي طاقاته العقلية والفكرية أن يرصد إنجازات السيد الرئيس.

إن الحزن ليزيد ويزيد، إذا ما كان واضحاً تماماً أن غرض مثل هذه المقالات هو محاولة التوسل الدائم والرجاء المستمر ألا يفتح أحد ملفات سابقة أو يحرك أحد دعاوي محتملة ضد دولة الرئيس.

* نشر هذا المقال بتاريخ 13 أكتوبر عام 2088 م.

لقد كان مجيء عاطف عبيد إلى رئاسة الحكومة بداية الإحباط الوطني الكبير. كما كان مجيئه بداية الكساد الأخلاقي في مصر.. إنها اللحظة الفارقة في توحش ظاهرة عدم الانتماء، وفي حالة الاكتئاب الجماعي من السلطة والسياسة في مصر، وفي حالة التسليم بانكسار المشروع الوطني لصالح الأجانب وعملاء الأجانب في البلاد.

روي لي الدكتور ممدوح البلتاجي، وقد كان وزيراً للسياحة في عهد عاطف عبيد، أن رجال أعمال قطريين تقدموا لشراء أرض شاسعة في موقع استراتيجي بسيناء، وقد أعطاهم عاطف عبيد الموافقة، فلما جاء الملف إلى وزير السياحة، سأل الأجهزة السيادية في مصر التي ردت عليه بأن هؤلاء القطريين غطاء لإسرائيل، وأن الأمن القومي المصري يتطلب رفض ذلك تماماً.

أبلغ البلتاجي عاطف عبيد بالأمر، ولكن عاطف عبيد أعاد إليه الطلب وعليه الموافقة من جديد!

لم يكن عاطف عبيد مجرد رئيس وزراء فاشل، بل كان بداية انكسار الحلم لدى ملايين المصريين، لقد أغلق عاطف عبيد باب الأمل الذي لم يفتح حتي اليوم.

مدرسة عاطف عبيد السياسية (2)

لم يكن عاطف عبيد ظاهرة محدودة في السياسة المصرية، بل كان أساس مدرسة حكمت مصر ولا تزال.. حيث أصبح تلاميذ عاطف عبيد هم القادة الجدد في البلاد.. وقد تصدر القائمة تلاميذ ثلاثة، أحمد نظيف ويوسف بطرس غالي ومحمود محيي الدين. تعلم التلاميذ الثلاثة خارج مصر، ويجيدون الحديث بغير العربية.. وينظرون من أعلي إلى النخبة وإلى العامة.. وهم يبدون، في أحيان كثيرة، أشبه برموز الحكم العثماني في مصر.

لا يعرف التلاميذ الكثير عن السياسة، لا الأحزاب ولا الحركات، ولا إدارة السلطة ولا خريطة الشعب.. لا تحفل تصريحاتهم بأي ثقافة أو معرفة خارج الأرقام والمعادلات والمعادلات.. ولم يحدث قط أن أشار أحدهم إلى كتاب أو حقبة تاريخية أو حقائق جغرافية.. أو تعرض لثقافات شعوب أو تجارب بلدان أو رؤي فلاسفة أو مصلحين!

وداخل علوم الاقتصاد، يردد الثلاثة المقولات الأولية للرأسمالية المتطرفة، وقد اختزلها التلاميذ في مقولة «البيع كمقولة واحدة في النظام الرأسمالي، لا يعرف رئيس الوزراء والوزيران في النظرية الرأسمالية سوي بيع كل شيء في أسرع وقت وبأي سعر.. إنها نظرية بدائية تليق بمحال بقال لا إدارة سلطة.. وتناسب أعمال السمسرة لا وظائف الدولة.

وفي الوقت الذي يعيد فيه الغرب النظر في الرأسمالية التي أنتجها، قال التلاميذ «إن الرأسمالية بخير، وهي تصحح نفسها وسوف تواصل». لقد سكت الكبار في العالم ليتحدث

* نشر هذا المقال بتاريخ 20 أكتوبر عام 2008 م.

الصغار في مصر.. تراجعت أمريكا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وتقدم التلاميذ الثلاثة!

عانت الدولة إلى دور واسع في الغرب وبدأت في شراء البنوك، وفي مصر قال رئيس الوزراء إن بيع بنك القاهرة سيتم إنجازه بعد أن تهدأ الأمور.. إنها مدرسة عاطف عبيد السياسية.. باعة بلا حدود!

تمثل مدرسة عاطف عبيد حالة الكساد النفسي في مصر.. هي مدرسة بانسة وكسولة.. كل ما تبثه الفضائيات وتنشره الصحف لا يمثل شيئاً لديها.. لن تتقدم حالة المستشفيات، لأن المدرسة تفكر في بيعها، ولا مرفق الإسعاف، لأنها تفكر في بيعه، ولا التعليم لأنها تنوي خصخصته، ولا قطاع الزراعة، لأنها تنوي تحريره.. إنها مدرسة اللافعل.. كل شيء مؤجل لأنه لا أمل إلا إذا تم بيع ذلك إلى القطاع الخاص والأجانب.

أصبحت مصر كلها دولة مؤجلة.. مرافق مؤجلة وسياسات مؤجلة وأحلام مؤجلة.. إن مدرسة عاطف عبيد السياسية.. باردة، كسولة، محدودة.. مدرسة النوم الحضاري.. التي أصابت الوطن بالتثاؤب!

في مدرسة عاطف عبيد السياسية، تحولت السلطة من إدارة الدولة إلى إدارة المبيعات!

الفصل السادس

يسيون والعالم

صلاة التراويح في باريس (1)

قالت لي الملكة فضيلة، زوجة ملك مصر السابق أحمد فؤاد الثاني: ما رأيك في حديث أحمد فؤاد إلي قناة العربية.. لقد قال إن نظام الرئيس عبدالناصر هو الذي قتل الملك فاروق؟ قلت لها، لقد قرأت للأستاذ يوسف القعيد وصحيفة روزاليوسف هجوماً شديداً علي الحوار، وفي تقديري أن وفاة الملك فاروق مريضاً أو قتيلاً ستظل أحد الملفات المفتوحة في التاريخ.. هناك من يؤكدون دوراً للمخابرات المصرية في عهد صلاح نصر في اغتيال الملك، وهناك من ينفون ذلك، ويصفون تلك الروايات بأنها محض خيال.

كان لدي الملكة فضيلة ما تقوله.. وكان نهار باريس طويلاً، ومعاناة الصوم في باريس تزيد أضعافاً علي القاهرة.. قلت للملكة التي تزوجت الملك بعد رحيل الملكة، إن حديث الهاتف لا يصلح لمثل هذه الموضوعات، دعينا نلتقي مساء.. فحديث السياسة قد يبطل الصيام.

من تقاليدي في الصوم أن أبدا مسيرة الجوع من الصباح، فأنا أستيقظ من النوم جائعاً، وأظل كذلك ساعة كاملة، لينتهي الجوع تماماً طيلة اليوم ثم يعود قبل المغرب بساعة. وقد اعتدت طويلاً علي أن الصوم ساعتان.. ساعة عند اليقظة وساعة عند الغروب.

امضيت اليوم الأول من رمضان في بسيون وكان الإفطار بعد السادسة بقليل، وما إن وصلت باريس حتي أدركت أن الإفطار هنا بعد الثامنة بكثير.

وبعد أن كنت أبدا رحلة الجوع من الخامسة إلي السادسة امتدت الرحلة إلي أكثر من ثلاث ساعات من الخامسة إلي ما بعد الثامنة.

لم يكن تقديري صحيحاً تماماً.. ذلك أن الجمال والنقاء ونسمات البرد ومقاطع المطر

قد جعلت من اليوم كله مسيرة جوع متصلة.

ومن تقاليدي أيضا ألا أتناول الإفطار إلا بعد أن أسمع بنفسي أذان المغرب، وقد كنت في الطفولة شاهداً ومبلغاً علي تلك اللحظات الرائعة.. كنا نحن الأطفال نجمع أنفسنا ونذهب إلى المسجد قبل عصر الميكروفون، فنمكث أمامه حتي نسمع صوت المؤذن لنهتف هتاف الفاتحين الغزاة.

لم أسمع شيئاً في باريس، وكان طريقي لمعرفة موعد الأذان، إمساكية صغيرة أصدرها مسجد باريس، لكن، مهدي قنفود، وهو مغربي يقيم في باريس، اتفق معي علي أن يعطيني، ميسد كول - مكانة مفقودة، عند أذان المغرب، وميسد كول أخري عند أذان الفجر.

صلاة التراويح في باريس (2)

ذهبت للصلاة في مسجد باريس في صحبة صديق متطرف، إنه يتحدث عن أغلب الناس باعتبارهم أعداء الله، وبالنسبة له فهناك أعداء الله من المسلمين وأعداؤه من عموم الأديان.. وأعداء الله من رجال الدنيا، وأعداؤه من رجال الدين.

ما إن دخلنا بهو مسجد باريس حتي قلت له: إنني شديد الإعجاب بإدارة هذا الصرح الإسلامي، ويبدو أن الشيخ، دليل بوبكر، إمام المسجد، رجل ماهر وأمين، قال لي صديقي: هذا الدليل، بوبكر، من أعداء الله!

لم يكن هناك وقت لكي يشرح لي لماذا جعل إمام مسجد باريس واحداً من أعداء الله، لكنه راح يتمتم، إنه عميل للأمن ومن رجال ساركوزي.

كان الإمام قد بدأ الصلاة.. قلت لصديقي، نلتقي عند باب المسجد بعد التراويح.. قال مباغتاً، سيكون هذا شاقاً علينا.. أنا أقترح أن نأخذ فنجاناً من القهوة وبعض الحلوي بين العشاء والتراويح.

وفي منتصف التراويح يمكن أن نأخذ، ماروكيان تي - شاي مغربي، في كافيه المسجد!

يحتوي مسجد باريس علي حديقة رائعة، تتوسطها نافورة عاقلة، فهي تنثر مياهها باحترام واعتدال، ويمتلئ المسجد بأشخاص لا يعرفون العربية.. وغاية القول عندهم: السلام عليكم.

كان ظني أن صلاة التراويح في مسجد باريس ستكون الأيسر على الإطلاق، بل كان

ظني قبل هذا الظن أن لا صلاة تراويح في مسجد باريس، ثم قلت ربما كانت صلاة يسيرة..
ثمانى ركعات بآيات قصيرة.. مثلما كان الحال في بلدتي قبل عصر الكهرباء.

لم تكن ظنوني صحيحة، فصلاة التراويح في مسجد باريس يتم ختام القرآن فيها، وفي
كل يوم يقرأ الإمام جزءاً كاملاً في الصلاة.. وهو يقرأ بهدوء وروية يليقان بمسلمين
أوروبيين يتفكرون ويتدبرون.. أكثر من ساعتين كاملتين مدة صلاة التراويح في مسجد
باريس.

خرجت من ساحة المسجد إلى كافيه المسجد، ثم إلى مطعم ثري حيث كنت مدعواً
على السحور.

قدم إلينا عامل المطعم قائمة الطعام، وكان من بينها صورة لعجل صغير.. ومع
الصورة سطور مضيئة من السيرة الذاتية للعجل قبل ذبحه!

تاملت السيرة الذاتية للعجل المهم، وتذكرت السير الذاتية لكثير ممن أعرف..!

صلاة التراويح في باريس (3)

كان ذلك السحور مدهشاً، قضيت وقتاً طويلاً في معرفة السيرة الذاتية للعجل الذي جاء منه طبق اللحوم.

إنه لحم خاص تماماً، يصل سعر الطبق الواحد منه إلى أكثر من ثلاثة آلاف جنيه، أما سبب ارتفاع السعر إلى هذا الحد فيعود إلى أصول التربية التي نشأ عليها العجل.

يبدأ العجل حياته فور الولادة في مزرعة صغيرة، إنها أشبه بحجرة فندقية، وليس مسموحاً للعجل بالحركة خارجها، فهو عجل لا يسرح ولا يمرح.

والسبب في قرار تحديد الإقامة لذلك العجل هو منعه من بذل الجهد أو تبديد الطاقة. إنه أيضاً عجل لا يشرب المياه، ذلك أن درجة نقاء المياه ليست آمنة تماماً، وهو يحتسي مدي حياته ماء الشعير، يتلقى ذلك العجل جلسات دائمة للمساج، والهدف من المساج منع تكوين أي دهون أو شحوم. وهو عجل بارد لا ينفعل.. ويكتفي أثناء الأزمات بهز رأسه قليلاً ليأتيه أحد المساعدين!

وتقدم بعض المطاعم صوراً من حياة العجل السابقة، من الولادة إلى المزرعة الفندقية إلى عمليات المساج إلى قائمة الطعام والشراب ثم إلى رحلته الأخيرة إلى حيث الذبح، لا يشبه لحم هذا العجل أيًا من زملائه حول العالم، وتجري فيه السكين كأنها في قطعة من الشيكولاتة!

ويقدم الطبق، الذي يزيد سعره على تكاليف إعاشة عدد من الأسر شهرياً، دون سلاطة أو بطاطس أو أي إضافات!

لم يكن هذا السحور الفاخر يليق بمبادئ الشهر الفضيل، ولا الغرض الذي لأجله فرض الصيام في رمضان، ومثل سلوك صغار الخطئين، أردت بعضاً من التقشف يبعث بعضاً من الارتياح.. قلت لصديقي: لا تنس أن نذهب غداً مبكراً لصلاة التراويح في مسجد باريس. قال لي، ساكون غداً منشغلاً بترتيبات الحجز لرحلة «نقاء الجسد»، قلت له: عشت حياتي كلها أسمع عن «نقاء الروح»، فماذا عن رحلة «نقاء الجسد» هذه؟

قال، هناك مصحة في فيينا، سوف أقضي فيها شهرين ابتداء من العيد، في هذه المصحة يجري غسيل كامل للدم من كل اللوثات، المياه معادلة بشكل مثالي، والفواكه بلا أي شوائب كيميائية.. الطعام كله «بيو فود».. ليس مسموحاً بتعاطي أي دواء، حيث يجري ضبط كل شيء بالأكل والماء، بعد أيام تتحول الفضلات من اللون الأصفر إلى اللون الأبيض، ويعود أداء المعدة إلى سن الخامسة عشرة!

ويجري هذا كله بأسعار رائعة.. فقط سبعون ألف يورو في فترة ما بين العيدين! كان هذا الحديث محبطاً.. قلت لصديقي، فترة شهرين مدة طويلة، وقتي لا يسمح إلا بنقاء الروح!

مسجد ليوناردو دي كابرियो (1)

اتجهت نيتي صوب العاصمة السويدية استكهولم للقاء العالم الكبير د. أحمد زويل القادم من كاليفورنيا. كان مقصد د. زويل إلى السويد لأسباب تتعلق بإنجازاته العلمية الجديدة، وكان مقصدي أبعد ما يكون عن العلم وأقرب ما يكون إلى الاسترخاء البدائي لسائح بليد.. بلا جدول أعمال.

اتصلت بالدكتور زويل للتأكد من مسار الرحلة، فأخبرني أنه ينوي تأجيل الزيارة بسبب انشغالات طارئة. إنها المرة الثانية التي تفشل فيها استعداداتي لزيارة السويد، كانت الأولى في ديسمبر عام 1999، حين تفضل الدكتور زويل بدعوتي لحضور حفل تسليم جائزة نوبل، حيث اكتفت الأهرام بذهاب الكاتب الأستاذ عبد الوهاب مطاوع.. ولما قررت السفر منفرداً فهمت من قيادات الأهرام وقتها أنه من «الأفضل لي، ألا أذهب».

الحاصل إذن أنه لا زيارة للسويد في رمضان، ظلت أفكر وأفكر.. عدت إلى تأشيراتي القديمة والبوماتي القديمة، وقلت لنفسني مواسياً.. فلتكن رحلة في رحلاتي القديمة.. استحضار ذكريات جميلة إلى أن تات ذكريات جديدة. وجدت بين الصور ما يتوافق وصحيح الإيمان في الشهر الفضيل. حيث أبدو في عدد من اللقطات إماماً تقياً.. ممثلنا بالسكينة والخشوع. كان ذلك في مسجد ليوناردو دي كابرियो في خريف عام 2004.

كنت محظوظاً في ذلك الخريف، حيث تلقيت دعوة من شركة طيران كبرى لزيارة مملكة تايلاند. وكانت الشركة قد ابتكرت درجة جديدة فوق الدرجة الأولى أطلقت عليها «درجة الـ VVIP، أي درجة الشخصيات المهمة جداً».

وكانت هذه أول تفرقة بين الـ VIP، والـ VVIP... أي بين الشخصيات المهمة جداً، والشخصيات المهمة جداً جداً..

لم أظهر سعادتي إزاء وضعي في تلك الفئة، ذلك أن السعادة ستكون كاشفة لوضع لا يليق، ولربما اعتقد حيراني الذين دفعوا مبالغ خيالية ليصلوا إلي مقاعدهم أنني ربما أكون «شخصاً مهماً جداً، فحسب.. وأن «جداً، الثانية غير مناسبة لحالة النشوي «البلدي التي أنا عليها. وصلت إلي مطار أبوظبي لأبدا الرحلة، ونسيت ما أنا عليه من مقام رفيع، ودخلت صالات المطار من أبوابها، وما إن أظهرت الدعوة وبطاقة السفر، حتي جاءت ثلة من أعظم الرجال تصطحبهم ثلة من الغيد الحسان.. وقال كبيرهم، ما لهذا دعوناك. ما دعوناك لكي تحمل حقائبك أو تقف بها عند الميزان أو تمكث مع العامة في قاعات الانتظار، وما دعوناك أيضاً لتكون مثل ركاب الدرجة الأولى تحتسي قهوتك وهم يدبرون أمرك. بل دعوناك.. لكي تأتي فحسب.

اصطحبني القوم إلي جوار المطار.. إلي استراحة رئاسية فاخرة، وهناك استقبلتني فتاة تايلاندية بوردة وفنجان قهوة، ثم قادتني إلي أخرى قدمت لي قطعة من الشيكولاتة مع نصف كوب من الشاي، ثم إلي ثالثة قادتني إلي مطعم مفتوح «أوبن بوفيه، تفنن طهاته ومشرفوه في إبهار شخصيات يعلمون مقدماً أنها «مهمة جداً جداً..

ظللت أنتقل من طبق إلي آخر.. من شوربة سمك القرش الذي تم اصطياده عند سواحل الصين، إلي طبق اللحم البرازيلي الخاص، وتأتي خصوصية اللحم من خصوصية صاحبه، حيث تجري تربية ذلك العجل علي نحو خاص في البرازيل.

أعجبتني السيرة الذاتية للسمكة صاحبة «الشورية، وللعجل صاحب «البيكاتا.. وكان إعجابي محدوداً خالياً من الدهشة، وظهر من ثباتي.. مدي اعتيادي لهذه النوعية من الطعام. جاء موعد الطائرة.. وأحاطني رهط من الناس إليها.. وما إن وصلت مدخل الطائرة حتي كانت المضيضة تقدم لي «عصيراً طازجاً..

يستغرق الطريق من باب الطائرة إلي مقعدي (7) ثوان، ولم يكن ممكناً في رأي المضيضة أن أمضي كل هذا الطريق وأقضي كل هذه الثواني دون ما يكفي من العصائر!

كانت درجة الـ VVIP مقسمة إلى ثلاثة مستويات، ووجدت نفسي في المستوى الأول منها، وكانت المفاجأة.. أنني وحدي في ذلك المستوى، وأصبحت كأني مالك الطائرة، ولم يعد أمام المضيضة البريطانية وزميلتها الجنوب أفريقية إلا خدمتي وحدي!

لقد تواجدت بريطانيا في مصر سبعين عاماً، واستغرقت رحلتي من أبوظبي إلى بانكوك قرابة السبع ساعات.. وقد قررت أن أعوض السبعين عاماً في الساعات السبع.. وبدأت التعامل مع المضيضة البريطانية تعامل التاج البريطاني مع مستعمرات ما وراء البحار.

مسجد ليوناردو دي كابريو (2)

وصلت إلى مطار بانكوك في مملكة تايلاند بعد ساعات من الفخامة المؤلمة. تركت مقعدي في المستوى الأول من درجة الـ VVIP، مرغماً ومتحسراً، وفي معظم رحلاتي يكون الوصول مصدراً للراحة غير أن جمال الطائرة ووقار الرحلة.. قد دفعني لكراهية الوصول.

لا يحتاج مطار بانكوك إلى جهد كبير لكي تعرف طريقك إلى المدينة، فالف دليل ودليل سيتزاحمون عليك في أدب وابتسامة كي يذهبوا بك إلى حيث تريد أو يريدون.

في اليوم الأول.. خرجت ليلاً لاستطلع المدينة، فوجدت حياً عربياً كاملاً، ووجدت محلاً مكتوباً عليه بالعربية، «موسي البانكوكي».. واندهرشت لهذا الرجل الذي نسب نفسه إلى المدينة كما نفعل في بلادنا، جلست قبالة مطعم يماني يجيد إعداد «فتة الحمام»، فإذا بي أجد طفلاً يسحب وراءه فيلاً ويمضي في طريقه. لم أصدق ما أرى، كيف لهذا الطفل الصغير أن يسحب وراءه هذا الفيل العملاق ويتنزهان معاً في قلب العاصمة؟

تركت «موسي البانكوكي»، و«فتة الحمام»، وأبرهة الصغير، الذي يدير حركة الفيل بأطراف أصابعه.. واتجهت صوب مكتب للطيران تديره فتاة مسلمة، قلت لها، إنني أريد الذهاب إلى جزيرة بوكيت علي خليج البنغال.. وأريد أن يكون ذلك قريباً. بدأت الفتاة بالمديح في مصر والأزهر وفي أنا أيضاً باعتباري من مصر بلد الأزهر.

وقالت لي، ستأخذ الطائرة لمدة ساعة من بانكوك إلى مطار جزيرة بوكيت، ومن مطار الجزيرة ستجد أناساً يأخذونك إلى فندق سويسري يطل علي مياه الخليج، ومن الفندق سيأخذونك عبر «اللانش» إلى رحلة بحرية تصل بعد ساعات منها إلى جزيرة «بي بي آيلاند»، ومن جزيرة «بي بي» ستزور عدداً من جزر خليج البنغال المتناثرة هناك، ستعيش مثلما كان يعيش ليوناردو دي كابريو.

قلت لها، إنني أعرف مصير ليوناردو دي كابريو في تايوانيك.. فهل كان مصيره في مياه البنغال مماثلاً؟.. قالت الفتاة، لا.. بل كانت نهاية سعيدة، لقد صور هناك الفيلم الشهير الشاطئ، **The Beach**، وهو الفيلم الذي أظهر جمال الطبيعة هناك علي نحو بهر العالم كله. ومن وقتها وليوناردو يزورها بانتظام.

كان تنظيم القاعدة قد أعلن تأسيس، تنظيم القاعدة في آسيا... وكانت تايلاند أقل انزعاجاً بذلك من انزعاج دول مثل إندونيسيا وأستراليا، وكانت المخابرات الأمريكية تقول إن قائد القاعدة في آسيا هارب في تايلاند، ولكن ذلك لم يكن له أثر علي طبيعة الحياة،

وحيثما جاءتني مكالمات عبر المحمول وأنا في مطار بانكوك من صديقي ضياء رشوان، أخبرته بمعاناتي في الرحلة، ولم يقتنع ضياء بفكرة المعاناة هذه، وقرر أن أعاني بالفعل وقال لي، إن القاعدة موجودة في أماكن زيارتك وإن احتمالات تنفيذها عملاً قويا واردة تماماً والأفضل لك أن تعود. قلت في نفسي، إن ضياء يريد إفساد رحلتي أكثر مما يريد تقييم الوضع، وعلي أي حال فإن قوات الأمن هنا تبدو يقظة. ولم أنه مكالمتي حتي جاءني عدد من الجنود يسألونني في صوت واحد، إلي أين أنت ذاهب؟.. قلت لهم، إلي جزيرة بوكيت.

فنظروا إلي بعضهم البعض مندهشين.. وقالوا لي، كيف وصلت إلي هنا؟.. هذه الطائرة ذاهبة إلي كمبوديا! علي قدر سعادتي باختراق نظام الأمن التايلاندي وركوبي في طائرة خطأ ومروري علي كل البوابات دون انتباه مني أو منهم، علي قدر خوفي مما قاله ضياء رشوان حول نشاط القاعدة في آسيا.

جلست إلي جوار فتاة تايلاندية وصديقتها الأمريكية، لم أهتم كثيراً بالصديق الأمريكي الذي بدا متعجباً، وبدأت الحديث مع الفتاة التايلاندية متحدثاً عن بلادها حكومة وشعباً!

قطع الأمريكي، وصلة، المديح المتبادلة بين مملكة تايلاند والشقيقة الكبرى مصر، وسألني، هل أنت من مصر فعلاً؟ قلت له، نعم. قال لي، وماذا تفعل هنا؟ هل تعيش في تايلاند؟ قلت له، لا.. أنا أعيش في مصر وأنا هنا لقضاء بعض الوقت. وقبل أن يكمل الأمريكي استجوابه لي قلت له، ماذا تفعل أنت هنا؟ هل تعيش في تايلاند؟..

قال لي إجابة لاتزال تثير استفزازي إلي اليوم. قال الأمريكي: إنني شخص ثري للغاية، وأنا الآن في الخمسين من عمري، ولو عشت مائة عام أخري فلدي ما يكفي من المال لذلك. لم

تعد بي حاجة إلي العمل، لقد انتهت فكرة العمل عندي منذ سنوات. لقد أعطيت زوجتي وأولادي ما يكفي من المال، كل شخص عدة ملايين من الدولارات، وبقيت لي ملايين أخرى، ومنذ قسّمت الثروة بيننا وهم قرروا العمل علي زيادة المال، وقررت أنا العمل علي إنهاء المال.

قلت له: وماذا تفعل لكي تنهي هذه الثروة؟ قال، أنا أحب القراءة والسفر، وكل ما أحمله معي هو جواز السفر وكرت مصرفي لسحب النقود. وأنا أتنقل من بلد إلي آخر طبقاً لمزاجي الخاص. أنا لا أحمل حقيبة سفر، أشتري ملابس النوم وماكينه الحلاقة وفرشة الأسنان وكل ما يلزم من الفندق الذي أنزل فيه. ثم أترك الأشياء مكانها حين أغادره، حيث لا أحمل معي حقيبة من أي حجم، وأشتري ملابس جديدة في الفندق الجديد.

وعندما تكون لدي حفلة رسمية أشتري لها بدلة رسمية، وعندما أقوم بتغيير ملابسني فلا أعود إلي البدلة نفسها مرة أخرى.

إنني أيضاً لا أحمل كتاباً ومجلة، إنني أقرأ وعندما أتعب أترك الكتاب فلا أحمله معي ولا أعود إليه. إنني بلا جدول أعمال، مثلاً أنا هذا الأسبوع في جزر خليج البنغال، وبعدها إلي ميناء صيد خاص في نيوزيلاندا مع أصدقاء تعرفت عليهم أمس، وبعدها ربما أبقي في آسيا أو أذهب إلي سواحل شيلي حيث أحب اصطيد نوع من السمك لا يتواجد في سواحل نيوزيلاندا، وكل ما أتمناه إلا أتاخر كثيراً في شيلي، حتي لا يفوتني صراع الثيران في إسبانيا، قبل أن أعود إلي اليابان لزيارة معبد قرأت عنه هذا الصباح!

سألني الأمريكي بعدما استعرض حياته الأسطورية: وماذا تفعل أنت في حياتك؟ قلت له: مثلك تماماً ياسيدي.. وأنا ذاهب الآن لزيارة جزيرة بي بي بعدما شاهدتها قبل أيام في فيلم «الشاطئ». قال لي: وهل يوجد مصريون كثيرون مثلنا.. ليس لديهم عمل؟ قلت له: نعم، ثلث السكان تقريباً بلا عمل!..

مسجد ليوناردو دي كابريو (3)

وصلت إلى جزيرة بوكيت، قادماً من بانكوك، ودعت زميل الطائرة، الثري الأمريكي الذي لا يحمل في رحلاته سوى جواز سفر وبطاقة مصرفية لسحب النقود، وحملت حقيبتى إلى فندق سويسري يقع على شاطئ الجزيرة وتشرف غرفتي على مياه الخليج، ذهبت لتناول العشاء، وأنا واحد ممن يكرهون الطعام التايلاندي، ذلك أنه طعام مبلل غارق في المياه.. لا تبدو ملامحه الأساسية وسط فوضى الشوربة، التي تماثل إعصار «تسونامي»!

في الصباح خرجنا في رحلة بحرية، كنا قرابة العشرين شخصاً من آسيا وأوروبا وأمريكا، وكان من بينهم شاب ماليزي وزوجته، وقد علم أنني مصري من «بلد الأزهر»، ووجد أنني أرهقت من حرارة أجواء الخليج، فما إن نزلنا إحدى الجزر البركانية، حتي جاءني ببطيخة كبيرة، وأهداها لي، وقال، إنها «بطيخة مياه.. سوف نفتحها من أعلي بمربع صغير، وستجدها ممتلئة بمياه رائعة، وقد حدث، ولم أجد بطيخاً ولا لباً، وجدت مياهاً رقراقة ساحرة، وبعد قليل كنا جميعاً قد انكفأنا علي «بطيخ المياه».. رؤوسنا وأنوفنا داخل البطيخة وتبدو وجوهنا من بعيد أقرب إلي «الرجل العنكبوت»!

ثم مررنا علي نادٍ للرماية في جزيرة أخرى، وأصر القوم علي مباراة دولية، كان زملاء الرحلة هذه من إيطاليا وألمانيا وفرنسا وماليزيا وكوريا واليابان وتايلاند.. ومصر، وكنت طيلة الرحلة اتحدث بفخر عن بلادي، وكانوا مندهشين أن مصر فيها أشياء غير الأهرامات. وقد استخدمت طريقة جيدة في إبهار الخصوم عندما سألوني عن عملي، فقلت لهم أنا أعمل صحفياً في «الأهرام»، وقبل أن يسألوا..

كنت قد تحدثت عن الأستاذ هيكل الذي كان رئيساً للتحرير وعن نجيب محفوظ الذي يعمل كاتباً في «الأهرام»، وعن الدكتور أحمد زويل الذي كتب لـ «الأهرام» وأشرف لسنوات علي صفحات علمية في «مجلة الشباب» التي تصدرها «الأهرام»، وعن الدكتور بطرس غالي الذي عمل رئيساً لتحرير «مجلة السياسة الدولية» إحدى مجلات «الأهرام»، وهكذا وجد الزملاء الأجانب أنني أتحدث عن (2) نوبل وأمم متحدة وهيكل في دقيقة واحدة!

ومثلما قدمت لهم «الأهرام» صحيفة واثراً.. قدمت لهم بقية بلادنا بالقدر ذاته من الإبهار الهادئ.

وسط أحاديثي المستمرة عن عظمة مصر والمصريين، جاءت مباراة الرماية في غير موعدها تماماً، لم يكن ممكناً أن تنسحب مصر وسط هذه الدول بعد كل ما قلت، وافقت علي دخول المباراة، وأخذ كل منا سلاحه، وقال أحدهم سنضرب عشرين مرة علي الهدف الدائري في المقابل.. ثم ننهي المباراة ونعلن النتيجة.

كانت أول حيلة لي هي أن أكون الأوسط في الرماة، حتي تتوه معالم أدائي بينهم، وأنا أضع في الترتيب الياباني وراء الكوري والألماني وراء الفرنسي.. استثماراً للحساسيات التاريخية بين الدولتين، ووضعت نفسي قبل الماليزي، حتي إذا وجد الناس فشلي الذريع فلا ينسبون ذلك إلي الإسلام، فثمة مسلم ماليزي سيحسن صورة الإسلام من بعدي.

بدأت المباراة ومضت المعارك وتأكدت سوء نواياي وسوء أدائي، وفشلت فشلاً ذريعاً لا مثيل له، فقد حصلت علي صفر من (15)، ولا تزال المباراة مستمرة، هنا بدأت مؤامرتي الأكبر، فقد كنت أطلق القذائف كلها في مناطق خاطئة لكنها متقاربة، فظللت أطلق في الاتجاه الخاطئ نفسه، حتي حصلت علي صفر من عشرين، وما إن انتهت المباراة حتي هتفت، تحيا مصر، سألني الألماني.. لماذا تحيا مصر؟ أنت خاسر تماماً.

قلت له، لا.. لقد أحرزت جميع النقاط في هذه المنطقة، قال لي، ليست هذه هي المنطقة المستهدفة، نحن نستهدف المنطقة التي تقع بها الدائرة وتمسكت برأيي.. بل هذه المنطقة.. لا هذه المنطقة. يا إلهي.. لقد نجحت الخطة، أصبح لدينا رأي ورأي آخر، إذن أنا لم أهزم تماماً، بل تمت هزيمتي طبقاً للرأي الأول، ولم تقع هزيمتي طبقاً للرأي الثاني.. ولأن المنافس الفرنسي كان ضعيفاً.. والمنافس الكوري جاء ترتيبه بعيداً وراء الياباني.. فقد أيداني في الخديعة، وقالوا: الحل أن نعيد المباراة.

لقد بذلت جهداً خارقاً حتي لا تعاد المباراة، وان نكتفي بوجود رأي آخر ونتيجة غير معتمدة، ذلك ان الإعادة من شأنها أن تضع النقاط علي الحروف وأن تحدد تماماً قواعد المباراة ومعايير النجاح والفشل.. وهو ما يعني حصولي علي صفر جديد!

ها قد وصلنا إلي جزيرة «بي بي».. وقبالة سواحل الجزيرة وقف «اللانش».. وظهر عدد لانهاثي من القروء علي الشاطئ، وهو مشهد طبيعي خلاب ربما يكون الأجمل في العالم. وأعطانا قائد «اللانش» عدداً من أصابع الوز المقطعة، وكنت كلما أعطاني قطع الوز قمت بتقشيرها وأكلها، كنت جائعاً وكان الوز شهياً، ويعود الرجل ويعطيني موزاً آخر، فافعل الشيء نفسه.. ولما وجد الرجل مني حماقة دائمة.. قال لي: يا سيدي.. هذا ليس لك.. إنه طعام القروء!

في اليوم التالي.. حلت صلاة الجمعة، قلت لرجل مسلم يعمل في مطعم عند شاطئ الجزيرة، هل توجد صلاة جمعة هنا.. قال لي نعم.. قريباً من هنا حيث يقع مسجد ليوناردو دي كاهريو!

بسيون - دبي.. أعلى سرير في العالم

كان أول ما لفت نظري في فندق أطلانتس الفاخر في دبي قائمة الأسعار التي تأملتها في ذهول. أقل سعر للغرفة ألف دولار في الليلة الواحدة، كان الأمر سهلاً بالنسبة لي.. فانا مدعو من نادى دبي للصحافة.. ولن أكون من زبائن هذا الفندق على أى حال. وبعد ثوان قال لي عامل الاستقبال، وهو مصرى رائع يمتلئ بالبهجة والدفء: «استاذ أحمد.. سوف تقيم في جناح يطل على مياه الخليج في الطابق الثانى عشر. حفظت اسم الجناح وبحثت في قائمة الأسعار فوجدته بثلاثة آلاف دولار في الليلة، لم يكن لدى متسع من الحسرة..

فقد قررت طواعية قبل قليل ألا ادخل هنا إلا مدعوا. لكن وجهاً مصرى رائعاً آخر.. كان يصافحنى بمزيج من البروتوكول الصارم وخفة الظل الطاغية.. قال لي: أنا يحيى ادريس.. مدير عام فندق أطلانتس.. لم أرحب ولم أبتسم وقلت له على الفور: ما هذه الأسعار؟..

إنها خيالية.. ولا اعتقد أننا سنكون أصدقاء.. إذا بقيتم كذلك أو بقيت أنا هكنا. قال لي: ألم يعجبك الجناح الذى خصصناه لك؟..

لدينا جناح رائع.. هو أعلى جناح فندقى في العالم.. وثمانه لا يزيد على خمسة وأربعين ألف دولار في الليلة الواحدة.. إذا أردت يمكنك أن تحجز عدة أيام وثق تماماً بأنك ستستمتع!

قلت في نفسى: أحجز أياماً.. إن ثمن الليلة الواحدة يقارب ربع المليون جنيه وثمان أربع ليال إذن سيكون قرابة المليون جنيه، ولو امتدت إقامتى أسبوعاً سيكون ثمن النوم وحده

مليوناً وثمانمائة ألف جنيه.. وإذا أضيف لذلك بعض الشاي والعصير ورحلة صيد وجانب من السباحة وقليل من الساونا.. وبضع دقائق من مساج أصابع القدمين.. ستكون التكلفة (2) مليون جنيه!

هيب أنك كنت محظوظاً بزوجة رومانية رقيقة.. أو ابن شقاء بكاء.. أو أم لا تفضل الحركة الكثيرة وتانس للهدوء ولا تقبل على شحطة الطائرات والمطارات.. أو حمأة مصرية طبيعية لديها جدول أعمال لا ينتهي من إدارة الصراع.. هيب أن أحدهم أو جميعهم كانوا معك.. هل يمكن أن تكون عدواً للرومانية، أو أباً غير عابئ بكاء فلذة كبده، أو ابناً عاقاً لوالدته، أو زوج بنت لا يرغب في سماع المصدر البيولوجي لسعادته؟

الإجابة، لا يمكن.. إذن عليك أن تمتد إقامتك من أجل سعادتك.. سيكون شهر مدة مناسبة إذا لم ترتكب أخطاء تكلفك المزيد.. إن تكلفة شهر من النوم في هذا الجناح ستصل إلى ثمانية ملايين جنيه!

لقد فكرت كثيراً.. حتى لو كنت أمتلك المال.. هل يمكن أن أفعل ذلك؟ هل يمكن أن أنفق الراتب الشهري لألف طبيب لكى أنام ليلة واحدة في فندق فاخر؟..

هل يمكن أن أنفق مصاريف دراسة خمسين ألف تلميذ ممن يتسربون من المدارس الابتدائية لكى أنام أسبوعاً في جناح؟ هل يمكن أن أنفق ما يعادل بناء ثلاثة مستشفيات وثلاث مدارس وفائض (2) مليون جنيه للإنفاق على غير القادرين.. من أجل قضاء شهر غسل في فندق فخيم؟

الحمد لله أننا في بسيون نملك الكثير من الرشد والزهد.. بالاختيار والإجبار.. معاً.

بسيون- أوساكا ..

مائة ساعة في اليابان

أما أوساكا فهي ثانية كبرى المدن اليابانية وواحدة من عواصم الصناعات في العالم ،وفوق كونها إحدى الموانئ الكبرى في آسيا فهي تفوق في قوتها الاقتصادية وحدها بعض دول أوربا وكل دول أفريقيا !

وأما بسيون فلا تحتاج إلى تعريف ، فهي نموذج معبر عن جوانب من مصر المعاصرة ، بعض العبقریات الفردية وكثير من الإخفاق الجماعي .

ويقتضي الإنصاف القول بأن بسيون أفضل حالاً من عموم مصر فذلك الجزء الأخضر الصغير في بلادنا المحروسة يفوق في مجمله الصورة التي باتت عليها " أم الدنيا " ففي بسيون درجة أعلى من التسامح والتدين الفطري وما أكثر الذين يمتلكون فيها صفاء الروح وبساطة القول .

إنهم يدركون جيداً أن الناس ليسوا في صراع مع الله، وأنه تعالى سبق عفوهُ عقابه، وأن الدين العاملة، وأن الإيمان محله القلب.

وفي بسيون لا تزال بقايا طبيعة جميلة من نيل لم يردم وترعة تعادل نهر السين في الاتساع ، ومروج خضراء تسر الناظرين من حقول القمح والقطن إلى أشجار الياسمين ، وحيوانات عفوية تمضي بغير اكتراث ، لا بانفسهم ولا بالآخرين ، من بقر وماعز وجاموس، وحشد من الطيور .

وفي بسيون بقايا من فكرة، وبعض الأفاصيص المفيدة من "قعدات" ثقافية في كثير من القرى إلى محاورات في المساجد لم تصبح آفة التطرف، إلى مسامرات بين كبار السن لا تزال خصبة.. ومداولات بين الجيل الجديد لا تزال آمنة .

انطلقت من بسيون التى هى أسوأ من العالم وأفضل من مصر ومررت بالقاهرة والدوحة وصولاً إلى اليابان . جلست إلى جوار رجل يابانى بدأ لى صعباً وكريهاً ، فقد طلبت منه أن نبتل المقعد على الطائرة فرفض من غير دبلوماسية، حتى ظننت أنه سيقا تلنى. ولم يكن أمامى بد من التصرف لكسر الحاجز النفسى - على رأى الرئيس السادات - بيننا، فالطريق يستغرق أكثر من إحدى عشرة ساعة متصلة ، واليابان أمامكم والمحيط تحتكم ولا بد من الحوار.. وكان ما أردت.

اتضح لى أننى مخطئ ، فالرجل فى غاية اللطف ، ولكن فكرة تغيير المقعد بالنسبة له تعنى عدم الانضباط ، وبعد حوار طويل يعادل المسافة من بسيون إلى إيران قال لى الرجل ، هل أنت مسلم قلت له نعم. قال ، وأنا فى اليابان كنت أتمنى أن أعرف الكثير عن الإسلام ، وأفهم هذا الدين.. وقد ذهبت إلى السعودية لأدير شركة يابانية هناك وهكذا اقتربت من البلد الذى انطلق منه الإسلام، ولكننى أصدقك القول لم أفهم شيئاً وما زلت أرى الإسلام بعيداً، فأنا أسمع عن دين لا أراه فى سلوك الناس وأرى كل فرد يتحدث عن الدين غير ما سمعه من الآخر . فازدادت حيرتى وانصرفت عن الموضوع .

كان سهلاً علىّ أن أشرح لجارى ملابسات هذا الفهم الملتبس للدين الحنيف فى ساعة أخرى. وعدت أسأله بالمثل ، هل أنت بوذى ؟ قال لى ، لا ، أنا مسيحى. وقد اندهشت من تلك الصدفة ، فعدد المسيحيين فى اليابان أقل من ٢ ٪ . قلت له، هل أنت من أسرة مسيحية أم أنك اعتنقت المسيحية مؤخراً ؟ قال: أمى مسيحية وأما أبى فقد كان بوذياً وقد اعتنق المسيحية بعد عشر سنوات من وفاته . لقد أعدت عليه سؤالى عشر مرات، هل اعتنق والدك المسيحية بعد عشر سنوات من وفاته ؟ قال نعم ، فقد قررت أمى ذلك وأخذت الرماد المتبقى من جثة أبى - حيث يحرق البوذيون والهندوس موتاهم - ووضعت أمى فى زجاجة ، ونقلت الزجاجة إلى مقابر المسيحيين وبذلك أصبح أبى مسيحياً بعد الوفاة !

راح الرجل يشرح لى بعضاً من أسباب المعجزة فى اليابان .. عن الدقة والنظام ، عن العمال الذين لا يلتفتون أثناء العمل ، عن طريقة دخول المصانع بوضع أكياس فوق الحذاء كأنها أماكن مقدسة ، وعن الانضباط الذى لا يسمح بأى خطأ، وعن الخطأ الذى يعقبه

اعتذار أو انتحار !

في أوساكا هبطنا في مطار " نكاي"، وهو عبارة عن جزيرة صناعية بناها اليابانيون في الماء لضيق المساحة، والطريق من المطار إلى اليابس يمر عبر جسر صغير طويل، ومن اليابس إلى وسط المدينة عبر جسر علوي شديد الازدحام وسهل الحركة، وحوله وفوقه وتحتة طرق تتلوى باستمرار.. زحام بلا فوضى!

وفي " سويس أوتيل" وضعت حقائبي وأفكاري القادمة من بيسيون، فقد صدمني حجم التقدم في اليابان، وقررت عدم المقارنة، بل وعدم التفكير في كيفية نقل ذلك إلى مصر، وكيفية الاستفادة من هذا التطور العملاق، فتلك كلها تساؤلات "بلدي" لا معنى لها.

ولكن موعد الطعام أنساني ما قطعت على نفسي من وعد بعدم المقارنة، فالسمك الذي وجدته يؤكل نيئاً إلى جوار الأرز ليس غريباً على مسامعي، في بلدتنا أعرف من الطفولة أن هناك بعض العائلات التي تأكل السمك نيئاً إلى جوار الأرز.

والسبب في ذلك أن بيسيون هي الأولى في مصر في إنتاج الأرز، والأرز في بيسيون وجبة الجميع أغنياء وفقراء منذ سنين مديدة، وأما السمك فيأتي مجاناً لغير القادرين من النيل والترع وجداول المياه التي تغطي بيسيون بقراها الأربعين ومساحتها التي تعادل نصف مساحة مملكة البحرين، وشأن السمك النئ هذا اعتقاد بيسيوني راسخ بأنه يقوي الجسد وينقي الدم ويخلق الجسادة والجرادة!

في اليابان وجدت نظاماً وانضباطاً لا مثيل لهما، حتى المارة في الطرق وهم يتحركون اكواماً اكواماً أكثر بكثير من زحام الموسكي وميدان رمسيس، ولكنهم يتحركون كالقطارات لهم خط سير وميل وانكسار. يضحكون في صخب ويتحدثون في أدب ويتسامرون شلاً وجماعات، كأنك في مدينة افتراضية مثل التي يلعب بها الأطفال "البلاي ستيشن".. مدينة من ماكيت وanas يتحركون بالريموت والكل تحت السيطرة!

وفي اليابان لا مكان للأناية ولا موضع للتنمية و"النفسة"، فالياباني يبدو كالخائف من أن يكون وحيداً، فهو لا يمشي وحده، فالجموعة أهم من الشخص والمجتمع أقوى من أفرادة وهو ما يختلف عن الولايات المتحدة وأوروبا، حيث تتوازن القوى بين الفرد والمجتمع،

ويعمل الأشخاص منفردين أو مجتمعين على نحو من الكفاءة وهما على أي حال طريقان في النجاح لا وجود لهما في مصر، فلا نجاح للفرد أو الجموع، ولا كفاءة للمجتمع أو الدولة، والنميمة التي تنهش في الأفراد هي دوائر الصراع التي تفترس النخب.

قضيت في بلاد اليابان أكثر من مائة ساعة كأنها عمر بكامله.. تقدم مذهل تحتاج أوروبا إلى سنوات حتى تصل إليه! وقد فكرت فيما جرى هنا وهناك، فعمر الحداثة في اليابان من عمر جدي وعمر التجربة للعاصرة من عمر شقيقتي الكبرى، وأما والدتي فهي أكبر سناً من يابان ما بعد الحرب العالمية الثانية.

ولكن أعمارنا جميعاً في مصر تمضي جيلاً وراء جيل بلا خطوة إلى الأمام.

بسيون - واشنطن: لماذا يكرهوننا؟!

كنت أجوب شوارع العاصمة الأمريكية واشنطن برفقة الصديقين محمد المنشاوي وسيف الله قنديل، وكلاهما دفعتي في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.

يعمل محمد رئيساً لتحرير الطبعة العربية من تقرير واشنطن، وأما سيف فديبلوماسي كان قادماً من سنوات قضاها في المكسيك لينضم إلي طاقم السفارة المصرية في واشنطن.

لاحظت أن شوارع واشنطن ليست كما ينبغي، فالندوب والشقوق وعالم المطبات والحفر يشبه حالة الطرق والواصلات في بسيون. أغلب واشنطن من السكان السود الذين يعانون الفقر وضعف الأمن وأغلب سكان بسيون يعانون كثيراً.. ولكن في أمان تام.

قال صديقي، إن واشنطن ليس لها ممثلون في الكونجرس، أي ليس لها نواب، ولذا فإن حالة المرافق بها سيئة، ذلك أن كل نائب يعني بولايته ويخشي أصوات سكانها، أما واشنطن فلا خوف منها، حيث لا صوت لها ولا نائب.

ويكتب أهل واشنطن علي سياراتهم عبارة «ندفع الضرائب وليس لنا نواب» وهي عبارة دامعة، حيث يتحسر سكان العاصمة علي كونهم يدفعون مثل غيرهم لكنهم لا يجدون عائداً علي ما يدفعون مثلما يجد الآخرون.

زرت بسيون الأسبوع الماضي، وتذكرت علي الفور العاصمة الأمريكية واشنطن، إنهم في بسيون يدفعون الضرائب ولكن ليس لهم نواب.

إن بلدي - كفر الدوار مركز بسيون - محافظة الغربية، وهي حقاً واحدة من أجمل القرى في مصر، صارت موطناً للعذاب والألم، فمياه الشرب التي كانت تأتي من محطة تنقية المياه الواقعة علي النيل، توقفت بعد فترة طويلة جرى فيها ضخ مياه غير نقية، احتج الناس علي تلوث المياه، وبدلاً من اصلاحها توقفت المحطة تماماً!

سألت الأصدقاء، ألم تذهبوا لأعضاء مجلس الشعب قالوا: إننا نعتبر أنفسنا بلا تمثيل نيابي، إننا ندفع الضرائب وليس لنا نواب.

لقد سألني أحدهم بعد أن فاض به الكيل: لماذا يكرهوننا؟.. قلت له: من الذي يكرهكم.. قال: أصحاب القرار في القاهرة يكرهوننا، الوزراء يكرهوننا، المحافظون يكرهوننا.. كل رجال السلطة يكرهوننا.. لا يمكن أن يفعل بنا هذا.. لا يمكن أن يتركنا في بطالة وفقر ومرض وسط أدخنة البانجو إلا أناس يكرهوننا.

تذكرت زيارتي واشنطن وتذكرت عدداً من الذين باتوا يخافون الإسلام والمسلمين، بعضهم لا يعرف جيداً ما الإسلام ولا ما المسلمون.. كانوا يسألون في خوف وبله: لماذا يكرهوننا؟!

هي الدهشة نفسها في بسيون.. إننا لم نعارض الحكومة ولم نعارض المعارضة، إننا نلتزم الصمت إزاء صراعات أهل السياسة في القاهرة، لم نذهب إليهم لنقاتلهم، لم نرفع شعارات معادية، نراهم في الصحف فلا نمزقها، ونراهم عبر الشاشة فلا نغير عنهم قناة ولا نسكت لهم صوتاً!

ولكن أهل الحكم برغم ذلك كله.. لا يجهوننا. جاءتنا الأمراض من كل جانب، وحاصرت أولادنا البطالة من كل مكان، وتسلب الفقر والاحتياج إلي منازل كانت عامرة معمورة. فإذا ذهبنا إلي المستشفيات لم نجد من يستقبل أو يعالج، وإذا قدمنا طلبات فلا تعيين ولا تثبيت، وإذا وضعنا خطاً لمكافحة الفقر جاء غلاء الأسعار فقضي عليها!

في بسيون وواشنطن.. يدفعون الضرائب وليس لديهم نواب، في بسيون وواشنطن يسألون: لماذا يكرهوننا، غير أنهم في واشنطن خاضوا حربين لمجرد الشعور بكرهية الآخرين لهم.. وفي بسيون.. يكتفون بالشكوي لمن زارهم، فإذا غادر.. توجهوا بالشكوي إلي الله!

بسيون- فينسيا.. في الصرف الصحي المقارن!

ركبت القطار من ميلانو إلى فينسيا، لم يكن الكابتشينو، الذي تناولته داخل القطار جيذا بما يكفي، فدخلت علي إثره في نوم غير مبرر، ربما كان عقابا ذاتيا علي سوء الاختيار.

افقت من النوم علي طريق يتوسط الماء، نظرت يميننا ويسارا فلم أجد غير الماء، كان ذلك مذهلاً لشخص قادم من بلد تصطدم فيه القطارات في اليابس، كلما وجدت الفرصة، وقد فكرت طويلاً كيف أمكن بناء قضبان علي مكان مائي رخو كهذا المكان، وقبل أن اهتدي لجواب كنت قد وصلت إلي محطة فينسيا.

فينسيا كلها فوق الماء، هنالك شوارع رئيسية وفرعية وحارات وأزقة، وكلها مياه لا وصول لها بغير القارب.

ياخذ عموم الناس الأتوبيس المائي، وياخذ أنصاف الأثرياء التاكسي المائي، وهو قارب أنيق له قائد واحد، ويذهب إلي حيث تريد في سرعة وفخامة.

أما كبار الأثرياء فلديهم اليخوت الخاصة، التي تمثل قصورا تمشي علي الماء، لم يشغلني في تلك المدينة الساحرة ما كان يشغل عموم سياح العالم، من الشوارع إلي القوارب إلي ساحات الحمام أو مذاق القهوة الإيطالية قبالة مبان تاريخية، بل كان يشغلني سؤال واحد، كيف قامت الحكومة الإيطالية ببناء شبكة الصرف الصحي في فينسيا؟

إنها مدينة الماء، كلها مياه.. كيف تم الحفر والردم.. وكيف تم وضع المواسير الرئيسية والفرعية، وكيف تم تصميم وتنفيذ خريطة البلاعات والمضخات؟.. كان الأمر بالنسبة لي معجزة تامة.. مدينة كاملة بين الماء ولا تعاني من الصرف الصحي.

ان بـسيون التي نشأت فيها، وعشت في ريفها نصف عمري، لاتزال خالية من الصرف الصحي، بعد نصف قرن من المحاولات، ومع ان بـسيون مدينة يابسة، كلها أرض سمراء جامدة، فإن أي ماسورة صرف سرعان ما تنهار تحت أي ضغوط تافهة.. إن كل شارع في القاهرة احتوي في باطنه علي ماسورة تؤدي أي غرض، يقضي عمره مبللاً بالمياه، معرضاً للحفر والردم.. أثناء الليل وأطراف النهار.

إنني لا أعرف أين تكمن العضلة، هنا مهندسون وشركات ودراسات وميزانيات، وهناك أيضاً، لكنهم في مدينة يستحيل فيها إنجاز شبكة للصرف الصحي قد أنجزوها بإتقان، وعندنا تغرق الهندسة والسياسة في بالوعة متهالكة كل يوم.

لقد قابلت سائحاً في فينسيا.. سألني عن بلادي.. قلت له، مصر.

قال، أوه.. بلد الحضارة، إن فينسيا شيء بسيط جداً إلي جانب حضارة بلادكم، قلت في نفسي، هذا صحيح.. لقد بني الفراعنة حضارة عظيمة، وعلي ضخامة المعابد والمقابر والمدن.. لم يعان أثر واحد من مشكلة الصرف.. أما الآن فإن أبوالهول يحتاج إلي حضارة جديدة تنقذه من المياه الجوفية، وتعيد بناء شبكة الصرف الصحي التي توقفت قبل سبعة آلاف عام!

بسيون - سويسرا..

البديل الآمن

كيف أصبحت سلسلة من الجبال الباردة أجمل بلد في العالم؟ وكيف تدهورت أعظم حضارة في التاريخ من عصر بناء الأهرامات إلى عصر استيراد فانوس رمضان؟

■ لا شيء في سويسرا يؤدي إلى التقدم.. سبعة ملايين نسمة يسكنون الجبال والهضاب، يتحدثون عدة لغات، ولم يسبق لهم استعمار شعوب أو نهب ثرواتها، تغطي الغابات معظم أراضي سويسرا، ولا تكفى الزراعة لحاجة السكان، وبالإضافة إلى الفقر الزراعي، تعاني سويسرا فقراً شديداً في الثروة المعدنية.

■ منطق الأشياء أن تكون سويسرا دولة متخلفة، فالأجواء باردة، والثلوج قاسية، والجبال والهضاب تصعد وتهبط على امتداد الدولة، والبحيرات تقع عند منحدرات وعرة، وحدود الدولة تلامس دولاً كبيرين، كان لها تاريخ مخيف في شؤون الحرب والقتال.

■ قضيت جانبا من إجازة العيد في سويسرا.. تمثل سويسرا نموذجا للمعجزة الناعمة.. هي معجزة هادئة أنيقة، جرى صنعها بدقة الساعات السويسرية، ويبدو مشروع بناء سويسرا كمشروع بناء فندق واحد على كل أراضي الدولة.. هنا أماكن للسكن، وهنا للعب، وهنا للتنزه في المياه، وهنا عند شواطئها.. وهنا جناح صناعي عملاق يغذي احتياجات الفندق، وثمة شبكة مدهلة من الطرق والأنفاق والجسور لخدمة النزلاء.

■ نجحت سويسرا في كل الأشياء السهلة، التي تحتاج إلى سلطة عظيمة، لا شعباً عظيماً.. فالصناعات الدقيقة والآلات الدقيقة والأدوات الطبية والكيمائيات والأدوات الكهربائية، قد نجحت في تحويل سلسلة من الجبال الشاقة إلى أجمل بلد في العالم.

■ لا أخفى أنني أصبحت مثل كثير من المصريين، أزور العالم كنصف سائح ونصف حاقـد.. إننى لا أرى جمالاً إلا وتمنيته في مصر، ولا أرى نجاحاً إلا وتخليته في مصر.. تمنيت أن أقلع كل الأشجار وأزرعها في بلادى، وأحيط كل الجبال الخضراء وأنقلها إلى بلادى.. وأنزع كل ينابيع الماء وأطلقها في بلادى، تمنيت أوروبا سارعاً وجسراً ونفقاً.. تمنيت أن أنقل العالم إلى مصر، بعد أن فشلنا في نقل مصر إلى العالم.

بسيون - فيينا.. البطّ والسلاح

كانت العاصمة النمساوية باردة للغاية في ذلك النهار، سبع درجات تحت الصفر تساندها رياح جارحة، جلست في بهو فندق ماريوت فيينا أرتب جدول زيارتي القصيرة مدعوماً بفنجان من القهوة مع اللبن الساخن.

كانت تلك الأجواء الرغدة كافية لأنسى وقائع رحلتي الأخيرة إلى بسيون، في محافظة الغربية، لكن الصحف المصرية التي أخذتها من الطائرة قطعت الزمان والكان، ثمة تصريح بانس لأحد الوزراء حول أزمة البوتاجاز في البلاد.. قال الوزير، لماذا يصنعون منها أزمة.. لماذا لا يعودون للاعتماد على القش، والحطب، والجلّة..

وعند كلمة «الجلّة»، سألني أحد الضيوف، ماذا تقرا..، كان عليّ أن أشرح قضية الغاز والجلّة باللغة الإنجليزية. تذكرت على الفور الكتاب القادم لأديبنا الرائع د. علاء الأسواني. قال لي د. الأسواني، إنه يُعد كتاباً بعنوان، غير قابل للترجمة.. وأن فكرة الكتاب جاءت من الصحفيين والأصدقاء الأجانب الذين يطلبون منه شرحاً لبعض الأشياء والأوضاع في مصر، وهي برأي الأسواني أشياء لا يمكن ترجمتها.

لقد أدركت حجم المعاناة والإهانة في شرح ما قرأت.. سابدل جهداً كبيراً في شرح كيفية قضاء الحاجة عند البقر والجاموس. وشكل الحاجة التي تم قضاؤها.. استدارة وارتفاعاً، ثم كان عليّ أن أشرح الطبيعة الفيزيائية للجلّة في المرحلة الطازجة والوسيطّة إلى النموذج الاستهلاكي المعتاد وهو «الجلّة اليابسة»، ولصعوبة مفردات «الطازجة والوسيطّة واليابسة»، فإن العامة من الفلاحين يختصرون تلك الصناعة في مرحلتين «الجلّة الطرية،

و،الجلّة الناشفة..

لقد استخدم أهالى بسيون القدماء وأحفادهم البسطاء «الجلّة، كمادة للوقود، كما استخدموا القش والحطب كمادة للتزود بالوقود، وتقاس وحدة «الجلّة، بالقرص، وتحتاج الوحبة الواحدة في إعدادها إلى عشرة أقراص من الجلّة. لم أشأ أن أترجم ذلك كله إلى من سألنى.. ولو شئت لما استطعت، ولو استطعت لما صدقنى سائلى ولاعتبر حديثى نوعاً من الدعابة أو الإساءة أو هما معاً!

جلست أفكر في «طاقة الجلّة، بعد أن انتهت متعة الماريوت وفيينا وقهوة اللبن، وفيما أنا هائم في استجماع معرفتى بتلك الطاقة العريقة، كان ضيفى د. محمد البرادعى قد وصل إلى مدخل الفندق وفى صحبته زوجته السيدة عايذة الكاشف وشقيقه الناشر على البرادعى. نهضت لاستقبال د.البرادعى محيئاً ومرحباً، جلسنا في ردهة الاستقبال.. نتجاذب أطراف الحديث.

حدثنى د. البرادعى عن الملفات التى أدارها في الوكالة الدولية للطاقة الذرية - وعن جانب من الأوضاع في كوريا الشمالية وإيران وإسرائيل.. وعن حديثه مع الرئيس أوباما عن السلام والسلاح.. ومستقبل الأمن والسلم.

يا الهى.. كانت معاناتى مع تلك التنقلات بلا حدود.. من بسيون إلى فيينا.. من جمع القش إلى انشطار الذرة.. ومن الحطب إلى الطرد المركزى.. ومن تقريص الجلّة إلى تخصيص اليورانيوم!

قبة فندق ماريوت فيينا تقع حديقة رائعة، يقع عند سورها الأيمن فندق إنتركونتيننتال وعند سورها الأيسر هيلتون فيينا، ومن ثم فهى حديقة مناسبة تماماً لنزلاء الفنادق المطلة من أجل التريض والتجوال.

كانت الثلوج تهطل حين دلفت إلى مدخل الحديقة، ولكن البالطو المحلاوى الذى ارتديه كان حائط صد عملاقاً للرياح والثلوج معاً.

يمرق نهر الدانوب تلك الحديقة الرائعة.. ولأننى نشأت في بسيون على ضفاف نهر النيل، فأنا واحد ممن يرون في الأنهار دفناً ووطناً.

لم يكن النهر كما رأيته في المرة السابقة، كان نصف نهر.. ذلك أن شاطئ الدانوب كان قطعة لا نهائية من الثلج.. ثمة لوحان ثلجيان كبيران وبينهما نهر، وبدلاً من نصف النهر بين الثلوج كمن يبحث عن دفء أو يلتمس مرفأً ليستريح.

جلست وحدى أتأمل ذلك للشهد الساحر الساكن الهيب.. الشاطئ خال تماماً.. لا أحد يؤنس النهر في محنة البرد وتآكل الأطراف.. الذين عايشوه سباحة واستجماماً، طعاماً وشراباً، وحباً وغراماً، تركوه غارقاً تحت الصفر!

لم يكن نكران الجميل جامعاً لأصدقاء النهر، ثمة من خرجوا على ذلك.. وفدّ رائع من البط كان يسبح في وقار.. كأنما هو استعراض منظم في دار للأوبرا لا سباحة هائمة على سطح نهر.

ادهشني ذلك البط المجاهد، ذلك أن البط في قريتنا يولى الأدبار إذا ما هطل المطر أو زادت البرودة.. كانت أمي تعلن الطوارئ في تلك الأجواء وتنادى حشود البط نداءها الشهير «بيتك.. بيتك»، أما البط في فيينا فالنهر هو الشارع والبيت معاً!

قطع اندماجي في عالم البط قدوم رهط من اليابانيات التائهات على الشاطئ الجليدي للنهر، وكنت النقذ لهن أو هكذا اعتقلت.. سألنني عن مكان يسمى «ليفى شترأوس».. وكعادتنا في مصر كان سؤالى وجيهاً للغاية، هما قالوا لكم فين، أعطيتنني الخريطة وبدان الرسم بالأصابع والإشارة بالأقلام، وأعدت سؤالى لكن بدرجة أكثر بلاهة، «يعنى فين من هنا.. قالت لى إحداهن، هل أنت سائح أم تائه؟»

أقنعت اليابانيات بأن لدى معرفة واسعة بشؤون عديدة ليس من بينها الطرق والمواصلات.. وعدت أدراجى إلى الطبيعة..

لم تدم متعتى طويلاً.. ذلك أن صديقى الأستاذ عمرو عبدالحميد، كبير مراسلى «بى.بى.سى» في مصر كان يزور دارفور.. وكان في صحبة السيد عمرو موسى، وكانت طائرتهم على وشك السقوط بعد إقلاعها بقليل.. ورغم صداقتى الوثيقة والعريقة بعمرو عبدالحميد، غير أنني لم أشعر بالقلق، كل ما شعرت به أن عمرو الذى قضى خمسة عشر عاماً من حياته في مدن وبحيرات وأنهار روسيا يريد أن يقض مضجعى في فيينا.. انتبهت للمؤامرة.. أغلقت الهاتف وواصلت أراقب نصف النهر وأفواج البط.

بسيون - بودابست.. هناك جديد كل يوم

ما رأيته في مدريد، شاهدته مرة أخرى في بودابست، كان المشهد متشابهاً إلى حد التطابق.. قبل عام تقريباً، تشرفت بحضور محاضرة كبير العلماء العرب الدكتور أحمد زويل في مدريد، كنت جالساً إلى جوار السفير ياسر مراد، سفيرنا في إسبانيا.. وما إن انتهى الدكتور زويل من محاضراته العلمية حتى دوت القاعة بالتصفيق، ثم طلب رئيس الجلسة من العلماء الحضور أن يبدأوا النقاش.. لكن المفاجأة أنه لا أحد طلب النقاش.

كرر رئيس الجلسة وهو أيضاً رئيس الأكاديمية الإسبانية للعلوم طلبه من القاعة ببدء الحوار.. لكن لا حوار.. ولا نقاش.. ولا أي أيد مرفوعة.. استمر ذلك طويلاً حتى قام العلماء للسؤال والاستفسار.. كنا فخورين للغاية.. السفير وأنا وكل المصريين والعرب.. أن لدينا عالماً بوزن أحمد زويل.

المشهد ذاته تكرر في بودابست.. كان الدكتور زويل مدعواً إلى المجر لتسلم شهادة الدكتوراة الفخرية من جامعة «التى»، واسمها المعروف **ELTE UNIVERSITY**، وهو اختصار لاسمها الرسمي **EOTVOS LORAND UNIVERSITY**، وهى جامعة عريقة.. تحتفل الآن بمرور (375) سنة على تأسيسها.

لقى الدكتور أحمد زويل محاضراته العلمية، ثم دوت القاعة بالتصفيق، ثم طلب رئيس الجامعة من الحضور بدء النقاش.. لكن أحداً لم يرفع يده.. وتكرر الطلب عدة مرات حتى كاد رئيس الجلسة ينهى اللقاء بعد المحاضرة.. كان المشهد الذى عايشته في مدريد هو ذاته الذى وجدته في بودابست.

كنت فخوراً أن أجد تلك المسافة الكبرى بين واحد منا وبينهم.. ولقد كان ذلك واضحاً في حفل العشاء الذي أقامه السفير على الحفنى، سفيرنا المتميز في المجر.. وحضره سفراء المغرب والجزائر وفلسطين ورموز الجالية العربية.

قال لى الدكتور أحمد زويل، إننى مأخوذ بفكرة التقدم والخطوات التى تتخذها الشعوب للأمام، كما أننى مأخوذ أكثر وأكثر بمعالم ذلك الجسر الحضارى الذى يصل التخلف بالتقدم.. والذى يرمم ما بين هبوط وصعود الأمم، وفى حالة المجر، كلما أتيت إليها وجدت جديداً.. ثمة مبان أكثر جمالاً ورونقاً، وتاريخ تجرى استعادته.. ومشروعات تتوالى فى دأب وأمل.

ثم أبطأ الدكتور زويل الخطى وقال: إن الشارع الذى نمشى فيه الآن لم يكن كذلك.. ولا واجهات المباني كانت كذلك.

صحيح أن عدداً من المجرين ربما يجدون حنيناً إلى الشيوعية وربما يجدون إحباطاً من المسافة الطبقيّة بين الأغنياء وغير الأغنياء.

وربما يجدون كذلك قلقاً بشأن الحاضر والمستقبل إزاء نظام رأسمالى لا يقف مكانه.. وقد تطيح تقلباته بمدخرات الناس وممتلكاتهم.

لكن المؤكد هنا أن الناس تفكر فى ذلك وهى تخطو للأمام.. إنها تناقش ذلك وهى تعيد بناء الدولة.. وإذا جئت إلى بودابست بعد عام ستشعر بسهولة أن ذلك العام لم يكن ضائعاً من عمر الشعب.

بسيون - بوخارست.. عند الجيران ثلاث آلاف غرفة نوم

■ كان في تخطيطي قضاء إجازة عيد الأضحى في بسيون، لكنى لم أذهب إلى بسيون، وإنما تشرّفت بصحبة كبير العلماء د. أحمد زويل، إلى بودابست وبوخارست.. وهكذا حافظت على حرف الباء، بسيون - بودابست - بوخارست.

■ أقمت في غرفة رائعة، في فندق جى. دبليو ماريوت، تطل مباشرة على قصر الرئيس الرومانى الأشهر شاوشيسكو.. كان التاريخ ماثلاً أمامى ليل نهار.. فقط أزيح ستارة الغرفة لأجد جانباً من تاريخ العالم المعاصر.. من الشيوعية والحرب الباردة.. من السلطة والشهرة.. من الثروة والثورة.. من رجل كان يهز جميع شوارب رومانيا بنظرة واحدة، رجل تبحث عائلته الآن عن رفاقته بعد إعدامه دون جدوى!

■ كنت في غرفتى كأننا في رواية.. وكل نظرة ألقيتها على القصر العظيم كانت ترتد إلى حاملة قصة قصيرة وعبرة كبيرة.

■ يا الهى.. كيف انطفأت أضواء القصر العظيم.. كيف عاش ومات سيد القصر، من رجل يملك الأرض ومن عليها إلى رجل لم يتمكن من الهرب مع زوجته فَيَسْقُطَ في قبضة الغاضبين.. فلا قصر من الأحلام ولا سلاله من رخام ولا مقابض من ذهب.. لا شيء من أى شيء.. فقط محاكمة سريعة وطلقات أسرع ورحيل عاصف!

■ كلما نظرت إلى قصر شاوشيسكو أصابنى قسط من اليأس والزهد.. ما الحياة.. وما النجاح.. وما السلطة.. وما الشهرة.. وما المجد.. ما الذى يبقى من كل صراعات الحياة ومناصب الدنيا وحروب الليل والنهار!

مهرجان بسيون السينمائي الدولي

سوف يسخر الكثيرون من عنوان هذا المقال، أو أنهم سيعتبرونه مقالاً جانبا في الكتابة الساخرة.

لن ياخذ أحد ذلك على محمل الجد، وإذا قرأ هذا المقال مائة ألف قارئ.. لن ياخذ قارئ واحد ضمن المائة ألف هذا المقال بالجدية الكافية.. بل ستنطلق على الفور مائة ألف ضحكة للقفشة الجديدة في هذا العنوان.

بسيون، مركز ريفي ساحر تتوسطه مدينة.. ضمن محافظة الغربية، ولكن السخرية لا تخص بسيون وحدها.. ماذا لو كان، مهرجان منيا القمح السينمائي الدولي، أو كان، مهرجان دكرنس السينمائي الدولي، أو، مهرجان حوش عيسى السينمائي الدولي، أو كان، مهرجان ديروط السينمائي، أو، مهرجان بنى مزار السينمائي الدولي... ستكون السخرية من نصب الجميع.

2

ما الذى جرى لبلادنا؟.. كيف أصبحت كل مصر خارج القاهرة والإسكندرية والأقصر قطعاً متصلة من العارا إذا جرى الصاق أى شئ حضارى بها صار الأمر نكتة.

ماذا لو كان، بينالي بسيون الدولي... أو معهد بسيون للدراسات الاستراتيجية، أو وكالة بسيون لعلوم الفضاء.. إنها كلها نكات.. وربما يعتبرها بعض القراء سفهاً في التفكير وشططا في الحديث.

3

لكن العالم ليس كذلك.. هل يمكن أن يقول لى أحد ما هى العظمة الاستثنائية في

مدينة كان الفرنسية.. لماذا لا يسخر الناس إذا قلنا «مهرجان كان السينمائي الدولي».. إن مدينة «كان» مدينة عادية.. مدينة صغيرة وشاطئ محدود وعدد من الفنادق وسط طبيعة أوروبية معتادة.

إن نسبة «كان» إلى العاصمة باريس مثل نسبة «بسيون» إلى العاصمة القاهرة، لكن أهل باريس لا يضحكون إذا استعدت بلادهم لمهرجان كان.. لكن أهل مصر جميعاً سيقعون على الأرض من الضحك إذا قلنا مهرجان بسيون السينمائي.

المؤكد أننا بالغنا كثيراً في احتقار بلادنا.. في احتقار مدننا وقرانا.. في احتقار محافظاتنا المسماة بالأقاليم والأرياف.

أذكر أنني حين أذهب من القرية إلى المركز يقولون: «الفلاحين وصلوا»، وحين أذهب من المركز إلى طنطا يقولون: «الفلاحين وصلوا». وحين أذهب من طنطا إلى القاهرة يقولون: «الفلاحين وصلوا». وحين أذهب من القاهرة إلى أوروبا أو أمريكا يقولون: «الفلاحين وصلوا»..!

كيف أصبحت كل محافظات مصر.. مثاراً لعدم التقدير وعدم الاكتراث، كيف أصبحت كل محافظات مصر.. مجرد «فلاحين وصعايدة».. كيف انطلقت الحضارة من أقاليم بلادنا قبل آلاف السنين، وكيف خرجت أقاليم بلادنا من الحضارة بعد آلاف السنين؟!

الفصل السابع..

مذكرات محدودة

قصور وقبور..

قصة الأميرة فريال

تحدثت إلى الأميرة فريال في شهر رمضان، كانت الأميرة في سويسرا ولكنها لم تكن في بيتها ولا في بيت أخيها الملك السابق أحمد فؤاد.. بلت الأميرة كعادتها بشوشة ضاحكة.. وبعد وقت طويل من الحديث العام فاجأتني بالقول: أنا في المستشفى الآن.. قال لي الأطباء: إن الوضع سيئ للغاية، وليس أمامي في رحلة المرض إلا شهران أو ثلاثة، وأنا سعيدة بسماع صوتك.. وارجو أن تتصل بي كثيراً الأسابيع القادمة.. لأنني لن أكمل هذا العام.

(2)

كانت صدمتي بلا حدود.. بالمرض وبالرحلة الأخيرة منه.. وبتقديرات الأطباء حول الموت القادم بسرعة الضوء!

استجمعت كل قواي لأقول ما يقال في مثل هذه المحن: يا سمو الأميرة هذا كلام أطباء، وأنا أعرف عشرات الأشخاص الذين عاشوا سنوات مديدة، رغم تقديرات الأطباء، ثم إنك في حالة معنوية جيدة وهذا هو الأهم.. لا داعي للقلق، ستكونين في أحسن حال.

ربت الأميرة فريال، أنا أقدر مشاعرك ومحاولتك للتخفيف عني، لكنني أعرف وضعي الصحي جيداً.. وأعرف أنني ساموت خلال شهرين أو ثلاثة.. ثم توقفت وقالت: هل تظن أنني خائفة من الموت؟.. أبداً، أنا غير خائفة نهائياً.. أنا لم أفعل في حياتي أشياء تجعلني أخاف الآن.. أنا لم أظلم أحداً.. أنا لم أنهب ولم أسرق.. عشت حياتي كلها مظلومة لا ظالمة.. وعانيت معاناة شديدة.. ليس في حياتي إلا المشقة والتعب.. ثم توقفت الأميرة قليلاً، وعادت لتقول: حتى لو كانت عندي أخطاء وننوب.. الحمد لله.. فقد أدبت فريضة الحج مع أخي أحمد فؤاد.. وأنا لم أفعل شيئاً بعد الحج.. وأنا سعيدة بهذا الختام وجاهزة للقاء الله.

(3)

بدأت علاقتي بالأميرة فريال على إثر حديث تليفزيوني أجرته في باريس مع فضيلة فاروق، الزوجة السابقة لأحمد فؤاد، كان حديث الملكة فضيلة، مدوياً.. واهتمت به أوساط متنوعة في عدة دول.. وقد تحدث إلى أفراد من عائلات آل سعود وال صباح وآل نهيان وآل ثاني من أجل دعوتها، كنت قد تعرفت إلى فضيلة فاروق عن طريق محاميها، إيلي حاتم.. ويعمل إيلي حاتم، محامياً وأستاذاً للقانون وهو فرنسي لأب لبناني وأم بريطانية لها أصول ملكية.. ويحضر إيلي، بانتظام احتفالات العائلات المالكة السابقة والتي تمثلها رابطة في أوروبا. وقد سمعت عنه كلاماً جيداً من أستاذه المصري د. بطرس غالي، الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة.

(4)

أصبح إيلي حاتم، صديقاً لي.. وقد تعرفت عليه من خلال رجل الأعمال السعودي ماجد شربتلي الذي تربطني بعائلته صداقة قديمة، وقد عرفني إيلي حاتم، بدوره على رولان دوما، وزير خارجية فرنسا الأسبق، وكذلك، جان ماري لوبن، زعيم اليمين المتطرف في فرنسا والذي يشاركه، إيلي، العداء الشديد لإسرائيل.

ذات ظهيرة دافئة في باريس قال لي، إيلي، هل تعرف الملكة فضيلة؟ قلت له، لا. قال، فضيلة فاروق هي زوجة الملك أحمد فؤاد وأم أولاده الثلاثة، محمد علي وفوزية لطيفة وفخر الدين، وأنا محاميها، ويمكنني إقناعها بإجراء مقابلة تليفزيونية معك لقناة دريم، وذات ظهيرة دافئة تالية تقابلنا ثلاثتنا، فضيلة وإيلي وأنا، في فندق ماريوت الشانزليزيه.. حيث جرى التعارف وبدأت صلتى بفضيلة فاروق.

(5)

بدأت لي فضيلة فاروق شخصية طيبة.. منضبطة في المواعيد ومجاملة في التعامل وفخورة بزواجها من أحمد فؤاد وكثيرة الحديث عن حماها الملكة ناريمان، التقيت فضيلة فاروق أكثر من عشرين مرة كلها في باريس، وفي جميع المرات كانت فضيلة تكرر اسم الملكة ناريمان والددة أحمد فؤاد عشرات المرات في كل لقاء.. لكنها لم تذكر أبداً اسم الأميرة فريال شقيقة أحمد فؤاد.. ولو مرة واحدة!

كانت فضيلة تخشى أن تذكر اسم الأميرة فريال بسوء فتظهر أمامي بما يخالف شخصيتها التي حافظت عليها طيلة اللقاءات.. وربما كانت قلقة من احتمال أن أكون حليفاً خفياً للأميرة فريال.

كانت فضيلة تكرر كل خمس دقائق تقريباً صلتها بالملكة ناريمان، ودورها في إعادة ناريمان إلى ابنها أحمد فؤاد، وعن مباركة ناريمان لزواج فؤاد وفضيلة وخشيتها عليهما من الحسد!

وتقديري أن فضيلة كانت تشعر بأزمة حقيقية داخل أسرة محمد علي، ولأنها ليست مصرية ولم تكن مسلمة ولا هي من أسرة مالكة ولم تعيش يوماً واحداً في قصور الملكة المصرية.. ولم تشهد الملك فاروق ولم تانس بالأميرة فريال.. فقد اعتمدت فضيلة في كل شرعيتها على اسم الملكة ناريمان.

(6)

كان الكثيرون في باريس والقاهرة يتحدثون أمامي بدرجات متفاوتة من الانزعاج تجاه فضيلة فاروق، كان البعض يشكك في إسلامها ويرأها يهودية أظهرت الإسلام من أجل الزواج من الملك.

وكان آخرون يشككون في أصولها الاجتماعية ومكانتها الأدبية، وتحدث بعضهم عن أن والدها كان يمتلك محلاً للأحذية في ستراسبورج، وأن فضيلة قدمت وضعاً عائلياً غير حقيقي ليتناسب مع مقام العائلة المالكة المصرية، وتحدث ثالثون عن حجم المعاناة التي عاناها أحمد فؤاد مع فضيلة.. وعن مدى الأضرار المالية والنفسية التي لحقت به من جراء فضيلة.. وحكى رابعون قصصاً متنوعة عن إبداعات فضيلة في تحطيم أحمد فؤاد.. من إضاعة أموال الأمراء السعوديين إلى تمزيق جواز سفر الملك، إلى منع الأبناء من رؤية أبيهم أحد عشر عاماً!

لقد كنت أسمع ذلك كله وأنا مذهول.. هل يمكن أن تكون فضيلة التي رأيت فيها الهدوء واللفظ وحسن التعامل بكل هذه القسوة، وبكل هذا الحجم من الأخطاء.

(7)

تتحدث فضيلة باستمرار عن الملك والملكة، وأبليت لي رغبتها في وضع كتاب عن مذكراتها مع العائلة المالكة المصرية.. وقالت لي إن «فريدريك ميتزان» الذي أجرى عدداً من

الحوارات مع العائلات المالكة السابقة قد نصحتها بأن يكون هذا الكتاب مشروعاً لفيلم سينمائي عن حياة فضيلة.

أصبح ،فريدريك ميتران، الذى يعرف ،أحمد فؤاد، عن قرب منذ أكثر من ربع قرن وزيراً للثقافة في فرنسا، وأصبحت ،فضيلة، نفسها طليقة ،أحمد فؤاد، والأغلب أن حلم ،فضيلة، في إنتاج فيلم سينمائي عن حياتها مع أسرة محمد على قد ذهب إلى النسيان.

لم تذكر لى فضيلة رغبتها في القيام بدور في هذا الفيلم الذى تتمناه، لكن فضيلة التى كانت فائقة الجمال وقت زواجها من أحمد فؤاد تبدو كفنانة في المناسبات العامة، فهي ليست صارمة في ملابسها بالشكل الكافى، كما أن طريقته نصف الرومانسية في الحديث يجعلها أقرب إلى كونها شخصية فنية من كونها شخصية ملكية.. زوجها ملك وحماها ملك وحماها ملكة وأبناؤها الجيل المعاصر من أسرة محمد على.

(8)

كانت قضية الطلاق بين أحمد فؤاد وفضيلة في المحاكم الفرنسية والسويسرية.. بينما كانت فضيلة تنكر ذلك تماماً وتتحدث معى عن الكتاب وعن الفيلم وعن علاقتها المثالية بزوجها، وعن شعورها الكبير بالمسؤولية تجاه أسرة محمد على، وذات مساء التقيت فضيلة في بهو فندق إنتركونتيننتال في باريس.. ووجدتها تقول لى، لقد حدثت من قبل عن الوفاة الغامضة للملك فاروق.. إنها ليست غامضة.. لقد قتله جمال عبدالناصر، وقالت لى، إننى لن أسمح بأن يذهب دم الملك فاروق هكذا، وأنا لدى الوثائق التى تؤكد قيام المخابرات المصرية في عهد عبدالناصر بوضع السم للملك فاروق أثناء تناوله الطعام في أحد المطاعم الإيطالية.

كانت فضيلة بهذه القصة تريد أن تحلث قفزة في علاقتها بالأسرة المالكة.. أرادت أن تؤكد أنه لا صحة لموضوع الطلاق، وأنها ليست مجرد زوجة لأحمد فؤاد، ولكنها المدافعة عن سيرة العائلة، ومسيرة حماها الراحل للملك فاروق.

قال لى الأستاذ محمد حسنين هيكل: إن فضيلة لا تملك شيئاً ولا تعرف شيئاً، وقالت لى الأميرة فريال فيما بعد إن فضيلة لم تعد زوجة لأحمد فؤاد.. وهى لا تملك أى وثائق في أى موضوع.. وحديثها باسم العائلة المالكة أصبح مخالفاً للقانون.

(9)

حاز لقاء فضيلة في برنامج «الطبعة الأولى»، ذيوماً وقبولاً، وكانت فضيلة في غاية النشوة، فقد ظهرت أنيقة هادئة عاقلة.. ثم أنها ظهرت زوجة رائعة وأماً مثالية.. وسيدة حكيمة تملك الكثير من الصبر والعقل، وقد حدثتني فضيلة بعد اللقاء سعيدة للغاية، ووضعت المقابلة على مواقع الكترونية بعد أن وجهت خطاب شكر مؤثراً.

وبعد أيام قليلة من ذلك الوضع الرائق.. تحدث إلى المهندس إيهاب شفيق، صديق العائلة المالكة، يعمل إيهاب شفيق مهندساً للميكور، وله سمعة مهنية متميزة داخل وخارج مصر، وقد عمل لفترة طويلة مع الأمير صدر الدين الأغاخان.

كان إيهاب شفيق، صديقاً مقرباً للملكة فريدة والصديق الأقرب لشقيقها شريف ذوالفقار، ثم أصبح الصديق الدائم للأميرة فريال، قال لي إيهاب شفيق، لقد شاهدنا لقاء فضيلة معك، والأميرة فريال مستاءة للغاية لأن كل ما قالته فضيلة غير صحيح، وأنا ادعوك للقاء من أجل إعادة تقدير الموقف.

يقيم المهندس إيهاب شفيق في شقة فاخرة في حي الزمالك، وللهواة الأولى يمكنك أن تلمس الأجواء الملكية في المكان، ثمة ميكورات رائعة وقطع فنية باهرة، وثمة بروتوكول رفيع في الاستقبال والجلوس وفي وقائع الحوار.

(10)

قال لي المهندس إيهاب شفيق بعد أن عرض وجهة نظره في نقد حوار فضيلة، ساتصل الآن بالأميرة فريال في سويسرا وأعطيتها لك.. لأنها ترغب في أن تقول لك بنفسها معاناة أحمد فؤاد مع فضيلة.

قالت لي الأميرة فريال.. أنا سألت عنك وأعرف عنك أشياء جيدة، ولكن تعرفت على هذه ال...، المسماة فضيلة، ثم واصلت الأميرة.. أنا لا أحدثك كاميرة أخى ملك وأبى ملك، أنا أحدثك كإنسانة بسيطة وأنت فلاح وتعرف الأصول، هذه ال...، دمرت حياة أخى، دمرت كل عائلتنا معه، إنها كاذبة وخادعة، وكل ما تقوله كذب، أنت لا تعرف فضيلة، إنها تبدو رقيقة وعاقلة، ولكنها على العكس من ذلك تماماً، والحمد لله فقد تخلصنا منها تماماً، لم تعد زوجة أخى، لقد حكمت المحكمة السويسرية بطلاقها التام والنهائى من أحمد فؤاد.

قلت للأميرة فريال، ولكن فضيلة قالت لى عكس ذلك، قالت الأميرة: من فضلك لا تقل كلمة «فضيلة»، اسمها لم يعد فضيلة، اسمها فرانس بيكار، وقد أعطيناها اسم فضيلة فاروق لزواجها من أحمد فؤاد فاروق، لكن الآن وبحكم المحكمة تم سحب الاسم منها، وتعود لاسمها الأصلي فرانس بيكار، واستخدامها لاسم فضيلة أصبح مخالفاً للقانون وسارفع عليها دعوى قضائية لو استخدمته من الآن.

ثم سكنت الأميرة فريال بعض الوقت، وعادت لتقول: هل تظن أنني أكره هذه ال...، لأنني أخت زوجها؟ هل تظن أنها غير نساء.. أو أنني أشعر أنها أخذت أحمد فؤاد منا؟ إذا ظننت هذا سأكون حزينة للغاية، وأرجوك أن تتحدث إلى كل من تعرف في باريس أو سويسرا أو القاهرة، ثم قالت بانفعال: «ولماذا كل هذا.. سأطلب من أخى أحمد فؤاد أن يحكى لك بنفسه أسوأ سنوات حياته..»

فى اليوم التالى اتصل بى المهندس إيهاب شفيق وقال لى إن الأميرة فريال اتفقت مع الملك أحمد فؤاد أن يكون بينكما اتصال اليوم، ليؤكد لك بنفسه حقيقة الطلاق وتاريخ المعاناة، ثم أعطانى رقم الهاتف الخاص بأحمد فؤاد في سويسرا.

(11)

كانت «نيللى» السكرتيرة الخاصة للملك أحمد فؤاد في انتظار المكالمات، وما أن سمعت اسمى حتى قالت لى: «أهلاً بك.. أصبحنا نعرفك من الأميرة فريال.. سأعطيك جلالة الملك..»

جاء صوت الملك السابق أحمد فؤاد عبر الهاتف من سويسرا قوياً ومنفعلاً، وفى حالة تاهب، وكانت تحيته تحمل قدراً من الخشونة.

قال أحمد فؤاد: «أنا أعرف الصحفيين في مصر، ولا أعرف إذا ما يمكننى الثقة فيك أم لا... ثم توقف وقال: «هل تفضل أن يكون حديثنا بالفرنسية أم بالإنجليزية»، قلت له: «إذا لم يكن ذلك مرهقاً لجلالتك.. فأنا أفضل العربية»، قال لى: «أنا مصرى وأتحدث العربية.. ولكننى في حالة غضب وانفعال لأننا نتحدث عن فضيلة، وأنا أخشى ألا أتحكم في الفاظى وكلماتى باللغة العربية، لكن على أى حال حين أقول لك الآن أنني قد طلقت فضيلة نهائياً، وإن فضيلة لم تعد زوجة لى.. وأنا لن أعيدها زوجة ما حييت،

فهذا أمر واضح.. مرة أخرى.. لقد طلقت فضيلة، هذه عبارة واضحة لا تحتاج إلى

ترجمة أو تفسير، وبالتالي كل ما قالت له لك فضيلة لم يعد له معنى، ثم قال أحمد فؤاد: سارسل لك عبر الفاكس بخط يدي قرار طلاقى من فضيلة وسارسل لك حكم المحكمة السويسرية بالطلاق، ثم واصل متأثراً: «إننى أمل أن أسمع صوتك مرة أخرى، لكننى لا أريد أبداً أن أسمع اسمها في أى لحظة، وكان تأثير الملك السابق في حديثه عن زوجته السابقة كافياً للإحساس بحكم معاناة أحمد فؤاد مع فضيلة.

(12)

أرسل أحمد فؤاد ما وعد، وقد عرضت وثائق الطلاق في برنامج «الطبعة الأولى» وعرضت مجمل رأى أحمد فؤاد وفريال في الرد على حديث فضيلة.

كانت فضيلة قد اتهمت الرئيس جاك شيراك بالاستيلاء غير القانونى على شقة أحمد فؤاد في باريس، وهى شقة فاخرة ذات مساحة كبيرة وأسقف مرتفعة تقع في مبنى عريق وسط العاصمة الفرنسية، يقدر البعض قيمتها بأربعة ملايين يورو، وقد سمعت في باريس أن ثمن الشقة كان إهداء من الأمير السعودي عبدالعزيز بن فهد.

قالت لى الأميرة فريال: إن فضيلة تكذب، ويبدو أن عقلاها قد أصابه شيء، إن فضيلة أضاعت الشقة لأنها أخذت المال ولم تدفع، ولكن عقلاها يصور لها أن جاك شيراك على خلاف معها، وأنه يضع فضيلة في رأسه، ولذا أراد شيراك أن يغيظ فضيلة فطردها من الشقة!

وواصلت الأميرة فريال: إن فضيلة تتخيل أشياء غير حقيقية، تتخيل أنها متزوجة من أخى وهى مطلقة، وتتخيل أن علاقتها بأخى نموذج للعلاقة الزوجية التى يخشى عليها من الحسد، وهى في وضع طلاق وصراع عنيف منذ أكثر من عشر سنوات، وهى تتخيل أن أبناءها محمد على ولطيفة فوزية وفخر الدين، على علاقة رائعة بالوالد الملك، رغم أنهم لم يروا أباهم منذ أحد عشر عاماً، ما عدا فوزية التى ركبت القطار من استراسبورج - دون علم أمها - وذهبت لزيارة والدها في سويسرا، فعلت فوزية ذلك مرتين في أحد عشر عاماً!

وتتخيل فضيلة أنها لاتزال مرغوبة من الأسرة المالكة السعودية والأسرة المالكة المغربية رغم أنها لم تعد لها أى صلة بال سعود أو بالبلاط المغربى.

ثم إن فضيلة في حديثها معك كانت عشوائية، تمتدح العائلات المالكة والثورية معاً، امتدحت آل سعود وأسرة محمد السادس بمثل ما امتدحت الرئيس السوري بشار الأسد

والرئيس الليبي معمر القذافي.

وواصلت فريال، إن فضيلة تحكى باستمرار عن اسم ابنتها، فوزية لطيفة، وابنها فخر الدين اللذين ولدتهما في ضيافة الأسرة المالكة المغربية، ولذا أعطيت فوزية لطيفة اسماً مركباً.. حيث الاسم الأول «فوزية»، ينتمى للعائلة المالكة المصرية والاسم الثانى «لطيفة»، هو اسم زوجة الملك الحسن الثانى والد الملك محمد السادس.

كما أن الملك الحسن الثانى هو من سمى «فخر الدين» بهذا الاسم تقديرًا لأحد الأمراء الكبار في التاريخ العربى، لكن فضيلة لا تحكى أبداً عن منع استقبالها في قصر محمد السادس، وعن قطيعة العائلة المالكة المغربية التامة لفضيلة، ومنع الدعم المالى والعنوى لها.

(13)

التقيت الأميرة فريال للمرة الأولى في منزل المهندس إيهاب شفيق بالزمالك، وقد حضرت اللقاء سيدة أرستقراطية من عائلة الألفى.

حكى لنا المهندس إيهاب شفيق عن موقف لا ينسى جرت وقائعه في هذا المنزل، كان ذلك في عام 1986، وكانت ملكة الدنمارك مارجريت الثانية في زيارة إلى مصر، وأعجبتها الأجواء في مصر فقررت مد الزيارة.

وكان أن اتصل الأمير صدر الدين الأغاخان بالمهندس إيهاب شفيق وطلب منه إقامة حفل استقبال على شرف الملكة مارجريت، وبدوره وجه المهندس إيهاب الدعوة إلى الملكة فريدة وعدد من الشخصيات البارزة، ولكن الحفل لم يتم، فقد كان ذلك يوم أحداث الأمن المركزى الشهير، وجاء على الفور طاقم من الرئاسة المصرية وطلبوا عدم إكمال الحفل وتأمين عودة ملكة الدنمارك إلى بلادها، وجرى تجهيز طائرة هليكوبتر أقلعت من نادى الجزيرة بعد أن قطعت الملكة مارجريت وسفيرتها وطاقمها الطريق من منزل إيهاب شفيق إلى أسفل كوبرى الجلاء إلى ما وراء فندق الماريوت إلى نادى الجزيرة مشياً على الأقدام، كانت الأميرة فريال تسمع تلك القصة المثيرة التى شهدت والدتها الملكة فريدة وكأنها تقول، ثمة أقدار تواجه كل فرحة ملكية تخص عائلتها!

اتفقت مع الأميرة فريال على إجراء حوار في اليوم التالى، حجزت قنائة «دريم» جناحاً مميزاً في فندق ماريوت حيث جرت وقائع الحوار.

تكره الأميرة فريال أضواء الكاميرات، وتخشى من التعامل مع أى تجمع من الناس، وهى تفضل اللقاءات الثنائية والثلاثية، ولا تحب الجلوس مع الغرباء، وحين أقمت حفل غداء على شرف حضورها في فندق شيراتون القاهرة، قالت لي، لا تدعو عدداً كبيراً من الناس، أنا اختشى، وهى عبارة قديمة تقولها الجدات في الريف المصرى دلالة على الحياء الزائد.

فى فندق الشيراتون جلسنا في مطعم علاء الدين، وكان حاضرا الأصدقاء مجدى الجلاد وعمرو خفاجى ودينا عبدالرحمن وحنان مطاوع وعواطف سراج الدين وتصدر المائدة الشاعر الكبير فاروق شوشة، وسألتنى الأميرة فريال عن الجهة المقابلة للفندق، قلت لها مبتسماً هذا هو النيل، قالت ساخرة، وهل أنا قلت لك إنها ترعة، أنا أسالك عما وراء النيل.

لقد تواصلت ذلك الأداء الطيب الساخر حين ذهبت معها في صحبة المهندس إيهاب شفيق إلى منتجع دريم لاند في مدينة أكتوبر، حيث أقام لها الدكتور أحمد بهجت والسيدة زوجته، مأدبة غداء.

كنا على الطريق الدائرى للقاهرة وسط زراعات الحقول التى تمزقها المساكن، قالت لى الأميرة فريال، ما هذا المزروع هناك؟ قلت لها، هذا كرنب.

قالت لي، هل تظن أننى لا أعرف الكرنب، أنا اشتغلت في الفلاحة وزرعت سنوات طويلة، أنا أسالك عما وراء الكرنب والبرسيم!

وصلنا فندق هيلتون دريم قبل موعدنا، فجلسنا نحتسى القهوة قبل مجيء الدكتور بهجت، سألتنى من جديد، ما هذا؟ قلت لها، هذا ملعب جولف، قالت يا إلهى، هل تظن أننى مثلك، فلاحة قادمة من بسيون لا أعرف ملاعب الجولف، أنا أسالك عن نوع الشجرة التى أمامنا!

زارت الأميرة فريال دريم لاند مرة ثانية، وجاءت في صحبة ابنتها الدكتورة ياسمين وزوج ابنتها الدكتور على شعراوى، حفيد السيدة هدى شعراوى، وقد دعاهم الدكتور بهجت إلى جولة وغداء، وعادت الأميرة لتحكى لى عن يوم رائع قضته هناك.

(14)

مضت أيام وعلمت لالتقى الأميرة فريال في منزل الدكتورة لوتس عبدالكريم، والدكتورة لوتس مثقفة وسيدة مجتمع مرموقة، وهى صاحبة مجلة شموع، ولها كتاب

عن الملكة فريدة بعنوان: «الملكة فريدة وأنا»، وقد دعت في حفل العشاء الذي أقامته في منزلها في
حي المعادى الكاتب أنيس منصور، والدكتور بطرس غالى والفنان يحيى الفخرانى وزوجته
الكاتبة ليس جابر، مؤلفة مسلسل الملك فاروق.

سأل الفنان يحيى الفخرانى الأميرة فريال عن الخاتم الملكى الذى ترتديه، وسألته
بدورى عن فيلم محمد على الذى يستعد لبطولته، وأما مصور الأهرام أيمن برايز فقد كان
مشغولاً كعادته بالتقاط كل الاحتمالات التى يمكن أن تكون صوراً!

(15)

مضت أسابيع وذهبت إلى باريس، اتصلت بالأميرة فريال في سويسرا وأبلغتها خريطة
سيرى في فرنسا، قالت لى: إننى قادمة إليك، ساركب القطار من جنيف إلى باريس بعد
يومين.. سأتى لزيارة صديقة لى من أميرات آل سعود.

انتظرت الأميرة فريال في فندق «البرنس دو جال» في شارع جورج الخامس وسط باريس،
جاءت الأميرة في موعدها ترتدى بالطو ثقبلاً تحته ملابس شبه رياضية، دلفنا إلى حديقة
البهو في البرنس دو جال، حيث واحد من أجمل مطاعم العاصمة الفرنسية، وهناك اغلقنا
الهواتف المحمولة وبدأنا الحديث في كل شئ، كانت الأميرة تتحدث معى وكأنها تلقى
حديث الوداع، صفاء وتدفق وتنوع وتركيـز، تحدثت عن فاروق وفريدة، وعن ناريمان
وأحمد فؤاد، عن أخواتها وعماتها، عن الثورة والنفى.. عن فضيلة وفوزية لطيفة.

(16)

حل شهر رمضان، وجاءت معه الأشهر الأخيرة من حياة الأميرة، وبعد لقائنا في باريس،
جاء اللقاء الأخير في مسجد الرفاعى، ماتت البهجة وسكنت الأميرة الرائعة إلى الأبد، جاءت في
نعش يحمل علم مصر القديم.

وجاء في مقدمة النعش أحمد فؤاد وياسمين ابنتها، في مشهد متكرر منذ الثورة، مشهد
الدفن لأفراد أسرة محمد على واحداً تلو الآخر.

كانت زيارات أحمد فؤاد وفريال المشتركة إلى مصر في السابق لأجل الدفن باستمرار،
وهذه هى المرة الأخيرة لهما معاً، واحدة إلى أعلى وواحد إلى الأمام، وبينهما نعش!

دفنت الأميرة إلى جوار أبيها، وجلس أحمد فؤاد يتذكر رحلة موجهة للعائلة، من

القصور إلى القبور.. من مملكة ضائعة في مصر إلى شقة ضائعة في باريس.. وابنة بعيدة في
استراسبورج!

قالت لي نيللي، سكرتيرة الملك السابق أحمد فؤاد، في العزاء الذي أقامته العائلة في فندق
سميراميس: أنا أعرفك جيداً من الأميرة فريال، وقال لي الملك أحمد فؤاد: كنا نتوقع
حضورك، نشكرك على مجيئك، قلت له: رحم الله الأميرة والبقاء لله.. حقاً.. يا لها من عبارة
جامعة مانعة.. البقاء لله وحده.

الفهرس

5	مصر الكبرى من النيل إلى الفرات.. مقدمة.....
19	مصر الكبرى من النيل إلى الفرات.. الآن نستطيع

21	الفصل الأول / من هنا لا نبدأ.. مقالات قبل الثورة
23	صلاة الشيخ الشعراوي!
27	مصر - المصريين = صفر (1)
29	مصر - المصريين = صفر (2)
31	مصر - المصريين = صفر (3)
33	مصر - المصريين = صفر (4)
35	ماذا كنت تفعل أثناء الحرب يا أبي؟

39	الفصل الثاني / مصر الصغرى.. مقالات قبل الثورة
41	خريف الضمير.....
43	فاسدون ضد الفساد!
45	لماذا يتسبم الفاسدون بخفة الظل؟
49	الجاهل إذا تولى منصباً فهو فاسد.....

53	عن السياسيين حديثي الولادة!
55	في مديح حزب أعداء النجاح
59	مصر إذا حاربت
61	اقتصاد المرض
63	الدولة العزبة.. أوهام "التايم"
65	السادات يمول حملة نيكسون
67	الأهرام تشتري النيوزويك
69	لماذا لا تشتري مصر قنبلة نووية؟ (1)
71	لماذا لا تشتري مصر قنبلة نووية (2)
73	إلغاء دورة حوض النيل
75	كلية العلوم جامعة القاهرة
77	البرازيل
79	الهند
81	كلية الاقتصاد والعلوم السياسية
83	تخصيب اليورانيوم في مصر (1)
85	تخصيب اليورانيوم في مصر (2)
87	ثورة 14 يناير المجيدة
89	الفصل الثالث / ربيع القاهرة.. ثورة 25 يناير
91	الجمهورية الأولى
95	حلّ الحزب الشيوعي وحلّ الحزب الوطني
99	ولكن جمال عبد الناصر أفضل من جيفارا

103	ماسبيرو.. ترميم القوة الناعمة
107	عودة الملكية.. أحمد فؤاد الثاني رئيساً لمصر
111	مصر.. البحث عن نظرية سياسية جديدة
115	القذافي مفكراً.. غروب العقل
119	خريف القذافي
123	الأسطول السادس
127	كونفيدرالية جديدة.. مصر وليبيا والسودان
131	القابلية للإستعمار.. مالك بن نبي
135	عن الطفأة والغزاة.. لقاء مع الأمير الحسن
141	الفصل الرابع / المؤرخون الجدد في مصر
143	المؤرخون الجدد في مصر
147	الملك فاروق.. مصري من أسرة مصرية
151	عيد الاستقلال
153	بلاك ووتر الفرعونية
155	عن التسعب الذي لا يثور
157	في مديح التسعب المصري
159	الجزء الثاني من الحضارة المصرية
161	عصر الاستقلال (1)
163	عصر الاستقلال (2)
165	عصر الاستقلال (3)
167	جريمة رائعة (1)
353	

169 جريمة رائعة (2)
171 صلاح سالم.. ثائراً وتثارعاً!
175 أحد عتيرَ عاماً.
177 المنتير عامر وحسن نصر الله!
181 المنتير عامر ليس حائط مبيكي.
185 العُمدة والجنرال!
189 الفريق التناذلي 1948
193 الفريق التناذلي وعبد الناصر.
197 الفريق التناذلي.. وحرب اليمن.
201 1967.. الفريق التناذلي يحتل موقعاً في إسرائيل!
205 ناصر 1957
207 ناصر 1960
209 القمر الصناعي المصري 1967
211 فؤاد زكريا.. عصر عبد الناصر.
215 فؤاد زكريا.. عصر أنور السادات.
217 فاتن حمامة.. حزب الوفد.
221 فاتن حمامة.. عبد الناصر والسادات.
223 هند رستم.. ما وراء الفن.
225 هند رستم.. عن الإقطاع والمخابرات.
227 هند رستم.. عن الشيوعية والإخوان.
229 الشيخ كتتك.. عبد الناصر والسادات.

233	خرافة الوثائق!
237	من عميد المؤرخين إلي المؤرخين الجدد
241	من المؤرخين الجدد إلي عميد المؤرخين
243	ارتباك
245	المؤرخون الجدد من جديد (1)
247	المؤرخون الجدد من جديد (2)
249	المؤرخون الجدد من جديد (3)
251	1967.. هزيمة عادية (1)
253	1967.. هزيمة عادية (2)
255	1967.. هزيمة عادية (3)
257	الفصل الخامس / انتخاض وأحداث
259	أبي
263	عمرو خالد والمخابرات البريطانية (1)
267	عمرو خالد والمخابرات البريطانية (2)
271	مذكرات رجل عظيم
275	نصف عبد الوهاب المسيري.. كان كافياً
277	حفلى عزاء
281	مات الفيلسوف
283	مصطفى متترفة.. مصر سابقاً (1)
287	مصطفى متترفة.. مصر سابقاً (2)
291	مدرسة عاطف عبيد السياسية (1)
355	

مدرسة عاطف عبيد السياسية (2) 293

الفصل السادس / بيسيون والعالم 295

صلاة التراويح في باريس (1) 297

صلاة التراويح في باريس (2) 299

صلاة التراويح في باريس (3) 301

مسجد ليوناردو دي كابريو (1) 303

مسجد ليوناردو دي كابريو (2) 307

مسجد ليوناردو دي كابريو (3) 311

بسيون - دبي.. أغلى سرير في العالم 315

بسيون- أوساكا .. مائة ساعة في اليابان 317

بسيون - وانتنطن: لماذا يكرهوننا؟! 321

بسيون- فينسيا.. في المصرف الصحي المقارن! 323

بسيون - سويسرا.. البديل الأمن 325

بسيون - فيينا.. البَطّ والسلاح 327

بسيون - بودابست.. هناك جديد كل يوم 331

بسيون - بوخارست.. عند الجيران ثلاث آلاف غرفة نوم.. 333

مهرجان بيسيون السينمائي الدولي 335

الفصل السابع.. مذكرات محدودة 337

قصور وقبور.. قصة الأميرة فريال 339

مصر الكبرى

أحمد المسلماني

" يا لها من مفارقة مذهلة.. لصوص يهاجمون السرقة، وحمقى يطاردون الجهل،
وعصاة يدعون إلى مملكة الجنة"

" سوف يتوقف التاريخ طويلاً أمام حسنى مبارك.. كيف أمكن لهذا الرجل أن
يمضى مع رجاله فوق أسطول من الجرافات.. قطعت ثلاثين عامًا من الإزالة
البطيئة المتواصلة.. لنجد مصر في عام 2011 مليون كيلومتر مربع من الأرض
الفضاء."

" لا خطوة لنا إلى الأمام دون الترميم النفسي لمصر.. أن يُصاب المصريون
بالفرور والاستعلاء.. أن يشعروا أنهم أعلى وأسمى من الآخرين.. إننا نحتاج إلى
تأسيس نظرية نصف عنصرية تقوم على العظمة الاستثنائية للمصريين"

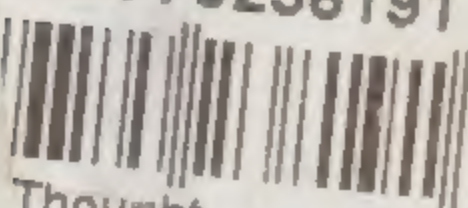
" لقد مثل دخول الإسلام إلى مصر عودة الروح لحضارة منهكة.. لم
المصريين إزاء المجددين العرب سكون الخائف والمستسلم..

بل ترحيب من يستعد لقيادة الحضارة الإسلامية الجديدة، وقيادة
أنفسهم في المعارك العالمية الكبرى التي خاضتها الحضارة العربية الإ
حطين وعين جالوت بقيادة مصر."

Bibliotheca Alexandrina



1156776



Thought
L.E 35.00